

١٠ قروش

كتاب الهلال



عائى لهامش الففران

الدكتور لويس عوض

سلسلة
ثقافية
شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة: أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير: محمود أمين العالم

العدد ١٨١ ذو الحجة ١٣٨٥ - أبريل ١٩٦٦

No. 181 - Avril 1966

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العزب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية
العربية المتحدة جنيه مصرى - فى السودان جنيه
سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا
لبنانيا - فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠
مليم - فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف - فى سائر
انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ،
ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥
فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الحلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الفلاف بريشة

الفنان جمال كامل

عای لہامی الفقرات

تألیف

الدكتور لويس عوض



دار المحلل

الأهداء

الى سر محمد مندور ،

سئم صحبة الأشباح القلقة ،

فتلقى عنى طعنة ثم مضى ،

الى وديان الآس والريحان والغفران العميم .

على هامش الغفران

عندما نشرت هذه البحوث التسعة فى ملحق « الاهرام » بين ١٦ اكتوبر و ١١ ديسمبر ١٩٦٤ تصدى لنقدها ولنقدى المحقق المعروف الاستاذ محمود شاكر على صفحات مجلة « الرسالة » وشاركه فى هذا العبء اساتذة آخرون فى مجلتى « الرسالة » و « الثقافة » وغيرهما . وقد وجد نقادى ما يقولونه فى عملى المتواضع هذا قولا متصلا على صفحات هاتين المجلتين من بداية صيف ١٩٦٤ الى بداية صيف ١٩٦٥ ، وما فرغوا ، ولكن هكذا شاءت المقادير ان يصمتوا عنى حين كان يجملى ان يصمتوا . ولو ان كل ما كتبه نقادى عنى ابان هذه الفترة جمع فى مجلدات لبلغ عددها خمسا او ستا من اضخم الاحجام . ولست احسب ان كل ما كتبه نقادى عنى كان يدور حول موضوع « الغفران » ، فقد استوردوا الى وجوه اخرى من انتاجى الادبى والفكرى خلال ربع قرن كانوا قد صمتوا عنها ذلك الزمان المديد ، ثم شاعوا فجأة ان يتناولوها بالنقد والتحليل : وفى مقدمة هذه الوجوه موقفى القديم من مشكلة الازدواج اللغوى وموقفى القديم الجديد من عمود الشعر العربى التقليدى ، ثم موقفى من تاريخنا الثقافى والفكرى ابان الحملة الفرنسية على مصر وموقفى من تاريخنا القومى والروحى ابان ثوراتنا الكبرى على روما وبيزنطة ، ثم بعض اجتهاداتى

عن ابن خلدون . واخيرا وليس آخرا موقفى من
السياسة ، وهو ما عجزت وعجز الناس عن فهمه لانى لا
اكتب فى السياسة ولا سبيل الى معرفة ارائى فيها الا لمن
أوتى العلم اللدنى والقدرة على التفتيش فى ضمائر الناس
وأفئدتهم . ولكن الذى لا شك فيه ان كلام نقادى عن
« الغفران » كان بمثابة حجر الزاوية فى كل هذا النقد
الغزير . ومجمل هذا الكلام انى ارتكبت اثما عظيما
وتطاولت على حضارة العرب حين ذهبت الى ترجيح ان
المعري كان مطلعا على تراث اليونان

ومن اراد فكرة مجملة عن صورتى فى ذهن نقادى ، فهى
اننى ، باختصار ، فى يقين بعض ادباء اليسار قائد الفكر
اليمنى فى العالم العربى ، كما كتب عنى الشاعر المبدع
عبد الوهاب البياتى وذلك الناقد اللبناني الشريف القلم
العف البيان حسين مروه ، وانى باختصار فى يقين بعض
ادباء اليمين قائد الفكر اليسارى الماركسى الملحد فى العالم
العربى كما كتب عنى نقاد مجلتى « الرسالة » و « الثقافة »
وغيرهما ، وفى يقين فئة ثالثة انى آخر قنصل للعالم
المسيحى فى مصر منذ الحروب الصليبية ، كما كتب عنى
الاستاذ محمود شاكر فى كتابه « اباطيل واسمار » ، وهو
الجزء الاول من مقالاته عنى فى مجلة « الرسالة » ، وفى
يقين فئة رابعة انى داعية فكرى للقومية المصرية الفرعونية
وعدو فكرى للقومية العربية كما روى عنى الاستاذ ميشيل
عفلق وكما صورنى نقاد مجلتى « الرسالة » و « الثقافة »
وغيرهما . وقد كان آخر نعت نعت به على سبيل الدعابة
اننى قنصل اثينا واسبرطة فى ديار مصر ، كما وصفنى
صديقى الفنان المبدع سعد الدين وهبه فى مجلة « اخر ساعة »
فى شهر ديسمبر ١٩٦٥ ، لاشك لانى ترجمت « ضفادع »
أرسطوفانيسى و « أجامنون » اسخيلوس وبعض نقس

اليونان . ولقد كدت ان انسى ان بعض نقادى فى مجلتي « الرسالة » و « الثقافة » وغيرهما اوحوا فيما كتبوا انى على رباط بتيار صهيونى مشبوه لانى نشرت منذ نحو عامين قصيدة فى مجلة « حوار » اللبنانية الصادرة عن المنظمة العالمية لحرية الثقافة ، وهى منظمة يمثلها بيننا الدكتور ابراهيم بيومى مذكور سكرتير عام المجمع اللغوى ، وقد استكثبت هذه المنظمة فى « حوار » فى نفس الفترة توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وسهير القلماوى وبنت الشاطىء وعبد الرحمن بدوى ومحمد مندور الخ ... او نشرت لهم الاحاديث او مولتهم للمشاركة فى مؤتمراتها ولجانها

كل هذه المتناقضات كتبت عنى فى فترة « الغفران » او حولها . ولا شك انى انتفعت بشىء قليل من نقد نقادى ، ولا سيما الاستاذ المحقق محمود شاكر ، ولولا جهل وجنوح قلمه لانتفعت من علمه كثيرا . ولكنى فى الحق لم اكن الى حين قريب ، او الى عام ١٩٦٥ ، على وجه الدقة ، اتصور انى امثل كل هذه الخطورة فى الثقافة العربية او على الثقافة العربية بحيث يصدر عنى فى عام واحد ثلاثة كتب هى « الغزو الفكرى » لجلال كشك و « اباطيل واسمار » لمحمود شاكر و « دراسات نقدية فى ضوء المنهج الواقعى » لحسين مروه ، عدا المئات من عرائض الاتهام فى المجلات الثقافية ، اكثرها فى مصر واقلها فى العالم العربى ، وهى تشتمل على اتهامات ، لو صدق اقلها ، لاستوجبت نبذى من صفوف الامة العربية من الخليج الى المحيط

ولكنى - والله احمد - قد استعنت على هذه المحنة باحساسى العميق بان كل هذا الضجيج من حول ما ارى وما اكتب لا يمثل الا وجهات نظر جزئية تراها فئة قليلة

من الناس ، اكثرهم من غلاة اليمين أو غلاة اليسار ، وانى
 - والله أحمد - لازلت فى يقين الكثرة الغالبة من المثقفين
 العرب ، ولا سيما المعتدلين منهم ، خادما مخلصا بين
 خدام الثقافة العربية المخلصين ، ان كان لابد له من
 تبويب ، فهو فى صف التقدم والحرية والانسانية بوجه
 عام . وانى قد أصيب وقد أخطئ فيما اكتب وفيما
 أرى ، ولكن شططى لا يوصد دونه باب الغفران لانه من
 شطط الاجتهاد لا من شطط الضمير . هذه الثقة وحدها
 هى ادام الكاتب وقوته ، وهى بلسمه الشافى كلما أثخت
 روحه بالجراح . ولكم أعاننى على احتمال هذه الشدة ،
 انى علمت من صديقى الشاعر مصطفى بهجت بدوى ان
 دار الهلال قد وزعت من كتابى « البحث عن شكسبير »
 نحو ثلاثة عشر ألف نسخة فى شهر واحد رغم أنه سبق
 نشره ، ثم علمت من صديقى القصاص الهام سيف النصر
 ان « الكتاب الذهبى » وزع من كتابى « مذكرات طالب
 بعثة » نحو عشرة آلاف نسخة فى عشرة أيام فنفدت طبعته
 الاولى . وهنا قالت نفسى : ماذا حدث ؟ لم يحدث شيء
 غير مألوف . انت تقول كلمتك ومن حق الغير ان يقول
 كلمته فيما تقول . ومن قبلك كم أودى كاتب او مفكر
 أو عالم فيما كتب أو فكر أو علم ، فلتكن محكمتك هى الساحة
 الكبرى ، ساحة الجماهير المثقفة التى لا تدين الناس
 بالهوى ولا تأخذهم بالشبهات ، ولتكن لك أسوة باستاذك
 الكبير طه حسين الذى أودى من قبلك بهجر القول فى
 العشرينات من هذا القرن حين أراد تجديد تراث الابداء
 والاجداد باعادة فتح باب الاجتهاد فيه على ضوء المنهج
 العقلى والعلمى ..

هذا اذن هو بيت القصيد فى موضوع « الغفران » .
 فلو اننا نسينا كل ما قيل من كلام محقق فى هذا الموضوع ،

بقى امامنا شيء واحد جدير بأن ينظر فيه : وهو ان المنهج الذي التزمته في هذه الدراسة عن أدب الإخوة بصفة عامة ، وعن « رسالة الغفران » بصفة خاصة ، وهو من اوليات الادب المقارن ، هو في ذاته مصدر ازعاج للمحافظين من الادباء والعلماء لان معناه فتح باب الاجتهاد من جديد في دراسة تراثنا ، وهو مالا يطيقه المحافظون لانه قمين بأن يخلخل كثيرا من آرائنا ، ومعتقداتنا الخاطئة الثابتة عن التراث . وهم ينسون ان الازدهار الاكبر في الفكر العربي انما افترن بفتح باب الاجتهاد على مصراعيه أيام مجد العرب في الدولة العربية الكبرى خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة ، وان انتكاسة العرب بعد الدولة العباسية الثانية لم تقترن بتفككهم السياسي فحسب بل اقترنت ايضا باغلاق باب الاجتهاد منذ آل السلطان الى المماليك والأتراك ، لاريب بسبب هذا الضعف السياسي ذاته : فالضعيف ، في ميكانيكية الدفاع عن النفس ، وحده هو الذي يخشى الفكر الحر والبحث الحر ويرتعد امام العلم والعقل والتجدد بوثبات الخلق وبالرؤيا الرحبية الافاق . والضعيف وحده ، في جزعه على ذاته ، هو الذي يخشى محاكمة النفس ومواجهة النفس وتلقيد النفس ، واحصاء ما يملك حقا من عدة وعناد ، ويؤثر ان يعيش في عالم من أوهام الكمال واكاذيب الفردانية الماثورة عن جنة المجانين . . .

فقضية هذا الكتاب تتلخص في كلمتين : ليس هناك سبيل الى بعث تراثنا وتجديده الا باعادة دراسته على ضوء العلم والعقل لنغربله ونفصل هشيمه عن بنوره معطية الحياة . والادب المقارن ، مثل فقه اللغة المقارن والاساطير المقارنة والفلسفة المقارنة والاديان المقارنة والقانون المقارن ، هو أحد الادوات الهامة التي نغربل بها

تراثنا ونعرف بها وشائجه مع ما جاوره وما سلفه وما خلفه من آداب ، وبهذا نضع أدبنا وفكرنا في سياق الادب الانساني والفكر الانساني العظيم . أما عزل التراث ، وكأننا نحن في تابوت ونتلو عليه صلوات الكهان أو نضعه كالعليل في محجر صحي أو نحرس عليه في بيت من زجاج شأن النباتات المنقولة الى غير مناخها ، فلن نصيب منه الا الاقليمية والمحلية ، وهما ما نحاول الان تحطيمه لنندمج في المحيط الانساني من جديد ، بعد أن عزلنا الترك وراء سور الشرق العظيم آمادا طويلا . وأول الاوليات في كل دراسة مقارنة هي البحث عن الجذور المشتركة وعناصر التأثير والتأثير . وليس هناك ما يدعو الى الانزعاج من البحث عن المؤثرات الادبية والفكرية في أدب الادباء وفكر المفكرين مهما عظم شأنهم ، لان «التأثير» شيء و «السرقه» شيء آخر . ونحن الان حين نتحدث عن مصادر شكسبير الرومانية عند بلوتارك وسواه ، أو عند هولنشييد وساكسبوجراماتيكيوس وبانديللو في «ماكبث» و «هاملت» و «الملك لير» و «عطيل» و «روميو وجوليت» و «تاجر البندقية» الخ . . . لا نقصد أن شكسبير سرق مسرحياته من هؤلاء الاسلاف وانما نقصد أنه استعار منهم ومن الحياة مادة خاما وصاغها بعبقريته الخلاقة في تراجيديات وكوميديات خالدة ، وهو ما فعله شعراء المسرح اليوناني : استمدوا خاماتهم من الملاحم الهومرية ، ومن الحياة ، بل وما فعله هوميروس نفسه حين استمد خاماته من الشعراء الرابسوديين الجوالين الذين سلفوه ومن الحياة أيضا . أما نسبة الخلق من العدم الى بشرى كائنا من كان ففيها من الشرك شيء كثير

٧ يناير ١٩٦٦

لوييس عوض

نحيم هوميروس

قضيت عام ١٩٦٤ أترجم كوميديا « الضفادع » لارسطوفانيس سيد الكوميديا اليونانية بوصفها نصا من نصوص النقد الادبي ، ففكرة كوميديا « الضفادع » تقوم حول الموازنة بين الشعراء ، أو على الأصح بصفة أساسية بين قطبي المسرح اليوناني القديم ، اسخيلوس ابو التراجيديا ، وأوريديس سيدها الذي لا يباريه الا الاقلون . وفكرة الضفادع تقوم على أن ديونيزوس اله الخمر والدراما عند اليونان حين جاءه نبأ موت الشاعر التراجيدي أوريديس حزن لموته حزنا شديدا حتى قرر أن يرحل الى العالم الآخر ويعود بأوريديس الى عالم الاحياء . « فالضفادع » اذن تصور رحلة الى السدار الآخرة ، حيث أرواح الموتى ، وهى تستخدم هذه الرحلة لنقد الادب والادباء وعقد الموازنات بينهم والسخرية بهم ومناقشة أساليبهم ومحاسنهم وأخطائهم ومواضع القوة والضعف فيهم

وبعد أن فرغت من ترجمة « ضفادع » ارسطوفانيس كان طبيعيا أن تلهب هذه الكوميديا فى نفسى الرغبة فى العودة الى ذلك العمل الادبي العربى الخالد الذى

لا يسع أى قارئ « للضفادع » إلا أن يفكر فيه ، إلا وهو « رسالة الغفران » لابى العلاء المعرى . « ورسالة الغفران » للمعرى هى ايضا مثل « الضفادع » لارسطوفانييس وصف رحلة للعالم الآخر اتخذ منها صاحبها وسيلة لاقامة الموازنات بين الشعراء ولنقدهم ولمناقشة أساليبهم واطهار مواطن القوة والضعف فيهم . واستبدت بى الرغبة لتجديد ذكرى ابى العلاء ، وهكذا وجدت نفسى أعود الى « رسالة الغفران » بعد ثلاثين سنة بالتمام والكمال . وكنت قد قراتها فى طبعة كامل كيلانى أيام الطلب فى الجامعة ، وربما قبل ذلك ، فقرأتها هذه المرة فى الطبعة التى حققتها الدكتورة بنت الشاطىء مع رسالة ابن القارح . وأشهد أن تحقيقات الدكتورة بنت الشاطىء قد أعانتنى على التغلغل فى كثير من غوامض النص وانى انتفعت من بعض آرائها كثيرا . . .

واغرتنى العودة الى المعرى العظيم بتجديد ذلك الموضوع الخطير فى تاريخ الاداب العالمية ، إلا وهو موضوع تأثر الشاعر الايطالى العظيم دانتى صاحب « الكوميديا الالهية » بكتاب المعرى الخالد « رسالة الغفران » ، واستبدت بى الرغبة الى اعادة فتح باب الاجتهاد فى هذا الموضوع الخطير الشأن فى كل دراسة من دراسات الادب المقارن ، فوجدتنى أعود لدراسة « الكوميديا الالهية » الخالدة واجول مع صاحبها فى رحلته الى عرصات الجحيم والى معابر المطهر والى رياض الفردوس

وهنا قالت نفسى وكيف يكتفى الباحث الادبى بدراسة ارسطوفانييس والمعرى ودانتى ان هو أراد أن يضع يده على الحقائق بطريقة أقرب ما تكون الى الحصر واليقين ؟ ان ارسطوفانييس والمعرى ودانتى لم يكونوا الادباء الوحيدين الذين زاروا الاخرة - فى رؤيا الخيال -

ووصفوها في أدبهم للناس فرحلات الشعراء للعالم الآخر كانت قبل هوميروس ولم تنقطع بعد هوميروس ، ولا سبيل اذن الى رد كل شيء الى اصله على سبيل اقرب ما يكون الى اليقين ، ثم لا سبيل الى تتبع تسلسل أفكار الشعراء عن العالم الآخر سواء بالتأثير الادبي الخاص او من خلال التراث الروحي الشائع المتوارث ، الا بالرجوع الى « أوديسا » هوميروس و « انيادة » فرجيل و « تحولات » أوفيد - أو ما يسمى « بالميتامورفوز » ، وحلم شيبيو المكروبيوس فضلا عن الرجوع الى ملحمة « جلجامش » البابلية الشهيرة والى قصة المراج والرؤيا لا كما وردت في الكتب المقدسة فحسب بل كما تصورها الادباء والشعراء أيضا في قصص المدينة الفاضلة وفي قصص الورددة وجنة العشق الالهى فهذه الاعمال ليست الا حلقات كبيرة في السلسلة الطويلة من رحلات الخيال في العالم الآخر ولا سبيل الى دراسة ارسطوفانيس او المعري او دانتي الا بدراستها كلا في موضعه . بهذه الدراسة المقارنة وحدها نستطيع أن نعرف من أخذ وممن أخذ ومن أعطى ولمن اعطى ، وما مجال الابتكار الفنى وما التراث المملوك على المشاع بين بنى الانسان

ولنبدا اذن بهوميروس باعتبار أن ملحمة « الاوديسا » هي اقدم نص أدبي نعرفه جاء فيه وصف للجنة والجحيم وربما لذلك المظهر الذى يقال انه قائم فيما بينهما ، « فالأوديسا » فيما نعلم قد نظمت في زمن ما ، ما بين ١٠٠٠ و ٨٠٠ ق.م ، فهي أسبق ما نعرف من نصوص تتعرض لوصف العالم الاخر

ولنبدا بهوميروس فنقول انه جعل أوديسيوس بطل « الاوديسا » فى بعض مغامراته الكثيرة الشهيرة يزور

النسيم والجحيم . فبعد أن نجا أوديسيوس ورجاله من بلاد العمالقة اللستروجون ابصر مع رفاقه حتى بلغ جزيرة كاليبسو ثم جزيرة ايبايا حيث كانت تحكم الملكة الساحرة سيرسا او كيركا ذات الضفائر الشقراء بنت هليوس رب الشمس من برسا بنت اوقيانوس رب البحر . وكانت الجماعة منهكة جوعى تشرف على الهلاك بعد أن نفذ زادها وهداها طول التجديف في بحار لا رياح فيها . وخرجت الجماعة تستكشف قصر كيركا الساحرة ذات النواثب الشقراء ، ذلك القصر القائم وسط الدغل فوجدوا حول القصر الذئب والسباع المفترسة تتجول في الاجمة وقد سحرتها هذه الساحرة الجميلة بالعقاقير الشريرة فذهبت تتمسح في الملاحين وتهز ذيولها فرحا بلقائهم وكأنها الكلاب المستأنسة . وكانت كيركا ذات الفدائر الشقراء تغنى بصوت رخيم داخل قصرها وهى تروح جيئة وذهوبا أمام نسيج رائع من صنع نولها . ونادتها الجماعة من باب القصر فخرجت اليهم وفتحت لهم بابها المضى واقتادتهم الى قاعاته الباذخة واجلستهم على أرائك عالية وأطعمتهم من طعامها الجميل المسحور لتلهيهم عن وطنهم الا قائدهم اوريلوخوس الذى خشى مكروها فتخلف . فلما اكلوا وشربوا من كاسها غاب عنهم رشدهم فسحرتهم كيركا بعصاها السحرية واحالتهم الى قطع من الخنازير وسجنتهم فى حظيرتها ، فاذا اجسادهم وأصواتهم من اجساد الخنازير وأصواتها ، اما عقولهم فظلت من عقول البشر . وبكت الجماعة بكاء مرا

فلما عرف أوديسيوس من صاحبه بما جرى خرج فى كامل سلاحه الى هذه الفاتنة الشقراء لينجد اخوانه فدفعته اليها قوة قاهرة فهو لا يستمع الى نصيح أو

تحذير ، وفيما هو يخرق الادغال والوديان المقدسة
ويقترّب من باب القصر استوقفه السرب هرميز ذو
القضيّب الذهبي محذرا اياه قائلا انه ما من ذاهب الى
قصر هذه الساحرة الجميلة يثوب ابدا ، وسلح الرب
هرميز البطل اوديسيوس بعشب الفضيلة الذي يسميه
هوميروس « مولى » ليستعين به على شر كيركا الساحرة
ذات الذوائب الشقراء لانه يبطل مفعول شرابها المسحور .
قال فان ضربتك بعصاها السحرية فامتشق على الفور
حسامك المطعم بالفضة واهجم عليها هجمة المغتال ،
وستراها عندئذ تتراجع جزعى وتراودك عن نفسك ،
وعندئذ لا تأنف من فراش هذه الربة ذات الغدائر الشقراء
ففى يدها نجاة رفاقك . ولكن اياك اياك ان تسلم لها
نفسك قبل ان تقسم لك بجميع الارباب انها لن تدبر لك
مكرا جديدا ، فهى خليفة بأن تجردك من وجولتك لحظة
ان تراك أمامها عاريا

وهكذا انطلق اوديسيوس الى قصر كيركا ذات الذوائب
الشقراء وقلبه واجف وناداهما ففتحت له بابها المضيء .
وادخلته قاعاتها واجلسته على عرش مفضض وسقته من
الكأس الذهبية خمرها المسحور فشرب ولكنه لم يسحر
ولا غابت عن جسده روحه فلما ضربته بعصاها هجم
عليها بسيفه فجثت أمامه تستعطفه وقد تعلقت بركبتيه
مبهورة من هذا البطل العجيب الذى لم يفلح معه خمرها
او سحرها او مكرها . وعرفت انه اوديسيوس العظيم ،
ودعته الى فراشها ليصطالحا على الهوى ولكنه أبى الا ان
تقسم بأغلظ الايمان الا تمسه بسوء مما تضرر له ،
فاقسمت على الفور . واقبلت جواربها يقمن على
خدمتهما ، وكن اربعا . ولنترك هوميروس يصف بنفسه
هذا الزفاف العجيب على لسان اوديسيوس فى الكتاب

العاشر من « الاوديسا »

« وكانت جواربها طوال هذا الوقت يسعين مشتغلات في القاعات وكن اربع عذارى يخدمن في الدار ولدن من الينابيع ومن الغابات ومن الانهار المقدسة التي تجري صوب البحر الاجاج ومنهن واحدة اقلت على الارائك اغطية من المخمل النفيس ومن تحتها فرشت ملاءة من الكتان ، ومنهن اخرى ، واعجبا ، مدت موائد فضة امام الارائك ، وعلى الموائد الفضية وضعت سلالا ذهبية . ومنهن ثالثة مزجت النبيذ بالشهد الحلو في دن من الفضة ووضعت على المائدة كئوسا من ذهب . ومنهن رابعة حملت ماء واضرمت تحت الاناء الجسيم نارا عظيمة ادفأت الماء ، ولكن ما ان غلا الماء في الاناء النحاسي الوضاء حتى ادخلتنى حماما وغسلتنى بماء اخذته من اناء عظيم وهى تسكب الماء على راسى وكتفى بعد ان تخلطه بما يجعل دفته لذيذا ، وظلت تفعل هذا حتى ازالته من جسدى كل ما كان يَمْضه من تعب . وبعد ان غسلتنى وضمختنى جيدا بزيت الزيتون والقت على كتفى مئزرا جميلا والبستنى صدارا اقتادتنى الى قاعات القصر واجلستنى على اريكة بديعة التكوين ، وتحت قدمى كان هناك مقعد صغير ترتاح عليه قدمائى . وجاءت جارية تحمل ماء فى وعاء ذهبى جميل لاغسل به يدى ، وصبت الماء فى حوض فضى ، والى جوارى جذبت مائدة صقيلة ، وحملت سيدة وقور خبزا صنّع من القمح ووضعت به جانبي ، وعلى المائدة صفت قطوف عديدة فى سخاء عظيم وطلبت منى ان آكل ، ولكن نفسى زهدت فى الطعام . فقد كان فكرى مهموما بافكار اخرى وكان قلبي يتوجس سرا .. »

كان أوديسيوس يفكر في رفاقه السجساء في صورة
 الخنازير ويفكر في السبيل إلى تحريرهم ، فكان طبيعيا
 أن تعاف نفسه هذا النعيم الحسى . ولم يرض أن يدخل
 فراش كيركا ذات اللوائب الشقراء ، حتى مسحت
 رفاقه ببلسم آخر من بلسمها الساحر فارتدوا كما كانوا
 رجالا ، بل ارتدوا فتيانا يرفلون في حلة الشباب ، ارتدوا
 اصغر عمرا واجمل وجها واطول قامة مما كانوا . بل
 ورجع إلى سفينته بعد أن ملاءها مؤنا وذخرا باذن منها
 ليعود ببقية رفاقه إلى قصر كيركا ذات اللوائب الشقراء
 . حيث الزاد والشراب لا ينفدان ابدا ، فانطلقوا معه
 جميعا ما خلا صاحبه أوريلوخوس المتخوف الذي ترك
 وحده ليحرس السفينة وما أن بلغت بقية الجماعة قصر
 كيركا ذات اللوائب الشقراء ودخلوا اباءها حتى فعلت
 بهم ما فعلت باوديسيوس من قبل ففسلتهم وضمختهم
 بزيت الزيتون والبست كلا منهم مئزرا وصدارا ثقيلًا ،
 وادبتهم في مادبتها فطعموا وشربوا وهذات نفوسهم وجفت
 دموعهم وطلبت كيركا من أوديسيوس ولد لايرتيس أن
 ينسى وطنه الصخرى الاجرد أيشاكا وتجوالة الطويل الأليم
 في سبيل وطنه وأن ينبذ كل همومه واحزانه ففعل ،
 واقام مع رجاله في قصرها اليوم بعد اليوم ياكلون اطيب
 الزاد ويشربون اطيب الخمر ، وشغلهم هذا النعيم عن
 وطنهم حتى مضى عليهم عام كامل . وبعد أن اتموا العام
 تحرك فيهم الحنين إلى الوطن من جديد ، فاهاب رفاق
 أوديسيوس بقائدهم أن يعود بهم إلى أيشاكا ، بعيد أن
 سئبوا هذا النعيم المقيم . فتضرع أوديسيوس إلى كيركا
 ذات اللوائب الشقراء أن تبر بالعهد الذي قطعتة على
 نفسها ، وهو أن تعينهم على العودة إلى الوطن بعد هذه
 الغربة المديدة فتدلهم على الطريق إلى أيشاكا فأجابته

كيركا بنفسى واضية : « اى اوديسيوس ، يا ابن لايرتيس
وسبط زيوس يا صاحب الحيل الكثيرة ، لابقاء لك الآن
فى دارى بعد اليوم على غير رغبة منك . ولكن لا بد لك
اولا من رحلة اخرى تقطعها حتى تبلغ الدار الاخرى ،
دار هاديس وبرسيفون الرهيبة ، حيث تسكن ارواح
الموتى ، لتبحث فيها عن روح تيرسياس بن طيبة ، العراف
الاعمى الذى لا يزال يحتفظ بعقله ، فقد وهبته برسيفون
الحكمة حتى فى الموت ليكون وحده بين الموتى رب الفهم
الشاقب ، اما بقية الارواح فهى تموج كالظلال » . .

فلما سمع اوديسيوس هذا الكلام بكى بكاء مرا واستبد
به الشقاء حتى تمنى الموت ، وسال كيركا قائلا : « ومن
ذا الذى يكون دليلى الى الآخرة يا كيركا ؟ فلما من انسان
حتى الآن اقلع الى الجحيم بسفينة سوداء » . .
فاجابته كيركا قائلة :

« اى اوديسيوس ، يا ابن لايرتيس ، وسبط زيوس ،
ويا ذا الحيل الكثيرة لا تبتئس لانك لا تجد دليلا يقود
سفينتك ، بل ارفع صاريك وابسط شراعك الابيض
 واجلس فى مكانك . وعندئذ ستدفع ريح الشمال
سفينتك فى الطريق السديد . ولكن حين تعبر فى سفينتك
مجرى اوقيانوس وتبلغ شاطئه القحل حيث دغل
برسيفون وفيه اشجار الحور السوداء واشجار الصفصاف
القديمة التى تنفض عنها ثمارها قبل موسمها ، فهناك
أرس بسفينتك عند اوقيانوس العميق ذى الدوامات
الكثيرة ، اما انت فلتقصد الى دار هاديس المليئة
بالاوحال . هناك يصب فى نهر اشرون مجرى بريفلجيثون
وكوكيتوس ، وهو رافد ينبع من ماء استيكس ، نهر
الاعراف ، وهناك تجد صخرة ، وهناك ترى النهرين
الصاخبين يلتقيان »

هناك قالت كيركا ذات الذوائب الشقراء للبطل
أوديسيوس ان يحفر حفرة واسعة ويصب من حولها
الخمير ثلاثا على ارواح الموتى - أولا خمير الشعير ثم النبيذ
الحلو ثم الماء وأن يصلى للموتى فى خشوع ويعددهم بتقديم
القرابين على ارواحهم عند عودته الى وطنه ايثاكا : بقرة
عذراء لجميع الموتى وحملا اسود ليست فيه بقعة
بيضاء واحدة لتيرسياس وحده . وبعد ان يفرغ
أوديسيوس من صلواته للموتى بدار الموتى عليه ان يضحي
حملا اسود وشاة سوداء ووجهه متجه نحو شاطئ النهر
وان يدعو رفاقه الى الصلاة لهاديس الجبار ولبرسيفون
الرهيبه ، شاهرا سيفه المسلول حتى لا تقترب ارواح
الموتى من دم الضحية ، قبل ان ياتيه تيرسياس ويدله
على طريق العودة . وعندئذ سيخف اليه تيرسياس العراف
ويدله على طريق العودة وينبئه بكل ما سيعترضه من أخطار

وفى الفجر ايقظ اوديسيوس رفاقه وجهاز سفينته
وبسط الشراع وارتحل عن هذا الفردوس الارضى بجزيرة
ايايا فى طريقه الى الجحيم او مملكة هاديس فى العالم
السفلى ، دار الموتى ودار الارواح ولم يتخلف من رفاقه
الا الفتى بينور الذى ثمل فسقط من قمة قصر كيركا
ومات لساعته . وقد انجبت كيركا من اوديسيوس ولدين
هما اجريوس ولاتينوس بحسب ما جاء فى « الـثيوجونيا »
او (انساب الالهة) للشاعر هسيود البيت ١٠١١ وما يليه

هذا هو الفردوس الهومرى الذى عاش فيه اوديسيوس
وملاحوه مع الساحرة كيركا ذات الجدائل الشقراء
وجوارىها تلك الربة الرهيبه التى تتكلم لغة البشر كما
يسمىها هوميروس فى الاوديسا ، عاش فيه عاما كاملا
منذ أن بلغت سفينته السوداء شواطئ جزيرة ايايا

الاسطورية التي قيل فيما بعد انها كانت تقع في اقليم
لاتيوم بايطاليا عند رأس الادرياتيك بالقرب من مصب
نهر البو وفيها رابية تحمل اسمها فتسمى رابية كيركا ،
حتى رحل عنها ليزور الجحيم . والحق انه لنعيم اشبه
شيء بالجحيم ، أو جحيم اشبه شيء بالنعيم ، فهذه
الجزيرة المسحورة هي في حقيقة الامر جزيرة هلاك من
وطئ شواطئها سحرته هذه الجميلة ذات النوائب الشقاء
بصوتها وبخمرها وبعشبها السحري فأحالتة الى خنزير
الا من انقذه الرب هرميز رسول الالهة الى الناس بالعشب
السحري « مولى » الذي به ينجو السعداء من هذا
المصير ويعيشون في نعيم كامل ، فلنقل اذن ان جزيرة
ايايا وسيدتها ذات الجداول الذهبية كانت بمثابة
الفردوس الارضى الذى ينسى الانسان فيه نفسه ردحا من
الزمن في رحلته الكبرى من وطنه الاول الذى اغترب عنه
الى وطنه الاخير الذى هو غائده اليه وهو لن يستطيع ان
يبلغه الا بعد أن يمر بالجحيم كما أشارت كيركا ذات
الجداول الذهبية

اما معالم هذا الفردوس الهومرى فهي كثيرة ومتميزة ،
واهمها تصوير النعيم الحسى الذى تمتد فيه الارائك
والموائد وافخر الاطعمة والقطوف التى لا تنفد ابدا وكثوس
الخمر والشهد والحدود العذارى بنات الينابيع وبنات
الانهار المقدسة وبنات الغابات يقمن على خدمة سكان هذا
الفردوس . كذلك من اهم معالم هذا الفردوس القصور
الباذخة والغابات الوارفة الظلال والانهار الجارية ،
والمعادن النفيسة التى صنعت منها الاوانى والكثوس
والكراسى والانسجة الفاخرة التى نسجت منها الثياب .
ومن أهمها التطيب بالزيت واستخدام العشب السحري
« مولى » وهى زهرة عاطرة بيضاء ذات جذور سوداء .

وتحول السباع الكاسرة والذئاب الضارية الى حيوانات اليفة مستأنسة ، وتحول البشر الى خنازير والخنازير الى بشر ، وارتداد الناس الى الشباب الطرير :

ولكن امر هذا الفردوس الهومري محير حقا ، فنحن لا نعرف ان كانت جزيرة ايايا هذه جزيرة الحياة أم جزيرة الموت . فلو كانت جزيرة الموت ففيم ذهاب اوديسيوس الى هاديس مملكة الموتى ليلتقى بروح العراف تيريسياس يستدل منها على طريقه الى وطنه بعد طول طواف وضلال ، ولو كانت جزيرة الحياة فكيف نفسر تجمع بعض اوصاف العذاب ومعالم الموت فيها كتحويل البشر الى خنازير وظهور الرب هرميز فيها وهو هادى الموتى فى اخص صفاته . فاذا رجعنا الى « الاوديسا » ذاتها فى الكتاب الخامس منها نجد ان هذه الربة ذات الصفائر الشقراء كيركا او سيرسا ، قد اقترن ذكرها ببعض الاشجار المقدسة عندها وهى شجار الحور واشجار الصفصاف واشجار السرو . وفى « سيرة بحارة الارجو » لابولونيوس الرودى ٣ - ٢٠٠ أن كيركا او سيرسا كانت لها مقبرة فى كولخيس هى دغل من اشجار الصفصاف او أم الشعور كما نسميها نحن اليوم وهى شجرة اقترنت بالبكاء والاحزان لانها تنمو دائما مائلة بغدائرها الطويلة على ضفاف الانهار وتقتون بها اقتران شجر السرو بالنمو على المقابر . وفى « سيرة بحارة الارجو » كانت مقبرة كيركا فى ايايا تلف فيها جثث الرجال طى جلود الثيران التى لم تدبغ وتعلق هذه الجثث على اعالي اشجار الصفصاف لتأكلها الطيور فقد كان اهل كولخيس لا يدفنون فى القبور الا جثث الموتى من النساء . وقد كان اسم شجرة الصفصاف فى اليونانية هليكا كذلك فى الاوديسا ٥ - ٦٤ و ٢٣٩ ان جزيرة كيركا وهى ايايا ، وهى جزيرة الفجر ، ويقال ان معناها النواح او النحيب كانت

تحف بشطآنها اشجار الحور ، مما جعل البعض يستخلص من ذلك انها كانت بمثابة جزيرة للموتى . وهنا ايضا ينبغي أن نتمهل قليلا لان اشجار الحور السوداء كانت فى اليونان القديمة مقدسة عند الربة هيكاتا ، الة الظلام والموت ، اما اشجار الحور البيضاء فقد كانت رمزا للبعث والتجدد وكانت مقدسة عند الربة برسيفون ربة البعث والتجدد ومقدسة عند هرقل ايضا وهو اول بشرى انتصر على الجحيم وظفر بالحياة الخالدة عند اليونان

وقبل ان تأسر كيركا ذات الغدائر المجدولة اوديسيوس وتستبقه فى جنتها الموهومة مر اوديسيوس بتجربة حين تحطمت سفينته وقذفت به الامواج وحيدا على شواطىء جزيرة اوجيجيا حيث كانت الحورية الساحرة والربة الرهيبة كاليبسو ذات الغدائر المجدولة بنت اطلس ملكة على الجزيرة . « وهناك ادخلتنى ورعتنى بكل ما تملك من رعاية ومودة واقامت اودى قائلة انها ستجعلنى لا اعرف الموت ولا الشيخوخة طول حياتى . ولكنها ما استببت قط قلبى الذى بين جوانحي . ولقد اقامت هنالك سبع سنوات متصلات وبللت دموعى الثوب الذى خلعتة كاليبسو على وهو ثوب لا يبلى أبدا » ولكن كاليبسو بأمر من زيوس أطلقت سراح اوديسيوس حين خل العام الثامن ليعترك جزيرتها النائية ويعود الى وطنه . « الاوديسا ٧ » أما كاليبسو فلم يكن لها قصر فى هوميروس بل كان لها كهف اجمل من كل القصور ، يصفه هوميروس فى الكتاب الخامس من الاوديسا فيقول : « . حتى بلغ كهفا عظيما كانت تعيش فيه الحورية ذات الغدائر المجدولة ووحدتها بالداخل وفي الموقد رأى نارا عظيمة تشتعل ، وعلى البعد تضوع فى ارجاء الجزيرة عيم من عيم شجر الارز المشقوق وهو يحترق واربع من خشب الصندل . وكانت الحورية فى

الداخل تغنى بصوت عذب وهي تغدو جيئة وذهابا أمام
 نولها فقد كانت تنسج على نول من ذهب . ومن حول
 الكهف كانت هناك غابة مزهرة من شجر الحور ومن شجر
 السرو ذى العرف الزكى . وفيه عششت طيور طويل
 جناحها : البوم والصقور والنورس المشفق من كل ما
 يحوم فوق المياه . وعجبي لحديقة الكرم التى امتدت لفاء
 حول الكهف الاجوف ثقيلة بالاعناب وكانت فيه نوافير اربع
 بديعة الترتيب انبثق منها الماء السلسبيل الواحدة بجوار
 الاخرى وجرى منها فى زوافد مختلفة وايئنت فى كل
 الارحاء المروج الناعمة بزهر البنفسج والبقادونس .
 وحين جاءها الرب هرميز رسول الالهة مدت له الموائد
 بطعام الخلد وقطر الندى الوردى ، خمر الالهة ، هذا هو
 النعيم الذى اقام فيه اوديسيوس سبع سنوات فى احضان
 الحورية الساحرة كاليبسو ذات الغدائر المجدولة الشقراء
 حتى افرجت عنه بأمر من كبير الالهة ليعود الى وطنه .
 وانه لشبيه بذلك الفردوس الذى انتقل اليه حين ضل
 طريقه فنزل على شطآن ايايا حيث سحرته الحورية كيركا
 ذات الغدائر المجدولة الشقراء ، حتى لبدو ان الفردوس
 واحد ، وان ايايا هي اوجيجيا وان رواية كيركا ليست الا
 نسخة اخرى من رواية كاليبسو . بل لقد ذهب بعض
 القدماء الى ان اوديسيوس انجب ولده لاتينوس من
 كاليبسو كما ذهب اخرون الى انه انجبه من كيركا . حتى
 القاب الحوريتين واحدة فى هوميروس فهى السرية ذات
 الجدائل الشقراء وهى الربة الرهيبة التى تتكلم لفظة
 البشر والنول الذهبى واحد ورداء الشباب الدائم الذى
 تكسوان به البطل العاشق واحد وغناؤهما الشجى واحد
 فاذا رجعنا الى الكتاب الرابع من الاوديسا وجدنا ان
 جزيرة الساحرة كاليبسو لم تكن صورة من الجنة ولكن

كانت صورة من الجحيم لاشبهة فيها . انظر الى الملك
 منيلاوس وهو يروى فى بلاطه باسبرطة اخبار اوديسيوس
 على ولده الغلام تليماك الذى يريد ان يسمع ان كان ابوه
 حيا ام ميتا ، فيقول : « انه ابن لايرتيس وموطنه هو
 ايثاكا ، ولقد رأيت فى جزيرة من الجزر يذرف الدمع
 السخين فى قصر الحورية كاليبسو التى احتجزته هناك على
 كره منه حتى لا يعود الى وطنه فليس لديه هناك سفينة
 ولا مجداف ولا رفاق يحملونه الى وطنه على متن البحر
 العريض . أما انت يامنيلوس يا ابن زيوس فليس مقدرا
 عليك ان تموت وان تلاقى قضاءك فى ارجوس مرعى الخيل
 الخصب ، وانما ستحملك الالهة الخالدة الى سهول
 اليزيوم حيث جنة الفردوس فى نهاية العالم وحيث
 رادامانثوس ذو الشعر الذهبى وحيث الحياة ايسر نا
 يكون لابناء البشر . فما هنالك ثلوج ولا عواصف عاتية
 ولا امطار ، ولكن اوقيانوس المحيط يرسل عليهم نسمات
 الغرب لتهدئ عليهم بردا وسلاما »

فكان اوجيجا او ياجوج فى هوميروس وهى جزيرة
 كاليبسو هى بيت الدموع وموضع الجحيم او موقع من
 واقعه على اقل تقدير . أما مكان الفردوس فهو حقول
 اليزيوم وهى جنة اليونان وموقعها فى حافة العالم وخازنها
 هو رادامانثوس ذو الشعر الذهبى ، وهى تتميز بالصفاء
 الابدى فلا تعترىها عوامل الطبيعة القاسية ، فالحياة فيها
 ربيع دائم والحياة فيها كثيرة الخيرات لانها ايسر ما يكون
 لابناء البشر . وكان يشار الى مكان الفردوس هذا فيسمى
 « جزائر السعداء » وهذا هو التناقض الواضح فى
 هوميروس الذى يدل على اختلاف مصادره . فهو فى الكتاب
 الرابع من الاوديسا يضع النعيم او حقول اليزيوم فى
 حافة العالم ولكنه فى الكتاب الحادى عشر منها يضع النعيم

والبحيم معا فى مكان واحد تحت الارض تاوى اليه كل
الارواح . ارواح الاخيار وارواح الاشرار دون تفرقة .
وهو مكان معتم كئيب يشبه القبر عتمة وكأبة وهذا المكان
له رب اسمه هاديس وربة اسمها برسيقونا

أما هاديس فقد كان ابن الاله كرونوس او الزمن ،
وكان بيته تحت الارض ، ويسمى دار هاديس ، مظلم وكئيبا ،
وكان اليونان يصورون هذا الرب فى صورة شخص متجهم
قاس لا يعرف للرحمة معنى ويعاقب الخطاة والجناة ولكنهم
لم يصوروه ابدا فى صورة الكائن الشرير . ولم يكن
هاديس يتولى بنفسه تعذيب الاشرار فى عالم الموتى فقد
كان هذا عمل الايرنيات او ربات الانتقام . ولم تكن له
عبادة شائعة كما لم تنسج حوله الاساطير ، ما خلا اسطورة
واحدة هى اسطورة اختطافه للربة برسيقونا المعروفة
باسم كوريه العذراء أو الحورية وزواجه منها تحت الارض
وأما الربة برسيقونا فقد كانت بنت ديميترا الربة الام
وربة الثمار كما كانت اليونان تقول وقد عشقها هاديس
رب الموتى فاختطفها منها وتزوجها تحت الارض ، فذهبت
أما تبحث عنها فى كل مكان ودموعها تجرى انهارا . فرق
زيوس كبير الالهة لحالها فأمر هاديس ان يرد اليها بنتها .
ولكن العذراء برسيقونا او كوريه كانت قد أكلت فى دار
هاديس تحت الارض حب الرمان فاقفل جفניה حتى صارت
تنام نصف العام فى عالم الموتى وتخرج نصف العام الى
عالم النور . وكما اشتهرت احزان ديميترا الربة الام على
بنتها العذراء برسيقونا ، فكذلك اشتهرت احزان العذراء
برسيقونا على طفلها زاجريوس الذى قتل انها حملته من
زيوس كبير الالهة بعد ان اتخذ صورة ثعبان ، وكان زيوس
قد قرر ان يورث طفله زاجريوس كل ما له من سلطان فى
الكون فاجتمعت التياتين او الشياطين او المردة على الطفل

ومزقوه اربا اربا والتهموا جسده ، ولم يبق منه الا قلبه
الذى انقذته الربة اثينا من ايديهم فالتهمه زيوس كبير الالهة
فأمكنه بذلك ان ينجب الاله ديونيزوس رب الخمر والخصب
ودمر زيوس التياتين او المردة تدميرا واحرقهم بصواعقه
ومن رمادهم خرج بنو البشر

هذه اذن هي قصة هاديس ملك الموتى وبرسيفونا العذراء
او كوريه اى الحورية كاناسيد الجحيم وسيدته ولكن
جحيم اليونان كان مملكة الموت تحت الارض . وقد اقترنت
فكرتهم عن نزول الموتى الى هذا العالم السفلى المظلم بدفن
البذور فى تربة الارض ومن هنا كانت دورة الموت عندهم
مقدمة لازمة لتجدد الحياة ولدورة الاخصاب والاثمار ،
ومن هنا كانت آلهة الموت عندهم هى آلهة الحياة الجديدة
ولا سيما فى عالم النبات

اما النعيم أو جزائر السعداء التى حدثنا عنها هوميروس
فقال انها تقع فى اطراف الارض عند مجرى اوقيانوس .
فقد جاء فى شعر هسيود ان زيوس جعلها مسكنا لابطال
اليونان الذين سقطوا امام طيبة ذات الابواب السبعة وامام
طروادة وكانهم ماتوا ميتة الشهداء : هؤلاء يقول فيهم
هسيود : « حقا لقد لفهم الموت باكفانه ، ولكن زيوس بن
كرونوس ، وهو ربهم ومولاهم ، وهبهم الحياة واسكنهم
بعيدا عن الناس فجعلهم يقطنون فى اطراف العالم بعيدا
عن الالهة الخالدة . وفيهم تحكم كرونوس ، رب الزمن ،
وهم يعيشون حقا بنفس مطمئنة فى جزر السعداء بجوار
اوقيانوس ذى الدوامات العميقة ابطلا لهم النعيم تطرح
لهم التربة الخصيبة ثلاث مرات كل عام ثمارا ناضرة حلوة
كالشهد ، هذا ما ذكره الشاعر هسيود فى الاعمال والايام
» ١٦٠ - ١٧٢ « عن اليزيوم او جنة السعداء ، ويبدو
انها كانت مسكن « الشهداء » من الجيل الرابع من البشر .

ذلك الجيل الذى كانت اليونان تسميه انصاف الالهة ولكن الغريب ان هوميروس وضع ابطال طروادة فى الجحيم بجوار اوقيانوس عند اطراف العالم ، وجعل اوديسيوس ينزل الى دار هاديس ويرى عذابهم ودهوعهم رؤية العين دار هاديس التى يسميها هسيود فى الاعمال والايام : المنزل الفظيع الذى يسكنه هاديس الشنيع الذى تقشعر الابدان لبرودته

وايا كان الامر فقد اعطانا هسيود فى «الاعمال والايام» فكرة واضحة نسبيا عن مصير البشر فى الدار الاخرى ، فهو قد قسم الخليقة الناطقة بحسب معتقدات اليونان فى زمانه الى خمسة اجيال تعيش فى خمسة عصور . . اولها هو العصر الذهبى والثانى هو العصر الفضى والثالث هو العصر النحاسى والرابع هو عصر الابطال او انصاف الالهة والخامس هو العصر الحديدى الذى كان يعيش فيه الشاعر نحو القرن الثامن قبل الميلاد

اما العصر الذهبى فقد كان شبيها بالجنة الاولى :

« وكانوا يحيون كما تحيا الالهة حياة خالية من الهموم لا يعملون عملا ولا يؤرقهم هم ولا تتهددهم الشيوخوخة اللعينة ، بل كانوا دائما اسوياء الابدان يرفلون فى اعياد السعادة لا تمسهم الشرور فكانوا يموتون كما لو كان النوم قد غلبهم ، وكانت لهم كل نعم النعيم : فمن تلقاء نفسها كانت الحقول المثمرة تهبهم دون حوث ثمارها وفيرة وسخية . وكانوا يحصدون فى هناء هادىء ما زرعت ايديهم مع غير هذا من الخيرات فقد كانت لهم قطعان زاخرة وكانت الالهة المباركة تحبهم » ثم امتلأت الارض بالجن فحجبت الجن ابناء العصر الذهبى . وهكذا خلقت الالهة الجيل الثانى وهو ابناء العصر الفضى ، وهم اقل شأنا من الاولين . فهم اقل منهم ذكاء بحيث لا يترك احدهم حضانة امه الا

بعد ان يستوفى المائة عام طفلا . فان بلغ مبلغ الرجولة لم
 يعمر طويلا بسبب حماقته وقد ابادهم زيوس لكفرهم
 بالالهة وضمنهم بالقرايين . فلما ابتلعتهم الارض كانوا
 ايضا من اهل النعيم ولهم المرتبة الثانية فى الفردوس اما
 الجيل الثالث من البشر فكان أبناء العصر النحاسى الذين
 تعلموا اكل اللحم والحرب بالقنا وكلفوا بالقتال فاهلكهم
 زيوس فابتلعتهم الارض ونزلوا الى الجحيم دار هاديس ،
 ولكن هسيود لم يذكر لهؤلاء نصيبا فى النعيم او الجحيم
 ثم خلق زيوس جيل الابطال او انصاف الالهة وكانوا اعدل
 واكرم ممن سبقهم ولكن القتال اهلكهم امام اسوار طروادة
 او امام اسوار طيبة ، فاسكنهم زيوس جزر السعادة او
 جزر النعيم فى اطراف الارض وعلى تخوم اوقيانوس واطعمهم
 فاكهة حلوة كالشهد وزودهم بخيرات الارض ، ولكن بعيدا
 عن مقام الالهة ثم خلق اخيرا الجيل الخامس الراهن ، وهو
 الجيل الحديدى الذى قدر عليه بحكم فساد ان يتعب
 وينصب ويشقى طول الحياة ويشيخ بمجرد ان يولد ومع
 ذلك قدر له زيوس ان يتسلمه برعايته الشديدة وان يمزج
 له الخير مع الشر والهناء مع الشقاء . وهو جيل من الفجار
 عاق للاهل وللصديق يتنكر للاخيار والصالحين ولا يحترم
 الا الاشرار والمستكبرين ، ظالم فاسق لا يعرف للخجل معنى
 كذاب اشر حلاف بزور حقوق سباق للشر فتاك بالابرياء
 حسود مشاء بنميم ، ولكن ما ان يموت الانسان وتلفه
 الاكفان البيضاء حتى تغادر عالم البراة والعدالة وتنتقل
 من الارض الى السماء فيكون عقابه بيد الالهة ويبقى خزيه
 وشره على الارض من بعد (١٩٠ - ١١٠) الاعمال والايام
 وبهذا يكون هسيود قد ادخل النعيم كل من سبق الجيل
 الراهن من بنى الانسان اما الجيل الراهن فقد نزل ثوابه
 وعقابه بعد الموت من الارض الى السماء

حليم هوميروس

قالت النيومة ، نبوءة الساحرة كيركا ذات الفسائير
المجدولة ، لاوديسيوس بطل « اوديسا » هوميروس : وبعد
ان تمر في احوال الجحيم وتخرج منها سالما سوف ترد
غريبتك وتعود الى وطنك ايشاكا ، وسوف تكون لك علامة ان
ظهرت عرفت انك قد عدت الى وطنك ، وهذه العلامة هي ان
يبدو على كتفك جناحان ، أى ان تصبح ملاكا ذا جناحين
كما نقول نحن الان . من اجل هذا ، ومن اجل غيره كثير
فسرت العصور الوسطى الاوربية لاكثر من الف عام قصة
ضلال اوديسيوس وغريبتة عن وطنه ايشاكا بين بحار عجيبة
وجزر غريبة لاقى فيها احوال المهالك واهوال الغواية معا
ومعها قصة بحث اوديسيوس الدائم عن الطريق الى وطنه
وسعيه الدائب في سفينته السوداء لبلوغ هذا الوطن
البعيد ، بانها قصة غربة الانسان عن الجنة الاولى بعد نفيه
منها وبعبثه الدائم الدائب عن جنة الميعاد . وما يتخلل
حياته فيما بين الجنتين من مغامرات وغوايات واهوال
وبهذا كانت علامة الانسان انه وجد طريقه الى الجنة هي
انه تحول من انسان الى ملاك ذي جناحين ..

كذلك تنبأت الساحرة كيركا ذات الجسدائل الشقراء

لاوديسيوس انه لن يبلغ وطنه الا بعد ان يزور الجحيم
أو دار هاديس كما كانت اليونان تسميها ، فهكذا قدر عليه
ان يرى عذاب الجحيم رؤية العين قبل ان يصل اخيرا
الى نهاية المطاف نهاية كل مطاف ، فما من أحد يستطيع
ان يهديه الى الطريق القويم غير العراف الاعمى الامير
تيرسياس ، وتيرسياس يقيم فى عرصات الجحيم

وهكذا مضى اوديسيوس ورفاقه عن جزيرة كيركا أو
سيرسا ذات الجداول الشقراء بقلب حزين وعين دامعة
هكذا كتب عليه الا ترد غربته والا يعرف طريقه الى وطنه
ايشاكا بعد طول ضلال قبل ان يزور الجحيم انذى كان
قدماء اليونان يسمونه هاديس أو عالم الظلمات أو مملكة
الموتى أو العالم السفلى حيث تقيم ارواح الموتى واشباح
اهل الفناء ، فهناك سيلتقى بروح العراف الاعمى تيرسياس
الذى قالت كيركا انه وحده العليم بالطريق الى ايشاكا وبما
سيلاقيه اوديسيوس ، ورفاقه ، من أخطار على الطريق . .
وهكذا انطلق اوديسيوس برجاله الى سفينته السوداء
ومونوها بالزاد والقرايين . ولم يكن لهم هاد ولا دليل فى
هذه الرحلة العجيبة الى الجحيم ، وانما ارسلت الربة
الجميلة الرهيبة كيركا ذات الغدائر المجدولة الشقراء
من ورائهم ريحا مواتية ، فبسطوا الشراع وضربت سفينتهم
فى البحر طول اليوم حتى غابت الشمس ولف السكون
ظلام شامل . .

وبلغت السفينة اطراف العالم حتى تخوم اوقيانوس
العميق ثم جرت فى مجرى اوقيانوس وهناك وجدوا أرض
الكيمريين مكفنة فى الضباب والسحاب فلا تبزغ عليهم
الشمس بأشعتها الوضاعة ابدا ، لا من فجر الى ضحى
ولا من ضحى الى غسق ، فالليل الاسحم قد اسسدل
استتاره الكثيفة على أبناء الفناء البائسين . هناك رست

السفينة السوداء فقثروا ونحروا وحفروا ونثروا الشراب
ثلاثا قربانا على ارواح الموتى : أولا شراب الشعير ثم النبيذ
الخلو ثم الماء القراح . وصلى اوديسيوس ووعد بنحر
البقرة العذراء عند عودته الى ايشاكا على ارواح الموتى ووعد
بعمل اسود لا بياض فيه لروح تيرسياس العراف . كل
شيء جرى كما قالت كيركا ذات الجدائل الشبقراء .
وخرجت ارواح الموتى من عرصات اريپوس وتجمهرت
حول الحفرة الواسعة حيث القرايين الذبيحة دمهـا
يسيل ، خرجت لتشرب دم الضحايا الجارى : ابكاروفتيان
لم يعرفوا افراح الزفاف ، وشيوخ طالت ايامهم واسودت
بالانام الكثيرة ، وما كان اكثر الصرعى الذين هلكوا فى
المعارك ، وصاحت الارواح المحتشدة صيحة رهيبة انخلع
لها قلب اوديسيوس وامتعق وجهه رعبا ، ولكنه ثبت فى
مكانه شاهرا حسامه فى وجوههم قائلا : لن يقترب احدكم
من الدم قبل ان اخاطب تيرسياس ويخاطبنى

وكان اول من جاء من الارواح روح الفتى البينور الذى
مات فى جزيرة ايايا بقصر الساحرة كيركا ، فبكى اوديسيوس
شبابه الضائع . وقال البينور وهو ينتحب انه جاء «تحت
الظلام والظلال » لانه اسرف فى السكر ، فلم يهبط من
سطح القصر على السلم الطويل بل سقط على الارض جثة
هامدة ، وهكذا انتقلت روحه الى دار هاديس ، او مملكة
الموتى . ان رفاقه فى لهفتهم تركوه على عجل فلم يدفنوا
جثمانه ولم يندبوا موته ، ولم يقيموا له جنازا وروح البينور
تستعطف اوديسيوس ان يقيم له قبرا على شاطئ ايايا
يدفن فيه رميمه بعد ان يحرق جثمانه وان يغرس فى القبر
مجدافه حتى يراه كل الملاحين ويكون عبرة لمن يستبر
فان لم يفعل اوديسيوس ذلك احاقت به الروح شرا

جسيما فوعد اوديسيوس روح البينور بما طلبت
 ثم جاءت روح انتيكليا أم اوديسيوس فسكى لمرآها
 وتمزق لها قلبه ، ولكنه مع ذلك لم يضعف امامها
 فيتركها تقترب من دم الضحايا لتشرب منه . حتى جاءت
 روح العراف الاعمى تيرسياس وكان شبحه يحمل في يده
 صولجانا من ذهب فرقع اوديسيوس حسامه المطعم
 بالفضة وخلي بينه وبين الدم الاسود فشرب منه حتى
 ارتوى قبل ان يتنبا له برحلته المستقبلية ويبدله على
 طريق العودة . وحذر تيرسياس اوديسيوس من غضب
 بوزايدون رب البحر و « مزلزل الارض » الحاقد عليه لانه
 فتا عين ولده الوحش ذى العين الواحدة ولكنه
 وعده بالنجاة . وقال له انه سيلتقى عند جزيرة
 ثريناكيا بقطعان هليوس رب الشمس وهى ترعى فان
 انزل بها ضرا فهو لن يعود الى وطنه ايثاكا الا شقيا شريدا
 بعد ان تتحطم سفينته ويفرق كل رجاله . سيعود الى
 وطنه على متن سفينة بين الغرباء وحين يعود الى قصره
 فى ايثاكا سوف يجد امراء المدينة المتفطرسين قد اختلوا
 قصره وذهبوا يخطبون ود زوجته « الالهية » بنيلوب
 الوفية وبعد ان يفتك بهم جميعا سوف يمضى فى طريقه
 ومعه مجدافه حتى يبلغ قوما لم يروا البحر قط ولم
 يسمعوا بالسفن ولا يأكلون اللحم المملح فيقيم بينهم حتى
 تأتية علامة ان رآها وجب عليه ان يعود قورا الى وطنه ،
 وهذه العلامة هى انه سيلتقى بعابر سبيل مثله يقول له انه
 يرى جناحين على كتفيه

فان رأى اوديسيوس هذه العلامة عرف ان نهسايتة
 اقتربت وعندئذ فعليه ان يغرس فى الارض مجدافه وان
 يقدم القرابين لبوزايدون رب البحر ومزلزل الارض : ولتكن
 قرابينه خروفا وثورا وخنزيرا برياً ذكرا . ومن بعد

ذلك يعود الالهة . وهنا سيلتقى بمنيته وسيأتيه الموت من البحر وسيكون موته موتا هادئا تنتهي به شيوخته الناعمة ويعيش كل من حوله في سعادة وهناء

ولما انتهى تيرسياس من نبوءته وعرف اوديسيوس ما خبأه له القدر سأل اوديسيوس تيرسياس عاجبا عن روح امه الواقفه في صمت بجوار دم الضحايا وكأنها لاتتبين ولدها ، فاجابه تيرسياس انها لن تتعرف عليه الا اذا شربت من دم الضحايا ، فهذا شأن الارواح ان شربت الدم تكلمت بالحق وان حيل بينها وبينه عادت الى مكانها في دار الموتى . فلما اتم الامر تيرسياس حديث الغيب عادت من حيث جاء الى دار هاديس

وثبت اوديسيوس في مكانه حتى اقتربت امه من الدم الاسود وشربت منه فتعرفت لغورها على ولدها ، ومضت تندب مجيئه « تحت الظلام والظلال » رغم انه لا يزال في عداد الاحياء ، وقالت : « ما افطع مشهد هذه الاشياء في عيون الاحياء فان بيننا وبينكم انهارا عظيمة وبخارا رهيبه واولها اوقيانوس الذي لا يمكن لقدم ان تعبره ، ولا سبيل الى عبوره بسفينه كامله العدة » . فانبأها اوديسيوس بحاله وتجواله وسعيه في دولة الموتى وراء الامير العراف تيرسياس ليدله على الطريق الى ايشاكا وهم اوديسيوس بان يعانق امه بقلب مشوق ولكنها افلتت من ذراعيه ثلاثا وكانها ظل اجوف او شبح من نسج الاحلام . وظن اوديسيوس أولا ان برسيفون ربه التربة الظلماء قد ارسلت اليه طيف امه لتكيد له وتضاعف من شقاؤه عند رؤيته ، ولكن امه انبأته ان ذلك لم يكن كيدا له من برسيفون وانما هو حال كل البشر عندما يموتون فهم يتحولون الى اطياف جوفاء : « فالاعصاب عند الموت لا تعود تربط اللحم بالعظام لان ما في النار المشتعلة من

قوة عظمى يدمرها بمجرد ان تغادر الحياة العظام البيضاء
وتطير الروح عن الجسد طيران الحلم وتحلق على مقربة. »
وهنا اجتمع حشد من ارواح النساء الموتى حول الدم
يريد ان يلغقه ارسلتهن الربة العالية برسيفون ، فتبين
اوديسيوس في هذه الارواح زوجات ابطال اليونان وبناتهم .
ولم يشأ ان يتركن يرتوين بالدم الاسود فوقف دونه
بسيفه حتى يرتوين من الدم الواحدة بعد الاخرى وبهذا
يستطيع مساءلتهن ومخاطبتهن . . .

وجاءت الاولى وهى تىرو واعلنت انها بنت سالونيوس
النبيل وزوجة كريثيوس بن ابولس . وقالت انها عشقت
نهر اسمها انيسيس كان اجمل انهار الدنيا فاتخذ بوزايدون
رب البحر ومزلزل الارض وضارب الزنار حول البسيطة
هيئة هذا النهر المعشوق واختفى بها تحت اللجة الهائلة
وعانقها بعد انلقى عليها غلالة من النوم العميق . وحملت
تىرو من بوزايدون بلياس الذى جرى فى ايولكوس وانبت
فيها المراعى الخضراء والقطعان الكثيرة ونيليوس الذى جرى
فى بيلوس ذات الرمال الجداء ، وانجبت هذه الملكة ايضا
من كريثيوس ثلاثة اولاد كلفوا بالمركات ذات الجياد
ثم تجلى لاوديسيوس طيف انتيوب التى كانت تباهى
بانها حملت من زيوس كبير الالهة ولديها امفيون وزيتوس
الذين اسسا مدينة طيبة ذات الابواب السبعة وحصنها
بالاسوار ومن بعدها تجلى لى طيف الكميناء زوجة امفيريون
التى انجبت من زيوس هرقل قلب الاسد وتجلى له طيف
ميجارا بنت كريبون المتفطرس التى اتخذ منها هرقل زوجة
له . ثم تجلى له بعد ذلك طيف ايبكاستا الجميلة ام الفتى
اوديبود وهى التى ارتكبت جرما فظيما على غير علم
منها حين تزوجت من ولدها اوديبود بعد ان قتل اياه .
ولكنه رغم ذلك ظل يحكم بنى كانموس فى طيبة الفراء

بأمر من الالهة رهيب اما هي فقد شنت نفسها بحبل من
 فرط الياس فانتقلت روحها الى دار هاديس ، السجان
 الاعظم وتركت لولدها شقاء الدنيا لتصلى هي في شقاء
 الآخرة . كذلك تجلى لاوديسيوس طيف خلوريس الجميلة
 بنت امفيون التي تزوجها نيلوس وجعلها ملكة على ييلوس
 وانجبت له اعظم البنين . ثم تجلى له بعد ذلك طيف
 الجميلة ليذا زوجة تنداروس التي انجبت له ولدين هما
 كاستور مروض الخيل وبوليديوك الملاك . وقد حكمت
 عليهما الالهة بان يتبادلا الموت والحياة ، فيموتا يوما
 ويعيشا يوما . ثم جاءه من بعدها طيف ايفيمديا زوجة
 ابويوس التي فاخرت الأزواج وانجبت منه الفتى اوتوس
 والفتى افيالت الجبارين اللذين طاولا العمالة قامة وارادا
 ان يطاولا الالهة مجدا وانذرا الالهة بغزو السماء فكدسا
 الجبال ليصلا الى قلب السماء وارادا ان يكدسا جبل اوسا
 على جبل الاولب ويكدسا جبل بليون على جبل اوسا ،
 واوشكا ان يبلغا ما ارادا لولا انهما ماتا في ميعه الصبا
 فصرعهما رب الشمس ولد زيوس من ليتو ذات الخصل
 الذهبية قبل ان يخضر لهما عود . ثم رآى اوديسيوس
 طيف فيدرا وطيف بروكريس وطيف اريادنا الجميلة
 بنت الملك الساحر ميتوس فاخطفها الملك ثيسيوس من
 بلدها كريت الى اثينا حاضرة ملكه ولكنه لم ينعم بها لان
 ارميتيس ربة الحرب والصيد فتكت بها قبل ان يزف اليها
 ثم رأى طيف مايرا وطيف كليمينا وطيف بريفيلا اللعينة
 التي باغت رأس زوجها لقاء حفنة من الذهب . وغير هؤلاء
 من نساء الإبطال : زوجاتهم وبناتهم رأى اوديسيوس نفرا
 عظيما في هاديس مملكة الموت لا يحصى لهم عدد قبل
 ان يتجلى هذا الليل الثقيل الذي دخل فيه

ثم شئتت برسيفون المقدسة أطيايف النسوة وجاء الى

اوديسيوس نفر عظيم من اخوانه رفقة السلاح الذين حاربوا معه حول اسوار طروادة من كل من جاء ذكرهم في « الياذة » هوميروس سواء من سقط منهم صريحا في المعركة او من كتبت لهم السلامة في احارب ولكنهم ماتوا اشنع ميتة بعد عودتهم الى ديارهم . وكان كل منهم ما ان يشرب من الدم الاسود حتى يتعرف على اوديسيوس ويندب له مصيره الاليم

ورأى اوديسيوس اولا طيف اجامنون العظيم سيد كل الاغريق المظفر في حرب طروادة ، وروى شبح اجامنون لاوديسيوس كيف ان زوجته الغادرة كليتمسترا دبرت له مصرعه مع رجاله الاشداء اثر عودته الى وطنه ارجوس ليخلو لها الجو مع عشيقها ايجسيت ، كيف دبرت مصرع سبيته كاسندرا بنت ملك طروادة ، وصب اجامنون اللعنات على كل النساء . ثم رأى اوديسيوس طيف البطل المغوار اخيل وصاحبه باتروكل معه في الجحيم ، وبدا له اخيل اميرا بين الموتى كما كان اميرا بين الاحياء . ولكن اخيل يجيب اوديسيوس قائلا : « اى اوديسيوس العظيم ، لا تعزينى عن محنة الموت بهذا الكلام المعزى . فلخير لى ان احيا على وجه الارض اجرا لرجل فقير لا يملك الاقوته من ان اكون سلطانا بين هذه الاشباح الخاوية . » فاخيل الذى كان في حياته لا يهاب الموت يؤمر بعد ان ذاق عذاب الموت ان يكون عبدا بين الاحياء على ان يكون سيدا بين الموتى . وهؤلاء الابطال الموتى في دار الموتى لا تزال ابصارهم معلقة بما تركوا وراءهم في دار الحياة فاجامنون يسأل اوديسيوس عن مصير ولده الشريد اوريسنت ان كان قد رآه بنلاط منيلاوس ملك اسبرطة ام سمع به فى اورخومينوس او فى بيلوس ذات الرمال الكثيرة ، فيجيبه اوديسيوس انه لا يعرف ان كان اوريسنت حيا يرزق او

انه هلك مع الهالكين . كذلك يسأل أخيل أوديسيوس عن
أبيه بيليوس وعن ولده نيوبتوليموس ، أما عن بيليوس
فاوديسيوس لا يعرف شيئا وأما عن نيوبتوليموس الوسيم
فهو يقول انه جاهد جهاد الابطال في حصار طروادة وانه
خرج منه سالما لم يصبه خدش . فسر قلب أخيل ايما
سرور بما سمعه عن ولده ومضى راضى القلب بخطوات
واسعة يجتاز مروج النرجس الابيض « الاسفوديل »

ورأى اوديسيوس عديدا من اشباح الموتى يسكون
ويسألونه عن مصير ذويهم وأحبائهم من الاحياء . ووقف
البطل اياس بن تيلامون وحده لا يفارقه غضبه منذ ان
انتصر عليه اوديسيوس في حرب طروادة فهو لم ينس
اساءته منذ فاز اوديسيوس دونه بلرع أخيل بعد ان
لقى أخيل حتفه . وكلمه اوديسيوس ليسترضيه ولكنه
انصرف عنه لا ينبس بكلمة وعاد الى ارييوس وهى
عرصات الجحيم

ثم جاء الى اوديسيوس الملك مينوس بن زيوس حاملا
صولجانا من ذهب جالسا فوق عرشه يأمر وينهى في
مملكة الموت كما كان يفعل في عالم الاحياء ومن حوله
الجموع وقفت تسأل عن أمره فيها من خلال « الباب
الواسع ، باب بيت هاديس » . ثم رأى اوديسيوس
اوريون الجبار يقاتل الوحوش البرية على مروج النرجس ،
تلك الوحوش التى كان قد قتلها في التلال الموحشة ، وكان
يقاتلها بقضيب من برونز لا ينكسر ابدا

ثم رأى اوديسيوس تيتيوس ابن الارض راقيدا على
الثرى وكان عملاقا مديدا ، وقد انقض عليه باشقان ياكلان
جنبه ويطعمان على كبده ولكنه لم يحرك يدا لذبهما عنه
ذلك لان تيتيوس اغتصب ليتو ، معشوقة زيوس الشهيرة ،
حيث ذهبت الى بيثو وهى تجتاز مروج بانوب

ثم رأى أوديسيوس تانتالوس وهو يتعذب عذابا اليما
واقفا في بركة الماء يبلغ منه حتى ذقنه وقد استبد به
الظما ولكنه لا يستطيع بلوغ الماء ليشرب . فكلما طأطأ
هذا العجوز رأسه ليشرب ابتلعت الأرض الماء واختفى
تحت قدميه وقد جففته الأرض السوداء . ومن فوق
رأسه اينعت أشجار التين والزيتون والكمثرى والرمان
والتفاح ، وكلما مد يده ليقطف منها هبت الريح فأبعدت
الشمار بين الغمام ذى الظلال

ثم رأى سيزيف يتعذب عذابا اليما وهو يمسك بحجر
هائل يدفعه فيندحرج به الحجر الى السفح فيعيد الكرة
الى مالا نهاية وهو يلهث وينضج عرقا ، وقد تغفر رأسه

ثم رأى أوديسيوس هرقل الجبار ، او على الأصح رأى
طيف هرقل لان هرقل نفسه كان يجلس في مأدبة الاله
الذين ارتقى الى مصافهم وتزوج منهم هيبا ربة الشباب
ومن حول طيف هرقل تطايرت صرخات الموتى وكأنها
طيور فرزة تتطاير في كل صوب . وقف هرقل وقد شد
قوسه وسهمه وكأنه يتأهب للرمية . ومن حول صدره
التف حزام رهيب من الذهب رسمت عليه تصاوير
عجيبة : دبة وخنازير برية وسباع تبرق عيونها ومشاهد
معارك ومذابح وأناس يقتلون . فلما عرف هرقل
أوديسيوس مآله وهو ينتحب : « آه ايها الشقي . أراك
مثلى تحيا حياة كحياتي التي كنت اكابدها أيام ان كنت
أعيش تحت ضياء الشمس . » ان هرقل كان ابن زيوس
ومع ذلك فقد أرغم على الخضوع لرجل أقل منه قلرا
جعله يخرج في أشق المغامرات وقد أرسله ذات مرة الى
الجحيم ليأتيه بكلب جهنم ، فاقتحم هرقل دار هاديس
وعاد منها بكلب جهنم فأنجز مهمته . وبعد أن تأسى هرقل
الحزين لمصر أوديسيوس انصرف الى دار هاديس من

حيث جاء . أما اوديسيوس فقد ظل ينتظر قدوم اطياف
الملوك العظام القدامى الذين سيمع بهم مثل نيسسيوس
وبريثوس ، وهما من ابناء الالهة . ولكن الالف من اطياف
الموتى خرجت اليه وتجمهرت من حوله لتسقى من الدم
الاسود وكان لصياحها دوى عظيم فخشى اوديسيوس ان
ترسل اليه الربة العظيمة برسيفونا من الجحيم رأس
الغول الرهيب فغادر لغوره دار الموتى مسرعا الى سفينته
السوداء وأمر رجاله ان يتأهبوا للرحيل ، وفي لمح البصر
كانت سفينة اوديسيوس تمخر عباب اوقيانوس تسوقها
اكبرم رياح

هذا هو الجحيم الذى أدخلنا فيه هوميروس فى الكتاب
الجادى عشر من « الاوديسا » حين جعل بطه وبطنها
اوديسيوس يزور هاديس دار الموتى ليسأل روح العراف
تيرسياس كيف الطريق الى وطنه ايثاكا فاذا نحن اردنا
ان نحدد ملامح هذا الجحيم الهومرى وجدنا انه يتميز
بجملة خصائص واضحة تعطينا فكرة عن تصور اليونان
فى العصر الكلاسيكى للدار الاخرى . فالدار الاخرى عند
اليونان كانت دولة الموتى وكانت تسمى دار هاديس ، وكان
مكانها فى عالم الظلمات الذى كان يسمى بالعالم السفلى
تحت الارض وكانت تقع على شطآن اوقيانوس ذلك النهر
المحيط بالارض ولا بد لعبوزه من سفينة وملاح ، وكانت
تفصلها عن عالم الاحياء أنهار عديدة أهمها اوقيانوس .
وكانت الدار الاخرى توصف بأنها عالم الظلام والظلال ،
وكانت تسكنها ارواح الموتى التى تتجلى فى هيئة اشباح
جوفاء وكانت هذه الاشباح عطشى الى دماء القرايين الذبيحة
تشرب منها فيتجدد فيها نوع من الحياة الوقتية يجعلها تدرك
وتحس و « تتكلم بالحق » وتندب حظها العاثر وتعبر عن
شوقها وقلتها وتبكى بالدمع المذرار فما من طيف رآه

اوديسيوس في العالم الاخر الا وكان يذرف الدمع السخين .
 وكما أن أرواح الاحياء تفكر في مصير الموتى فذلك كانت
 أرواح الموتى تفكر في مصير الاحياء . كذلك كانت أرواح
 الموتى تعن الى الحياة ، واذا أخذنا قول أخيل مقياسا وهو أن
 العبد الحي خير من السيد الميت كان من حقنا أن نستخلص
 أن العذاب الاكبر الذي كانت تكابد منه أرواح الموتى كان
 مجرد خلوها من الحياة ووجودها كأطياف جوفاء لا مادة
 فيها . وهذا يفسر عطشها الشديد الى الدم واكتسابها
 نوعا من الحياة الوقتية كلما ارتوت منه ، فان قطع عنها
 عادت الى ارييوس في بيت هاديس وكأنها تدخل قبرها
 أو تموت من جديد أو تعود الى ما هي عليه من خواء تام .
 كذلك نعرف أن لدار الموتى هذه « بابا واسعا » . ونعرف
 أن فيها كلبا يسمى كلب جهنم . كان اليونان يسمونه
 سربيروس أو على الاصح كريبروس . ونعرف أن فكره
 اليونان عن العذاب الدائم في الدار الاخرى يعبر عنها
 بصورة العذاب المتجدد في هيئة دورات ليس لها بداية
 ولا نهاية ومن أمثلتها المارد تيتيوس الذي تقول قصته ان
 النسر المسلط عليه كلما نهش كبده نما كبده من جديد ،
 ومن أمثلتها تانتالوس اللاهث عطشا من عذابه فالماء قيد
 شعرة منه ولكنه لا يشاله أبدا فكلما أوشك أن يبلغه اختفى
 كالسراب . ومن أمثلتها سيزيف الذي كلما دفع الصخرة
 الى القمة هبطت به الى السفح وهو مقيسد هكذا بين
 السفح والقمة الى ابد الابدن . ولكن الغريب في آخره
 هو ميروس هذه اننا نجد فيها الخطاة والجناة مع الصالحين
 والمجنى عليهم ونجد فيها صور العذاب المتجدد جنبا الى
 جنب مع مروج النرجس الابيض التي اشتهر بها فردوس
 قديماء اليونان فهي فيما يبدو آخره تجاور فيها النعيم
 والجحيم فليس بينهما فاصل واضح ، أنظر الى أخيل في

الدار الاخرى تراه ينتحب لوجوده بين الموتى وينتحب قلعا
 على من ترك من احبائه الاحياء ، فهو اذن يتعذب فما ان
 يسمع بأن ولده نيوبتوليموس قد خرج من حصار طروادة
 كامل الشرف دون خدش في شرفه او في جسده حتى نجده
 قريير النفس يجتاز بخطى واسعة الى مروج النرجس .
 فلكنما جنة الارواح هو ان تغمرها الطمانينة وكأنما جحيم
 الارواح هو ان تأكلها المخاوف والاشواق او الحاجات التي
 لا سبيل الى تحقيقها . وبالمثل نجد ان هوميروس يحشر
 في مكان واحد عتاة الخطاة مع ابطال لا يذكر لهم ذنبا
 واضحا بل ويصورهم في صورة الضحايا . فهو يحشر
 جوكاستا الشقية التي تزوجت من ولدها اوديب على غير
 علم منها وفيدرا الشقية التي عشقت ابن زوجها والعاملقين
 اوتوس وافيالت اللذين تحديا الالهة وارادا ان يبلغا
 السماء لقتالها فكدسا الجبال على الجبال كأنها السلم
 يرتقى الى عنان السماء هو يحشر كل هؤلاء مع ابطال
 اليونان مثل العراف الضرير تيرسياس واجامنون وهرقل
 واخيل واجاكس ومينوس الخ . . الذين لا يذكر لهم اثما
 واحدا ، وهو يجعل هؤلاء هؤلاء يعودون الى ارييوس
 بعد ان يأخذوا نصيبهم من الدم الاسود ، رغم انه واضح
 من وصف هوميروس للحياة الاخرى انه كان في دارهاديس
 جناحان جناح هو ارييوس حيث تقيم الارواح الشقية
 وجناح هو اليزيوم او مروج النرجس حيث تقيم الارواح
 السعيدة ، او الجحيم والنعيم ، ويبعدو انه كانت تقع
 بينهما تلك الحفرة الكبيرة عند ملتقى الانهار تلك الحفرة
 التي تجري فيها دماء القرابين الذبيحة شفاقة لارواح
 الموتى . والذي يلفت النظر حقا ان هوميروس لم يجعل
 احدا من موتاه يتجول بين مروج النرجس الا روح اخيل
 وروح اوريون اما الباقون فقد عادوا جميعا الى مكانهم

بيت هاديس ذي الباب الواسع أو الابواب الواسعة
 شيء آخر نجده في هوميروس في الكتاب ١٢ من
 « الاوديسا » تمر به سفينة اوديسيوس وهو في ظاهره
 صورة للنعيم ولكنه في باطنه صورة من صور الجحيم .
 فقد تنيات الساحرة كيركا ذات القدائر المجدولة
 لاوديسيوس أنه بعد خروجه من مملكة الموت أو من دولة
 هاديس سيمر بجزيرة مخفوفة بالمها لك قرب صخرتي
 الموت سكيلا وخاربيديس ، وهذه الجزيرة مخفوفة بالمها لك
 لان فيها حوريتين هما بنتا سيرينا تغنيان أشجى غناء
 بأعذب صوت فتجذبان الملاحين الى شاطئهما بسحر
 الغناء وهناك تقضيان عليهم قضاء مبرما . وقد حذرت
 كيركا اوديسيوس أن يستسلم لغنائهما الساحر حتى
 لا يهلك قالت كيركا : « ولسوف تصل اولا الى حوريتي
 سيرينا اللتين تسحران كل من ياتي اليهما من الرجال .
 فكل من اقترب منهما على غير علم منه وسمع صوت
 الحوريتين فلن يعود ليري زوجا أو ولدا في انتظاره ولن
 يفرح بأوبته ذوهه ، لان حوريتي سيرينا تسحرانه بأغنيتهما
 الصافية وهما جالستان في المروج ومن حولهما كوم عظيم
 من عظام الرجال وقد نخرهم فساد الموت ومن حول
 عظامهم بليت جلودهم . » ولم يكن هناك من علاج للمقاومة
 سحر هذا الغناء الجميل الا أن يمسح اوديسيوس آذان
 رفاقه بزييت الشهد حتى لا يسمعوا الغناء فيضعفوا اما
 هو فقد قيده رجاله بوثاق شديد في السفينة حتى
 لا يستجيب لنداء الساحر فلما مر اوديسيوس بسفينته
 بجوار الجزيرة « سكنت الريح على القوز وحل هدوء
 لا رياح فيه وسكن الموج كان الها هدهده فنفس »
 وسمع اوديسيوس حوريتي سيرينا تناديانه بأرخم غناء :
 « تعال الينا ، تعال الينا ، يا اوديسيوس الشهير يا مجد

أخايا العظيم ، وأريس بسفينتك حتى تسمع غناءنا . فما
 من أحد مر علينا في سفينته السوداء الا وسمع من شفاهنا
 غناء أحلى من الشهد فسمع بالغناء قلبه ومضى عنا أوسع
 حكمة مما جاء إلينا . فنحن نعرف كل شيء في الوجود
 وكل كفاح كتبته الآلهة على أهل أرجوس وأهل طروادة
 في رحاب طروادة الفسيحة . أجل نعرف كل ما سيجد
 مستقبلا على وجه الأرض ذات الثمار .. ووعدت حوريتنا
 سيرينا أوديسيوس بأنهما سوف تجعلانه مثل الآلهة في
 المعرفة وتكشفان أمامه علم الماضي والمستقبل . ولكن
 أوديسيوس قاوم غناءهن الساحر وقاوم اغراء المعرفة
 الكاملة ، حتى خرج بسفينته من منطقة الخطر ونجا
 برجاله ..

فالسيريناب (اللواتي كن اثنتين في هوميروس فأصبحن
 عادة ثلاثة في أدب ما بعد هوميروس) اذن كانت لهن مروج
 مزهرة كمروج اليزيوم أو فردوس اليونان . وكن يغرين
 أوديسيوس بالمعرفة الكاملة ليستدرجنه الى دماره كما
 حدث في قصة الخطيئة الاولى التي أخرجت الانسان من
 الفردوس . ومع ذلك فليست هناك شبهة في أن جزيرتهن
 لم تكن صورة للنعيم بل كانت صورة للجحيم ، حيث الموت
 المحقق يحيل الملاحين الى أكوام من الجيف المتعفنة وأكداش
 من العظام فكانهن اذن مصدر غواية الانسان وطريقه الى
 الجحيم . أما غناؤهن الجميل فهو حزين كعديد الندابات
 أو كالعويل وهو يأسر النفس بخمالة الحزين وبجزنه
 الجميل . وفيما بعد نقرأ في سوفوكليس انهن كن يغنين
 اغاني الموت في دولة هاديس . ثم نقرأ في أفلاطون انهن
 كن يسكن في هاديس دولة الموتى . وقد كان عملهن
 مصاحبة الموتى في رحلتهم من الدنيا الى الآخرة
 وأهمية هؤلاء الحور المغنيات في الجحيم أو في دولة

الموتى على كل حال هي أنهم كن يصورن دائما فى صورة
الطير الانسى فلهن أجساد الطير وأجنحة الطير ولكن لهن
وجوه النساء الفاتنات . ونحن نلتقى بهن كثيرا فى الاداب
القديمة والوسيطه فى صورة الحور اللاتى كن نساء
ثم تحولن الى طيور أو كن طيورا فتحولن الى نساء وفى
أوريديس (« هيلانة » ١٦٧) انهن عذارى مجنحات وانهن
بنات الارض . ومن رسوم اليونان ما يصورهن على أنهم
ندابات يندبن على قبور الموتى بشجى الاغانى

ولكن صلة السيرينات بعالم الموتى لم تلمس أبدا أهم
صفاتهن : حلاوة غنائهن وهيئتهن المختلطة بين الطير والانس
وقد رتهن على الاغواء . ولعل من المهم أن نذكر أيضا انهما
كانتا اثنتين عددا فى هوميروس وفى أقدم النصوص . وقد
شبهتهما العلامة الكبيرة جين هاريسون بملأى الموت
واستقصت أصلهن فى الطيور الجارحة المقترنة بجثث
الموتى . .

هذه هي بعض طبقات الجحيم التى مر بها أوديسيوس
ورفاقه على متن « السفينة السوداء » فى رحلته الى موطنه
ايناكا كما تقول « الاوديسا » ، أو فى رحلته الى الجنة
كما كان شراح هوميروس يقولون فى العصور الوسطى ،
فقد كان هؤلاء الشراح يرون فى غربة أوديسيوس عن وطنه
وضلاله عشر سنوات بين بحار غريبة وجزر عجيبة قصة
غربة الانسان عن الجنة الضائعة وبحته الدائب عنها بين
المهالك والمخاطر والغوايات حتى كتبت له الالهة أن ترد
غربته بعد أن يمر فى كل طبقات الجحيم

الشعراء في الآخرة

لعل كوميديا « الضفادع » لارسطوفانيس هي أقدم نص أدبي خصص من ألفه الى يائه لتصوير زيارة الانسان للعالم الآخر فقد عرضت « الضفادع » على المسرح الاثيني في عيد اللينايا عام ٤٠٥ ق . م . فنجحت نجاحا عظيما جعل الجمهور يستعيد عرضها بعد وفاة صاحبها ، وهو أمر كان نادر الحدوث في اليونان القديمة ، ولا يعرف ان كان اقبال الاثينيين عليها راجعا الى شغفهم بما لها من قيمة فنية أو بما تميزت به من هجاء لاذع لرجال عصرها أو لارائهم السياسية ولدعوتها الوطنية الحارة . ولا شك أن «أوديسا» هوميروس التي يرجع أنها نظمت فيما بين ١٠٠٠ ق . م . و ٨٠٠ ق . م . أقدم عهدا من « الضفادع » لارسطوفانيس ولكن « أوديسا » هوميروس تمثل مشكلة أدبية وفلسفية حقيقية ، فهي من الناحية الشكلية الحرفية لا تشتمل الا على فصل واحد أو حلقة واحدة من أربع وعشرين حلقة تصور نزول البطل أوديسيوس الى الجحيم ليلتقي هناك باباطال اليونان وملوكهم وليعرف هناك طريقه الذي ينبغي ان يسلكه حتى يعود الى وطنه ايثاكا - بعد طول ضلال ولكن اذا صح تفسير العصور الوسطى لهذه الملحمة

الخالدة بأنها فى حقيقتها ملحمة دينية تمثل ضلال الانسان بعد خروجه من الجنة الاولى وبحته الذى لا يننى عن جنة الميعاد وما يلاقيه الانسان بين الجنتين من أخطار وأهوال ومغامرات وغوايات فرما كانت « الاوديسا » كلها — بأناشيدها الاربع والعشرين تصور رحلة اوديسيوس فى « سفينته السوداء » بين بحار غريبة وجزر عجيبة تصور من ألفها الى يائها رحلة الانسان فى الدار الاخرى حتى يصل فى النهاية الى الجنة التى كان قد خرج منها وفى هذه الحالة لا تكون زيارة اوديسيوس للجحيم الا مجرد مرحلة من مراحل تجوال الروح بين عرصات الجحيم وطبقات الجنة وربما ما بينهما من مطهر . وفى هذه الحالة أيضا تكون ملحمة « الاوديسا » هى أول نص أدبى كامل يصف زيارة الانسان للعالم الاخر ، وتكون رحلة « الاوديسا » أسبق زمنا من رحلة « الضفادع » كذلك الامر فى ملحمة « جلجامش » البابلية الشهيرة فهى تصور زيارة البطل الاشورى جلجامش للجحيم ، وتصور زيارة الربة عشتروت أو عشتار للجحيم وهى المقابل الاشورى لايژيس المصرية . فهذه الملحمة البابلية التى اكتشفت فى مكتبة أشور بانيبال ملك الاشوريين فى القرن السابع ق . م . (٦٦٨ - ٦٢٦ ق . م .) ربما كانت مدونة قبل هذا التاريخ ، والارجح قياسا على طبيعة الملاحم الاولى ، انها وجدت فى مرحلة شفوية تنشدها أفواه الرواة قبل تدوينها بقرون بل الثابت أن بعض ما فيها من مواد يرجع الى ٢٠٠٠ ق . م . ومنه ما هو سابق على ذلك من آثار سومر . وهى فى جميع الاحوال أقدم من « ضفادع » أرسطوفانيس ولعلها كانت أقدم منها زمنا . ولكن مشكلة ملحمة « جلجامش » تشبه مشكلة ملحمة « الاوديسا » وتزيد عليها ، فهى من ناحية يشوبها الغموض لقلة نفاذنا الى رموز تلك الفترة ، وهى

من ناحية أخرى لم تكتشف كاملة بل اكتشفت منها حلقات محدودة لا نستطيع أن نحكم منها ان كانت قد خصصت برمتها لرحلة البطل جليجامش للعالم الاخر أم ان هذه الرحلة مجرد حلقة من حلقاتها كما هو الامر في « الاوديسا » على ما يبدو . ومن أجل هذا يمكن أن نقول أن « الضفادع » لارسطوفانيس هي أقدم نص أدبي يدور كله على فكرة زيارة العالم الاخر

« والضفادع » لارسطوفانيس تدور حول موضوع الموازنة بين الشعراء أو على الاصح بين شاعري التراجميديا العظيمين اسخيلوس وأوربيديس بصفة أساسية . ففيها أن ديونيزوس ، اله الخمر والدراما ما أن بلغه موت أوربيديس حتى حزن عليه حزنا شديدا وقرر أن ينزل الى دار هاديس أي الى الجحيم ليعود به الى عالم الاحياء . ويبدو من فكاهة ارسطوفانيس أنه حتى الاله ديونيزوس لم يكن مجردا عن الهوى والدوافع الشخصية حين نزل الى الجحيم ليعود منه بهذا الشاعر ، فحين يقول له بلوتو رب الموتى ، وهو اسم من أسماء هاديس « سأتركك تعود الى وجه الارض بمن تختاره حتى لا يضيع جهدك هباء » يجيب الاله ديونيزوس قائلا : ديونيزوس أشكرك من صميم قلبي . تعال أنت وهو . سأشرح لكما الامر . أنا جئت هنا لأبحث عن شاعر . أسألوني : « ولماذا عن شاعر ؟ وأنا أقول : ليهدى المدينة الى الحكمة وبهذا تستمر في عبادتي . وبناء عليه فساختار من يثبت أنه أحكم رأيا من أخيه »

فديونيزوس إذن يعلم أن من الشعراء من هم مصدر للحكمة والهداية وان منهم من يثبت الايمان في قلوب الناس ويدعم أركان الدين . . ومن « الضفادع » نعلم ان المشكلة التي كانت تؤرق الاله ديونيزوس هي التشكيك والشك والتجديف والالحاد في العصر الذي كتبت فيه هذه

الكوميديا فانصرف الناس عن عبادة الالهة بفضل انتشار مذهب السوفسطائيين وبفضل تأثير سقراط في مثقفي اليونان . وديونيزوس يخشى انه اذا دام الحال على هذا المنوال فسينفض الناس عن عبادته . ولعل هذا هو السبب الذي جعله في نهاية الامر يقرر أن يعود بالشاعر اسخيلوس الى الحياة بعد أن كان قد خرج في رحلته ليعود بالشاعر أوربيديس . ذلك لان اسخيلوس شاعر عميق الايمان عميق التدين ينضح أدبه بتمجيد الالهة أو بمخافة المجهول . بل ان اسخيلوس بلغ في تدينه مبلغ التصوف حتى لقد عرف عنه أنه كان من الاصفياء أو « المستأى » أو اخوان الصفا الذين اشتهروا بعبادة الربة ديميتير في اسرار اليوسيس الشهيرة ، ومما يروى عنه أنه أفشى اسرار هذه العبادة للناس فحوكم وأدين ولم يشفع له عند قضائه الا ما أظهره من بسالة في الدفاع عن الوطن في معركة ماراثون كل ذلك بينما عرف عن أوربيديس أنه كان من أشياع سقراط والسوفسطائيين والشكاكين والمجدفين ، وانه ملأ أثينا بالشك والتجديف في حق الالهة . وعليه فان ديونيزوس رب الخمر والدراما رغم حبه لاوربيديس شاعرا وأديبا ، فهو قد أثر عليه اسخيلوس وعاد به من دونه الى الحياة ليشيع الايمان في قلوب الاثينيين من جديد ففي « الضفادع » نرى الاله ديونيزوس ينزل الى العالم الاخر مع عبده اكسانثياس بحثا عن أوربيديس ليعود به من عالم الموتى الى عالم الاحياء . وهو لا يعرف طريقه الى العالم الاخر فيلتقى بالبطل هرقل ويسأله عن الطريق

هرقل « محاولا التهويل » : الرحلة طويلة ستصل أولا الى بحيرة كبيرة واسعة وبلا قرار ديونيزوس (لا يتأثر بالتهويل) : وكيف أعبرها ؟

هرقل (ملوحا) : في قارب صغير ، مثل هذا القارب .

هناك معداوى عجوز يعبر بك فى المعديّة مقابل بريزتين
ديونيزوس : دائما البريزتان .. حتى فى الدار الاخرى
البريزتان . يا ترى كيف وجدت البريزتان طريقهما الى
عالم الموتى ؟

هرقل : الملك ثيسبيوس اخذهما معه . بعد ذلك سترى
حيات ووحوشا غريبة الاف منها والاف
ديونيزوس : لا . لا تلعب بالبعاييع . انها لا
تخيفنى ..

هرقل : ثم ستجد أوحالا عميقة وأوساخا بلا نهاية أو
غاية يتمرغ فيها الخطاة . مثلا من أساء الى ضيف أو نشل
بنتا بعد أن نام معها أو ضرب أمه أو لكم أباه أو أقسم
يمينا كاذبة أمام رب السماء

ديونيزوس : ارجو ان اجد بينهم كل من تعلم رقصة
سينسياس التى يسميها رقصة المعركة وكل من حفظ
خطبة لمورسيموس

هرقل : ثم ستسمع نفحة من الانغام تهفّف حول اذنيك
وترى نورا ، وترى ادغال الاس والريحان وحشدا من
الرجال والنساء متهللين يصفقون فى سعادة
ديونيزوس : ومن يكون هؤلاء ؟

هرقل : الصوفية الاصفياء .. هم سيدلونك فورا على
ما تطلب . فالاصفياء يسكنون على حافة الطريق رأسا عند
باب بلوتو ملك الموتى . مع السلامة . رحلة سعيدة
يا صديقى

من هذا نعلم شيئا عن طوبوغرافية العالم الآخر عند
اليونان . كانت هناك اولا بحيرة واسعة بلا قرار لا بد ان
تعبرها ارواح الموتى لتصل الى الدار الاخرى . وكانت
اليونان تسميها بحيرة اخيروزيا أو اخيرون . وكانت
الارواح تنتقل من ضفتها الى ضفتها الاخرى فى قارب

يقوده معداوى عجوز كانت اليونان تسميه خارون أو شارون ، معداوى الارواح ، فاذا ما بلغت المعدة الشاطئ الآخر ، وجدت الارواح نفسها فى الجحيم اولا ، وعلامة الجحيم هى هذه الحيات والوحوش الغريبة التى لا تعد ولا تحصى ثم الاوحال العميقة والاوساخ الفظيعة والروث الذى يتمرغ فيه « الخطاة » اما بعد الجحيم فكانت هناك الجنة أو فردوس اليزيوم الذى ينعم فيه اهل النعيم بالاس والرياحان وبالنغم الجميل وبالنور البهى فيصفقون ويهللون فى سعادة غامرة ثم نعرف من ارسطوفانيس ايضا على لسان خارون أو شارون معداوى الارواح ان من الوحوش التى تسكن الجحيم « غربان الرمم وكلاب جهنم والحمير الميتة » وان نهر النسيان يجرى فيه وهو يقول متكهما ان عذاب الآخرة بين هذه الوحوش الغريبة هو بمثابة الراحة من هموم الدنيا والامها . اما جماعة الاصفياء المتهللين عند باب بلوتو رب الموتى فاسمهم فى ارسطوفانيس « ممويمنوى » أو الميامين أو السعداء . اما مسكن هؤلاء الاصفياء فهو على حافة الطريق الذى يسافر عليه المسافر من الجحيم الى الجنة . ومعنى هذا انه كان هناك طريق يفصل ما بينهما كذلك بمجرد عبور البحيرة كان هناك حجر يذكره ارسطوفانيس ويترجمه الأستاذ جيلبرت مرى بعبارة « حجر الصهد » ، ويترجمه الأستاذ بنجامين روجرز بعبارة « حجر الذبول » أو « الحجر الذابل » . اما بحيرة أخرون أو أخروزا فتسكنها جماعة من البجع تغنى هم اولاد سيكنوس أو كوكنوس الذى كان فتى جميلا ، وهو ابن ابولو من هيريا كان له عاشق يحبه كما تقول الاساطير اسمه فليوس تنكر له فانتحر الفتى الجميل بالقاء نفسه فى البحيرة ، وفيها تحول الى بجعة وقيل أيضا ان امه انتحرت ايضا غرقا حزنا عليه فتحولت مثله الى بجعة .

ومن بين الوحوش الفظيعة التى يلقاها ديونيزوس وعبداه
بعد ان يعبرا بحيرة اخرون جنية عجيبة كان اليونان
يسمونها أمبوزا عرف عنها انها تتشكل بصورة شتى
باستمرار وفى لمح البصر ، فهي آنا فتاة جميلة وهى آنا ثور
وهى آنا بغل وهى آنا كلب ونعرف من ارسطوفانيس ان
رأسها كله يشتعل نارا وان لها ساقا من نحاس . ونعرف
من الروايات المتأخرة على ارسطوفانيس انها كانت جنية
خطرة تعشق الفتيان ثم تلتهم عشاقها وانه يجب على من
يراها ان يلعنها حتى تفر خائفة حين تسمع اللعنة

ومن وسائل التعذيب الاخرى التى اورد ارسطوفانيس
ذكرها فى « الضفاح » كلب جهنم الشهير باسم « كريبوس »
ونهر استيكس الذى يمر بين أخايد وكهوف صخرية
عميقة ونهر اخرون الذى تقطر صخوره بالدماء ثم كلاب
كوكيتوس التى لا تكف عن الدوران ثم الثعبان ذو الرؤوس
المائة الذى يقر البطن ويمزق الاحشاء ثم حنش الماء
المسمى اللمبريدا وهو ذو مصاصات سبع يلعق الحجر
فيبليه . ثم الجراجين « جمع جورجون » وهى وحوش
خرافية تلتهم الاحشاء بعد ان تجعل منها عجينة دامية .
وفى الجحيم حفرة عميقة تلقى فيها اجساد الجناة . ومن
ارسطوفانيس نعرف ايضا ان بلوتون رب الآخرة ، وهو
الاسم الاخر لهاديس رب الموتى كان لقصره بواب يدعى
اياكوس وهو فيما يبدو غير ياكوس روح الخضرة والنماء
الذى يسبح له صوفية ديميتري فى ذكرهم بالرقص والغناء
والتصفيق الموقع ، ويصف ارسطوفانيس هذا البواب
اياكوس ايضا بأنه قاضى الموتى . ولكننا نعرف من اساطير
اليونان ان العالم الاخر كان له عندهم ثلاثة قضاة هم
اياكوس ومينوس ورادامانثوس ، وكان اشهرهم جميعا
هو رادا مانتوس . وكانت مهمتهم محاسبة الموتى ، ويبدو

ان مكان اقامتهم كان في مكان ما في مفترق الطرق بين الجنة والجحيم . وايا كان الامر فارسطوفانيس لا يذكر من هؤلاء الا اياكوس الذي يجعله بواب قصر بلوتون أو هاديس، وقد جعل تحت امرته ثلاثة من الزبانية يعدون زوار الاخرة بمختلف وسائل التعذيب ومنها الجلد بالسياط حتى يعترفوا بالحقيقة

هذا هو الجانب الفظيع من الدار الاخرى وهو الجحيم ولكن ما ان يتجاوزه ديونيزوس وعبداه اكسانثياس حتى يجدا نفسيهما في النعيم . ومن معالم هذا النعيم في ارسطوفانيس غير مروج اليزيوم وما فيها من اس وريحان ونسمات حلوة نسمع انغام الناي والارغول ونرى الاصفياء من اهل الجنة وقد اجتمعوا فيما يشبه المهرجان يرتلون التراتيل لياكوس او ياخوس او على الاصح ياكخوس تتبعهم جماعة من النساء المتعبدات ، وهم يلبسون جميعا ثيابا بيضاء ، وعلى جباههم اكاليل من الزهور وفي ايديهم مشاعل مشتعلة

اما ياكوس هذا فقد كان الها هاما في عبادة الربة الام ديميترا الهة الاخصاب والاثمار وكانت تنشد فيه المدائح في حلقات الصوفية أثناء التعبد في « اسرار » ديميترا وقد كان وثنه يحمل في يوم عيدها من معبدها في اليوسيس الى اثينا وقد زعموا انه ابن الام ديميترا او ابن الربة العذراء برسيفونا او ابن ديونيزوس اله الخمر ، وكلهم من الهة الاخصاب . ونعرف من ترتيل المرتلين أن ياكوس هذا اله شاب طروب راقص يمشي على السهول الخضراء ويقود الاصفياء في الرقص وينشدون له الاناشيد الجماعية ، وان الاصفياء كانوا يقدمون الخنزير قربانا في عيد ديميترا . ومن ترتيلة اخرى في ارسطوفانيس نعرف ايضا ان ياكوس لانه كان اله الخمر والرقص والطرب والاختصاف كان الها

رأى الفقراء والبؤساء بوجه خاص بل وللحفاة والعمرا
لأنه ينسبهم بخمره ولهوه ورقصه أتراح حياتهم المريرة .
ونعرف أيضا أنه سر النماء ومجدد الشباب فيه يرتد
الشيخ فتيا وبه تزيد الحياة جمالا فان سبوح الاصفياء
في النعيم بالاء ديميتري الحورية الأم او برسيغونا الحورية
العدراء لم يخرج نشيدهم عن هذه المعاني

كذلك نعلم عن جنة ارسطوفانيس ان برسيغونا العدراء
الشهيرة باسم « كوريه » او الحورية لها قصر تقسم فيه
وصيفتها اشهى الطعام وافخر النبيذ ومائدة مثقلة بالفاكهة
وفيه فتى غاية في الوسامة يعزف على الناي وبنات صبايا
من اجمل الراقصات متعة للعين وفراش وثير لمن يدخل
قصرها وكثوس من خمر بقدر ما تشتهي النفس ..

هذه فكرة عامة عن الدار الاخرى التي يصورها
ارسطوفانيس في « الضفادع » فيها جحيم وما يتبعه من
صور التعذيب وفيها فردوس وما يتبعه من صور السعادة
وفيها قضاة يحاسبون ارواح الموتى . واذا بد يونيزوس اله
الخمر والدراما يسمع مع عبده اكسانثياس ضجة كبرى
وهرجا بين الموتى ويعرف ان كل هذه الجلبة منشؤها ان
سكان الاخرة منقسمون على انفسهم الى فريقين يتعاركان
فيمن يجلسونه على عرش الشعر : اسـ خيلوس ام
اوربيديس . وقد كان اسخيلوس جالسا على عرش الشعر
في دولة الموتى منذ ان مات عام ٤٥٦ ق . م كما كان جالسا
عليه في دولة الاحياء . فلما مات اوربيديس عام ٤٠٦ ق . م ،
وكانت له شعبية ضخمة ولا سيما بين عامة الناس كان
منطقيا ان يتجمهر من حوله انصاره ومريده ليخلصوا
اسخيلوس من عرش القريض ويجلسوا اوربيديس مكانه .
والحق اننا لا نعرف من « الضفادع » ان كان ارسطوفانيس
قد حشر شعراءه في الجحيم او في الفردوس او وضعهم

بين بين . . وقد نغمات في مشكلة الموتى مشكلة كبرى لان
 اياكوس اومينوس او راها مانفوس رغم انهم قضية الموتى
 الذين يحاسبون الارواح على الخطايا والفضائل ، ثم لم
 يكونوا كبراء في فنون الشعر والمسرح بمثل خبرتهم في
 شئون الاخلاق . ولم يجدوا بين سكان الاخرة النقاد
 الاكفاء للفصل في هذا الامر الخطير . ولذا فقد وجدوا
 في قدوم ديونيزوس رب الدراما خير منقذ لهم من هذه
 الورطة فأقاموا قاضيا في هذه المحاكمة الفنية ليوافق بين
 أدب اسخيلوس وأدب أوربديس ويفتي بينهما ولا سيما
 وان أوربديس قد احدث بالفعل فتنة بين الموتى فخلعوا
 اسخيلوس واقاموه مكانه ، أو كما يقول ارسطوفانيس :
 « لما جاء أوربديس الى عالم الموتى قدم مسرحيات
 مجانية لحنالة لصوصنا : قطاع الطرق والنشالين
 وعصابات السطو والابناء الذين يضربون اباءهم ، فلدينا
 منهم هنا عدد كبير ، ولما سمعوا محاوراته البارعة ومبارزاته
 الماهرة وتورياته الذكية استولى عليهم الاعجاب الى حد
 الجنون وحسبوه كاتباً رائعاً . واستولت عليه الكبرياء
 فاستولى على عرش اسخيلوس . » وبالطبع ما دام
 ارسطوفانيس قد زج بنا حيث حثالة الموتى تقيم فمن
 حقنا ان نستنتج ان هذين الشاعرين العظيمين كانا من
 سكان الجحيم أو على اقل تقدير في مفترق الطريقين .
 حيث تتجمهر الارواح انتظارا للحساب في « الموقف »
 وعلى اية حال فقد اعد كل شيء لهذه المحاكمة الكبرى
 ويجلس ديونيزوس مجلس القاضى ويأتون كما يقول
 ارسطوفانيس متهمكاً بالمساطر والامتار والبزاجل والمناجل
 وبالزوايا والمناشير والاجن لقياس الشعر وتقويمه لان
 « أوربيديس سيقيس كل التراجيديات بيتا بيتا » ويأتون
 بميزان ويجعلون الشعر « كالخروف يوزن على القبان

ويجدونه ناقصا » . وهى طريقة يتمسك بها اوربيديس
لانه ماهر فى صناعة الشعر ولكنها تغضب اسخيلوس لانه
يعتمد على الوحى والفترة . ثم تبدأ المنازلة بين الشاعرين
أما اوربيديس فيتهم اسخيلوس بجملة تهم أدبية خطيرة
أهمها :

١ - ان اسخيلوس دائما « يبدأ كلامه بصمت رهيب »
فى بداية كل مسرحية أنشأها وهى حيلة دجال يريد بها ان
يلقى الرهبة الزائفة فى نفوس المشاهدين حتى يقبلوا كل
ما يقول دون مناقشة . اما اوربيديس نفسه فيدخل
رأسا فى الموضوع

٢ - ان مسرحيات اسخيلوس مخيفة وبكل وضوح
تجرى فيها الدماء أنهارا و « توقف الشعر وتجمد الدم
فى العروق » لكثرة ما فيها من عنف واهوال . اما اوربيديس
نفسه فهو يمتد أعمال العنف

٣ - ان لغة اسخيلوس تعتمد على الطنطنة الجوفاء
والكلمات الضخمة كاللبش الغريبة كالفيلان المخيفة التى
قصد بها ان تكتسح الجمهور كالاعصار المكتسح او كعناصر
الطبيعة الفطرية الهائجة فهى خالية من جمال الفن ودماثة
الانضباط المدنى . اما اوربيديس فيبانه مهذب ولغته
سلسة لانه شاعر متمدن مثقف

٤ - ان فن اسخيلوس كله يعتمد على البوزات وعلى استغلال
الغموض فهو يظهر شخصيات تمشى صامتة على المسرح
للتعمية والايهام والقاء الرهبة فى القلوب مما يجعل
مسرحياته فى حقيقتها سلسلة متصلة من أغاني الكورس .
اما اوربيديس نفسه فلا يلجأ الى هذه الحيل الرخيصة
ويجعل كل شخصياته تتكلم على المسرح من اكبر كبر
الى أصغر صغير ، وهذه فى نظره ديموقراطية واقتراب من

عقل الجمهور وقلبه ، وهو لا يلجأ الى هذه « الافيهات »
الجوفاء ..

٥ - ان اسخيلوس كان ينشئ الشعر والدراما وفق
الفطرة التى لا ضابط لها ، اما اوربيديس فقد اعطى الناس
قوانين ومقاييس يحكمون بها على الفن

٦ - ان اسخيلوس كان يكتب للناس عن اشياء فوق
مستواهم ويعتمد على الغيبيات التى تصيب الرأس والدوار
فيجرد الناس بذلك من القدرة على الحكم على لب مايقول .
اما اوربيديس نفسه فقد صور على المسرح اشياء واقعية
من الحياة اليومية بحيث يمكن للناس ان يحكموا على أعماله ،
فان اخطأ كشفوا خطاه وان اجاد عرفوا لماذا اجاد .
اسخيلوس يتحدث عن البجع السحري وعن فرسان
اثيوبيا وعن سهيل الخيل الوحشية وصليل الخوذات
النحاسية واجراس الخيل ، وهو يرعبهم بالرعد والبرق
على المسرح حتى يفقدوا كل عقلهم . اما اوربيديس فيكلم
الناس بلغة الناس عن شئون الناس

٧ - ان اسخيلوس علم الناس الايمان الاعمى دون
مناقشة بمعتقدات دينية اشبه شيء بالسحر حتى اصبحوا
يقادون كالانعام . اما اوربيديس فقد علم الناس ان يفكروا
بحرية وان يتكلموا بحرية وأن يعملوا العقل فى كل ما يرون
وما يسمعون كما علمهم منهج الشك فى كل شيء من
مسلمات الحياة وعلمهم كيف يفكرون فى الدين والسياسة
وكيف يدبرون أمور الدولة والبيت ..

٨ - ان اسخيلوس كان داعية حرب اذكى فى الناس
غرائز القتال . اما اوربيديس نفسه فكان داعية سلام
يحض الناس على الحفاظ على الحضارة والمدنية
اما اسخيلوس فيرد على كل هذه الاتهامات ويكيل
بدوره تهما عديدة لاوربيديس واهم هذه التهم :

١ - ان اوربيديس اضع فخامة التراجيديا ونبهلسسا بتحطيم دور الكورس في الدراما واعتماده على النساء المنفرد . اما اسخيلوس نفسه فقد رفع الدراما على هذا المستوى السوقي

٢ - ان اوربيديس حين علم الناس الحرية في التفكير وفي التعبير وعلمهم الشك في كل شيء انما علمهم الكفر والاحاد والتجديف والتطاول على مقام الالهة وعلى المعتقدات والتقاليد السائدة . بل ونشر روح التذمر والتمرد في الجيش وفي الاسطول وعلم الناس السفسطة فيما لا يجدى من الامور حتى صارت حال اثينا الى فوضى في السلم والحرب اما اسخيلوس نفسه فقد وطد بفنه اركان الايمان الذي لا يستقيم بغيره شيء في الدنيا او في الدين

٣ - ان اوربيديس يظن ان دعوته الى السلام قد نفعت اثينا وحقيقة الحال انه قد اشاع الميوعة والطراوة في رجالها بحيث غدت غير قادرة على الدفاع عن نفسها . اما اسخيلوس نفسه فقد سار في طريق هوميروس العظيم وهسيود العظيم فعلم الناس شيئين : حب البطولة والاخلاق الفاضلة

٤ - ان اوربيديس قد ملأ مسرحياته بقصص الحب المحرم والنساء العاهرات والخائنات والعاشقات المسخسخت اللواتي ينتحرن من فرط الوجد ، اما اسخيلوس نفسه فقد علم ابناء وطنه كيف يقفزون من مراقدهم كلما نادى النفير وكيف يقاتلون بقلوب الاسود

٥ - ان اوربيديس باسم الواقعية قد البس شخصياته الخرق والاسمال واضاع روعة الديكور وفخامة الشعر بأسلوبه الحلو المعسول الذي يدغدغ الحواس ولكنه لا يخاطب الخيال . بينما اسخيلوس نفسه قد اقام

مسرحة على السمو والجلال واسلوبه على الرصانة
والجزالة

٦ - ان اوربيديس ينظم الشعر بطريقة آلية لا الهام
فيها باسم اتباعه قوانين الفن بحيث يمكن لاي انسان
تكملة اية قصيدة انشأها دون عناء . اما اسخيلوس
فهو يعتمد على الهام الفطرة الذي لا يبلغه الا الاصفياء .
اما ديونيزوس القاضى فيجلس بينهما حائرا يستمع
لهذا وينصت لهذا ، وكلما وجد احدهما عيبا في شعر
اخيه وجد نقده في موضعه وهكذا عجز عن الوصول الى
قرار ، فلم يجد حلا الا ان يأتى بميزان كبير ويطلب من كل
شاعر من الشعارين العظمين أن يلقي بالبيت بعد البيت
في احدى الكفتين وكأنه يزن قطع الجبن . وفي كل مرة كانت
ابيات اسخيلوس ترجح كفته فيستقر رأيه اخيرا على
اختيار اسخيلوس ليعود به الى عالم الاحياء وهو عكس
ما جاء من اجله لزيارة الآخرة ، فقد كان غرضه الاصلى
هو العودة بأوربيديس . وهكذا يمضى ديونيزوس
واسخيلوس الى قصر بلوتون رب الموتى ليقيم لهما مأدبة
فاخرة هي مأدبة الوداع قبل ان يعود اسخيلوس الى عالم
النور . ولكن اسخيلوس لا ينسى قبل رحيله ان يوصى اهل
الآخرة بأن يجلسوا على عرشه في غيبته خليفته سوفوكليس
العظيم الذى لبث طول الوقت صامتا في خشوع لا يتدخل
راضيا بزعامه اسخيلوس بين الشعراء . اما اوربيديس
المحنق الذى خاب أمله فى العودة الى الحياة فنعرف أنه
عظيم الثقافة واسع الاطلاع ثاقب الفكر مصقول الجنان دمث
البيان ولكنه لكثرة ما جلس الى سقراط ومدرسة السوفسطائيين
الذين ملأوا الدنيا شكاً وسفسطة وتجديفا باسم العقل
وحرية الفكر تحولوا الى جماعة من حوالة الفكر بضاعتهم
اللفظ يلعبون به وبقوانين المنطق يستولدون منها ما شاعوا

من الأفكار . هذا كان على الأقل رأى الكوراس فى هذه
المحاكمة الادبية الشهيرة التى جرت فى الآخرة ، والكوراس
كما نعلم كان يعبر فى الدراما اليونانية عن الضمير العام أو
ما نسميه اليوم بالرأى العام . أن أئينا كانت بحاجة الى
شاعر يلهمها الحكمة ويهديها سواء السبيل وسط تلك
الانواء التى كانت تتقاذفها يمنة ويسرة قبل أن ينطفئ
سراجها الوهاج فجأة وتبتلعها دياجير الظلام . ولم يكن
أوريديس يملك لوطنه حكمة يعطيها رغم كل ما اثر عنه من
علم وتفلسف وفكر ثاقب وجرأة فى الرأى . فكان الكوراس
أو الرأى العام ، كان لا يرى مخرجا لأئينا من ورطتها الا
بالعودة الى الفطرة وفضائلها وتبذ المدنية وجمالها الزائف

ولم يكن هذا الاختيار بغريب على ديونيزوس فقد كان
رب الخمر والشعر وكل قوى اللاوعى والفطرة فى الإنسان
ولو أن أرسطوفانيس اراد حقا إعادة أوريديس الى الحياة
بدلا من اسخيلوس لانزل الى مملكة الموتى أبولون رب الشعر
المهذب الفناء ، المثقف الطباع ، الذى يرمز للجمال والاعتدال
ولم ينزل ديونيزوس الذى يمثل كل ما هو فطرى ومنطلق
بجنون الالهام . أما موقف أرسطوفانيس نفسه فى هذه
الكوميديا العظيمة التى اتهمها بعض اساتذة اليونانيات
المحدودى الافق ظلما بالتفكك والتناقض لانهم لم يفهموها
على حقيقتها ، فقد كان موقف الفنان الابولونى المتمدن الذى
عاش فى عصر ساد فيه الديماغوجيون أو زعماء الرعاع .
وهو قد اعطى لعامة أئينا ما يطلبون : رد الى الحياة ذاعية
الحرب والفطرة المتأججة والانطلاق النبيل الذى لا يخضع
لحساب ، رده اليها فى لغة من يقرأها يخسب أنها تعبر عن
رأى الشاعر لكمال صدقها بالتعبير عن فلسفة الفطرة
العظيمة . ولكن أرسطوفانيس مع ذلك بطن كل مسرحيته
بالسخرية من ديونيزوس ومن فلسفة الانطلاق الذى

لا يعرف ضابطا ، ومن الحرب ودعاتها . وهسوفى الوقت نفسه قد بطنها بالسخرية من اوربيديس المثقف المتمسدين الذى لم تمنعه ثقافته ومدنيته من ان يلتمس الشعبية بين نفاية الاثينيين . وكأننا لسان حاله قائل : كلاهما لا يرضى ولكن ان كان ولا بد ان نختار احدهما فقد وجب ان يقع اختيارنا على معلم الفطرة ولكن دون جنون بالفطرة وعلى معلم الوطنية ولكن دون عدوان الشوفونية

هذه هى كوميديا « الضفادع » لارسطوفانيس وما كان فيها من زيارة للعالم الاخر وموازنة بين الشعراء . وليس هذا كل ما فيها ، فمن هذه المسرحية وما اشتملت عليه من سخرية بساسة العصر نستطيع ان نكون فكرة لاباس بها عن حال اثينا السياسية ومشاكلها الاجتماعية فى زمن ارسطوفانيس وموقف الراى العام فى كل هذه الامور . كذلك نستطيع من خلال هذه المسرحية ان نخرج بفكرة لاباس بها لا عن حالة اثينا الدينية ومعتقداتها الفكرية وحدها ، ولكن عن تلك الشيعة الصوفية التى اشتهرت فى تاريخ العبادات اليونانية بجماعة « المستاى » او المتصوفة او الاصفياء ، تلك الشيعة التى اقترنت شعائرها بأسرار اليوسيس المقدسة حيث كانت عبادة الالهة الام ديميتير وبرسيفونا العذراء بنتها الشهيرة بالربة كوريه وهما ربنا الموت والنماء فى آن واحد . وقد كان لعبادة اليوسيس هذه اهمية خاصة بين الديانات القديمة نظرا لانها كانت تعد اتباعها بنعيم الاخرة وتصف هذا النعيم وصفا قريبا جدا من وصف الجنة كما نعرفها نحن الموحدين ، كل ذلك فى زمن لم تتطور فيه فكرة الفردوس بالمعنى المفهوم فى اذهان اليونان كما رأينا من دراستنا « لاوديسا » هوميروس ولاشارات هسيود فى « الاعمال والايام »

شئ من التاريخ

كان ينبغي الا انتقل من هوميروس وأرسطوفانيس رأسا الى ابي العلاء المعرى دون أن أتوقف بعض الشئ عند شاعر اللاتينية الاعظم فرجيل (٧٠ - ١٩ ق ٠ م) صاحب « الانيادة » الشهيرة وصاحب « الاكلوجات » أى « الرعايات » أو اشعار الرعاة ولا سيما ذلك القسم منها الذى يسمى « بالاكلوج الرابع » فى « الانيادة » وصف لزيارة البطل انياس للعالم الآخر وفى « الاكلوج الرابع » رؤيا قريبة جدا من رؤيا الجنة ونبوة مولد الطفل الالهى الذى يبدأ بمولده عصر السعادة الدائمة وكأنه نبوة بمولد المهدي المنتظر .

وقد أولت العصور الوسطى الاوربية سواء فى بيزنطة أو فى غرب أوربا « أنيادة » فرجيل « والاكلوج الرابع » بالذات تأويلات جعلت من صاحبهما أشبه شئ بنبى أو بشير يختم عهد الوثنيات ويبدأ عهد الايمان الصحيح . وكذلك كان ينبغي الا انتقل من هوميروس وأرسطوفانيس رأسا الى المعرى قبل أن أتوقف طويلا عند الشاعر اللاتينى العظيم أوفيد (٤٣ ق ٠ م - ١٧ م) صاحب « الميتامورفوز » أى « التحولات » أو « التشكلات »

ولكنى لم اتوقف هنا وهناك لان زيارة انياس فرجيل

للعالم الآخر وحلم فرجيل بالجنة او بالعصر الذهبي ليسا غير اصداء قوية جميلة لصوت هوميروس والاقدمين ، ولان اوفيد في « تحولاته » وفي غير تحولاته لم يزر جنة ولا جحيمًا بصفة خاصة اكثر مما زارهما من سبقوه ، فهو في الحقيقة قد نظم تاريخا اسطوريا للكون والخلقة فصل فيه كيف خرجت الاشياء من الاشياء وكيف تحولت الاشياء الى اشياء مستمدا هذا التاريخ الاسطوري من معتقدات قداماء اليونان والرومان ومن آدابهم . ورغم هذا فقد كان لفرجيل واوفيد أثر بالغ في تفكير المثقفين الاوروبيين طوال العصور الوسطى زهاء الف واربعمئة سنة ، ولا سيما تفكيرهم الديني ، الرسمي وغير الرسمي معا ، فقد قرأ العالم المسيحي في آثار فرجيل واوفيد معاني تتفق مع عقيدته المسيحية بمثل ما فعل « باوديسا » هوميروس واعتبر كلا من هذين الشاعرين ترجمان الوثنيات الاولى من يونانية ورومانية لدى العالم المسيحي وعده حكيمها الجامع لحكمتها ورموزها الروحية . فاكثفت اوروبا الوسيطة بقراءتهما وتفسيرهما عن قراءة آداب اليونان والرومان فيما خلا النزرا اليسير . وقد يسر تحول فرجيل واوفيد اللاتينيين الى قنطرة تصل ما بين الوثنية اليونانية واوروبا الغربية في العصر الوسيط ما كان من قطعة بين بيزنطة وروما طوال العصور الوسطى ، وما نجم عن ذلك من ذبول للغة اليونانية في العالم اللاتيني ، حتى تجدد اهتمامه بها بفضل تأثير الحضارة العربية اولا ونتيجة لسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ من ناحية أخرى

ولعل أسلم منهج في الانتقال الى المعرى والحديث عن « رسالة الغفران » هو ان نبدا بعرض الخلفية التاريخية لهذا العمل العظيم ، فنوضح طبيعة العصر الذي كان يعيش

فيه المعرى فتتضح بذلك اهم مشاكله واهم معتقداته ومحاوِر الصراع المادى والفكرى فيه ، عسى ان يلقى كل ذلك ضوءا على مرامى المعرى وغاياته من « رسالة الففران » وعسى ان نجد بعض المفاتيح التى قد تساعدنا على معرفة موقف هذا الرجل العظيم كما تجلت فى ادبه من افكار عصره ومن احداثه ومن رجالاته ومن احواله بوجه عام . فاذا ذكرنا ان المعرى انما ولد مع مولد الحروب الصليبية وعاش حياته كلها فى غمارها ، واذا ذكرنا ان اهتمامات الرجل الاولى كانت اهتمامات فلسفية تتصل بالعقائد وبحرب العقائد التى دارت رحاها ليس فقط فى عصره وليس فقط فى بلاده ، ولكن فى صميم بلده وعلى بعد اميال معدودة منه تكشف لنا ضرورة وضوح الصورة التاريخية التى برز فيها هذا الرجل العظيم وبرز فيها عمله العظيم وقد استعنت فى رسم هذه الصورة الى جانب المصادر العربية المعتمدة التى أرخت للمعرى وعصره ، بكتاب جروسية الشهير فى « تاريخ الحروب الصليبية » وبكتاب ستيفن رنسيومان الشهير فى تاريخ الحروب الصليبية ، وبكتاب الاستاذ داونى فى « تاريخ انطاكية » وبكتاب « بيزنطة » للاستاذ ليفتشينكو

والاعتقاد الشائع ان الحرب الاولى من سلسلة الحروب الصليبية هى تلك الحرب التى وقعت بوقوع ما يسمى عادة بالحملة الصليبية الاولى بين ١٠٩٦ و ١٠٩٩ وهى الحملة التى جاءت من اوروبا الغربية اللاتينية وباشراف بابا روما اوربان الثانى ولكن الحقيقة هى ان الحروب الصليبية بدأت اكثر من مائة وخمسين عاما قبل بدايتها الرسمية هذه ، بدايتها بيزنطة فى العشرينات من القرن العاشر الميلادى حين أخذت تنفذ خطة للتوسع على حساب العالم العربى فى نهاية الدولة العباسية الثانية بعد أن أحسنت بتفككه بانقضاء

سلطة الخلافة الموحدة

وقد بدأ تنفيذ هذه الخطة فيما استطاعت بيزنطة او استطاعت الروم كما كان يسميهم مؤرخو العرب بجيش يقوده القائد الارمني جان جورجين ان ترغم من حدود ارمينيا في ٩٢٧ - ٩٢٩ امراء العرب في ارضروم وملطية وآمد وهي ديار بكر ، وميافارقين وكلها في شمال سوريا ان يدفعوا له الجزية . وقد استولى جورجين في ٩٤٣ على ملطية ، فلما كانت ٩٤١ - ٩٤٢ استولى البيزنطيون على ميافارقين ، فكانت هذه الغزوات بمثابة المحاولات الاولى للتوسع الاستعماري البيزنطي على حساب الدولة الاسلامية ، او على الاصح على حساب الدويلات الاسلامية . وقد تمت هذه المحاولات الاولى في عهد ثالث ملوك بيزنطة المقدونيين قسطنطين بورفروجنيث الذي حكم من ٩٣١ - ٩٥٩ . وكان العالم الاسلامي منقسما يومئذ الى دولة بني بويه من الديلم في بغداد ودولة الحمدانية في الموصل وحلب ودولة الاخشيديين في مصر ودمشق بغض النظر عن المغرب وكان اهل الاحتكاك المباشر ببيزنطة او بالروم هم دولة بني حمدان الذين اسسوا ملكهم أولا في الموصل ، ثم ضموا شمال سوريا بما فيها حلب التي كانت تابعة لمصر الاخشيدية ثم استخلصها سيف الدولة الحمداني من يد المصريين عام ٩٤٤ وقد دامت دولة الحمدانية نحو ستين سنة من ٩٤٤ الى ١٠٠٣ ، وكانت هذه الدولة تنقسم الى قسمين : قسم يحكم في الموصل وديار بكر ابي آمد تحت اماره الاخ الأكبر ناصر الدولة « ٩٢٩ - ٩٩١ » ، وقد كان هؤلاء في صراع مستمر مع بني بويه الحاكمين في بغداد وقسم بامارة سيف الدولة « ٩٤٤ - ٩٦٧ » يحكم من حلب شمال سوريا وكانت له امجاد في القتال وانقضاضات على جيش بيزنطة . ولكن بيزنطة ما لبثت ان انتصرت عليه وفي ٩٤٨

٩٤٩ - اخذت منه مرعش ، ثم استولى منه القائد ليون
فوكاس في ٩٥٧ على طرسوس عاصمة كيليكيا ثم على آمد
« ديار بكر » وفي ٩٥٨ على سمسون ثم تجاوز دجلة في
٩٥٩

وفي ٩٦١ استطاع القائد البيزنطي نيسيفور فوكاس
(نففور) أن يهزم القراصنة في قبرص وان يشنتهم ، ثم
سار الى شمال الشام واستولى من سيف الدولة على جملة
بلاد صغيرة وأسر أبا فراس الحمداني الشاعر وهو ابن
عم سيف الدولة . ثم استولى نيسيفور فوكاس ونائبه
القائد يوحنا جيمشك أو ديميشك أو « الدمستق » على
حلب عام ٩٦٢ . فحلب اذن قد سقطت في يد الروم احدى
عشرة سنة قبل مولد أبي العلاء المعري في ٩٧٣ م ، ٣٦٣ هـ ،
ولهذا أهمية خاصة لان معرة النعمان وهي بلدة المعري
لا تبعد عن حلب الا أميالا قليلة تبلغ نحو الثمانين ، ولان
حلب كانت المعهد الاول الذي تعلم فيه المعري صبيا ، ولان
حلب كانت طول زمان المعري مركزا للصراع السياسي
والديني العنيف الذي انعكس في كثير من أدب المعري
وبعد أن استولى نيسيفور فوكاس عاد الى القسطنطينية
حاضرة بيزنطة ، وهناك توج امبراطورا على بيزنطة وحمل
لقب باسيلئوس أى الملك أو بمبيل كما كانت العرب
تقول . ثم عاد فشن على الحمدانية حملة جديدة في
٩٦٤ ، وكانوا يومئذ في صراع مع بنى بويه في بغداد ، وهم
من الديلم ، فقد استولى معز الدولة أمير امراء بنى بويه
من ناصر الدولة الحمداني على الموصل ونصيبين ، وفي
الصلح رد الموصل لقاء جزية فادحة واحتفظ لنفسه
بنصيبين واذا كان ما سبق من اعمال الروم العسكرية
في شمال الشام يعد مقدمات غير رسمية لتوسيع
الاستعمار الصليبي البيزنطي ، فان تحركات الروم بعد

هذا التاريخ بقيادة البسيل نيسفور فوكاس تعد في نظر بعض المؤرخين البداية الرسمية للحروب الصليبية . ذلك ان الباسيل فوكاس اصدر بيانا ملتها وجهه الى خليفة بغداد شرح فيه برنامجه العسكري الصليبي كاملا وهدد فيه بأخذ دمشق « وهي مسكن اسلافى » كما وصفها وعلى نصيين والموصل وحران والجزيرة وبلاد الديلم وعلى مصر التي « سأخذ خيراتها اسلابا لى » كما جاء في بيانه . وفي بيانه قال : « الويل لكم يا سكان الصحراء ، عودوا الى وطنكم صنعاء ، وهو بلدكم الاول ، وصاح : « عودوا الى الحجاز واتركوا لنا بلاد الاغريق » ثم ترتفع نبرته ارتفاعا فاحشا فيقول : « سأسير الى مكة . . ومن بعدها اتجه الى القدس . سأفتح الشرق والغرب وسأنشر في كل مكان دين الصليب ! »

هذا « المانيفستو » السليط الصريح الاغراض والخطة يعد في ذمة أكثر المؤرخين البداية الرسمية للحروب الصليبية . وقد كان ينتظر أن يكون له رد فعل قوى . وبالفعل انتقلت بعض فرق الجيوش الاسلامية من خراسان لحماية الشام ، ولكنها لم تفعل شيئا لان الحمدانية كانوا مشغولين بصراعاتهم مع بنى بويه . ولا يذكر التاريخ ردا فوريا على بيان فوكاس الا رسالة وضعها فقيه في طشقند هو الامام القفال يرد بها على دعاوى الباسيليوس فوكاس ، وهي رسالة دينية تقارن بين العقائد . .

وفي ٩٦٤ - ٩٦٥ ارسل الباسيليوس فوكاس احد قواده الى قبرص فأخذها من يد العرب . وفي ٩٦٥ استولى فوكاس نفسه من الحمدانية على بقية ولاية قيليقيا واخرج منها سكانها المسلمين بالجملة ووطن فيها

المسيحيين بالجملة . وقد وصلت الجنود الاخشيديّة متأخرة فلم تستطع أن تفعل شيئا . وفي ٩٦٦ احتل فوكاس فيما بين النهرين حتى نسيبين أى حتى منتصف الطريق الى الموصل ، وفي الشام احتل حتى منتصف الطريق من حلب الى أنطاكية ..

ثم مات سيف الدولة في يناير ٩٦٧ بعد حياة مجيدة قضائها في مقاومة الاستعمار البيزنطي ، وتولى بعده ابنه سعد الدولة ٩٦٧ - ٩٩١ ، وبموت سيف الدولة انتهت كل مقاومة محلية حقيقية لتوسع الروم . وانتقل عبء مقاومة الاستعمار البيزنطي انتقالا كاملا الى كاهل مصر الفاطمية ، وقد أثبتت الحوادث ان مصر الفاطمية كانت شجى في حلق الروم اولا ثم كانت السد المنيع الذي حال دون تدفقهم في بقية الشام وفي بقية أرجاء العالم العربي . أما الحمدانية فقد كانوا مشغولين بالمحافظة على عروشهم

شن الباسيليوس فوكاس حملة على الشام جديدة في ٩٦٨ فاحتل حلب وخرّب معرة النعمان وكفر طاب وشيزر واحرق حماة وحمص وأجلى عنهما سكانهما المسلمين وخرّب وادى نهر العاصي ثم بلغ لبنان فاحتل جبيل وما جاورها وأشاع الدمار في مشارف طرابلس ، وأعلن والى اللاذقية ولاءه للروم ، ثم عاد الملك فوكاس المنتصر الى القسطنطينية تاركا في سوريا جيشا بقيادة ميخائيل بورتزيس محاصرا لانطاكية

أما سعد الدولة الحمداني فقد خلعه غلامه أو قائده قرغويه ففر سعد الدولة من حلب ونشبت بين قرغويه وسعد الدولة حرب أهلية ، فانتهز الروم هذه الفرصة ودخلوا أنطاكية في ٩٦٩ وأجلوا عنها بالجملة سكانها

المسلمين ووطنوا فيها المسيحيين بالجملة جمعوهم من كل مناطق سوريا . وكان الاستيلاء على أنطاكية أعلى ذروة بلغها الفتح الصليبي البيزنطي ، وقد ظلت أنطاكية في يد الروم ١١٥ سنة من ٩٦٩ الى ١٠٨٤ ، أى قبل مولد المعزى بأربع سنوات حتى بعد وفاته بخمس وثلاثين سنة ، حين استردها الترك ١٤ سنة فقط ومن بعدها عادت الى أيدي صليبي روما

ولكن هذا العام المشؤم على دولة الحمدانية في الشام، عام ٩٦٩ الذى كان بداية تفككها النهائى كقوة استقلالية تعزز بها العروبة والاسلام كان ايضا عام انتفاضة الاسلام الكبرى التى جددت شباب الاسلام الى حين ومكنت العالم الاسلامى من ان يصد الغزو الصليبي البيزنطى عن اسواره صدا نهائيا ، ولولا ان صليبي الغرب جاموا بعد صليبي الشرق لتغير وجه التاريخ . ولولا أن هذه الثورة الكبرى نفسها مزقت العالم الاسلامى لقرنين كاملين (من ٩٦٩ الى ١١٧١) الى سنة بغداد وشيعة مصر لتغير وجه التاريخ

بدأت هذه الثورة الكبرى عام ٩٦٩ حين جاء الفاطميون من تونس وغزوا مصر وعزلوا منها الاخشيديين ولم يمض عام ٩٧٠ حتى كان الفاطميون في الشام ونجحوا في قطع الطريق على تقدم الروم نحو القدس . بل ان القائد الفاطمى جعفر بن فلاح بلغ انطاكية من ٩٧٠ وحاصرها ، ولكنه لم يوفق في فتحها . اما في بيزنطة فقد خلف الامبراطور نيسفور فوكاس الامبراطور يوحنا جيمشك (الدمستق) الذى حكم من ٩٦٩ الى ٩٨٥ وفى عهده سقطت دمشق في يد مغامر تركى يدعى افتكين كان يخدم العباسيين ثم انتقل لخدمة الفاطميين بعد استيلائهم

على مصر ، فأرسلوه على رأس جيش لفتح دمشق ففتحها .
 ولكن افتكين استقل بدمشق عن الفاطميين بعد امتيلائه
 عليها . ثم حاول الباسيليوس الملك جميشك «الدمستق»
 غزو بغداد في ٩٧٥ ولكنه نهب وسلب أكثر مما غزا .
 غير أنه كان قبل ذلك بعام (٩٧٤) قد أكد سيادة الروم
 على ميافارقين وعلى آمد (ديار بكر) وعلى نصيبين وطررد
 منها سكانها المسلمين واعترف بسيادته على الموصل أميرها
 الحمداني أبو تغلب حفيد ناصر الدولة . وفي ٩٧٥ أيضا
 فتح جميشك بعلبك ووصل الى دمشق ، وكانت في يد
 المغامر التركي افتكين ، فأعلن افتكين الولاء لبيزنطة
 وللباسيليوس ليحتفظ بعرشه . وزحف الباسيليوس
 جميشك الى طبرية مستهدفا الوصول الى القدس وأقام
 في عكا وفي بيسان وفي جنسرين حكاما عسكريين وأخذ
 الجزية من هذه البلاد وزحف الى قيصرية على الشاطئ
 فاستولى عليها وكتب يقول في خطاب له للملك أرمنيياشود
 الثالث ولولا « الافريقيين الملاحين » لما توقفنا في طريقنا الى
 القدس . وهو يقصد طبعاً بالافريقيين الملاحين جيش مصر
 الفاطمية . وهكذا كانت آخر نقطة بلغت بيزنطة جنوباً
 في الطريق الى القدس هي بيسان ، وكانت جيوش مصر
 الفاطمية تحتل قلاع الشاطئ فمنعت الروم من التقدم .
 ولكن جميشك اخضع عكا لسيادته فدفعت حاميتها له
 الجزية . وهاجم بيروت فقاومه حاميتها الفاطمية بشدة
 ثم استسلمت له أخيراً بقيادة قائدها نصيرى المعروف
 بالناصر . ثم زحف جميشك على صيدا فدفعت له الجزية ،
 كذلك قاومت الحامية المصرية في ببلوس بضراوة ثم
 استسلمت بعد قتال عنيف واستسلم جبل لبنان وبحسب
 ما كتب جميشك نفسه من انطاكية أصبحت فينيقيا كلها

وسوريا كلها في يد بيزنطة ولكن ثابتة ان طرابلس وحدها
قاومت الى النهاية ولم تسقط في يد الروم بالرغم من انهم
اشاعوا الخراب في ضواحيها وثابت كذلك ان حملة ٩٧٥
لم تحقق الا جزءا من اهدافها فوقفت امام السامرة
لا تتقدم وظلت طرابلس في يد الجيش المصرى

وفي بيزنطة مات جيمشك عام ٩٧٦ وخلفه الامبراطور
باسيل الثانى ، وباسيل هو اسمه وليس لقبه . واكتفى
باسيل الثانى بحكم انطاكية حكما مباشرا مع بسط سيادته
على حلب وفى ٩٧٦ ايضا استرد سعد الدولة الحمدانى
عرش حلب فهاجمه القائد البيزنطى بارداس فوكاس
فاعترف بولاية بيزنطة لتحميه من الفاطميين . واستولى
جيش مصر الفاطمية على دمشق وهاجم حلب عدة مرات
فصده عنها الروم وكان بها سعد الدولة ثم ولده سعيد
الدولة الحمدانى (٩٩١ - ١٠٠١) الذى خلفه بعد موته .

وفى ٩٩٤ حاصر الجيش المصرى حلب وحاول البيزنطيون
فك الحصار فى ٩٩٥ ولكنهم هزموا على نهر العاصى . فخف
باسيل الثانى بنفسه من بلغاريا وتمكن من فك الحصار فى
العام ذاته ثم استرد من المصريين شيزر وحمص التى
دمرها لمقاومتها ، اما الحامية المصرية فى طرابلس فقد
صدت كل هجمات بيزنطة . وبعد عودة باسيل الثانى الى
اوربا هاجم المصريون انطاكية وهزموا البيزنطيين وقتلوا
« دوق حلب » فعاد باسيل الثانى الى سوريا فى ٩٩٩ واسترد
من الفاطميين شيزر ووطن فيها الارمن واحرق حمص ثم
بعلبك وعبر لبنان واحتل ساحل فينيقيا . غير ان الجيش
المصرى كان قد حرر بيروت وجبيل وعسكر فيهما ، وحاول
باسيل الثانى استخلاصهما بالهجمات المتكررة ولكنه باء
بالفشل ، وكذلك فشل فى الاستيلاء على طرابلس وقد كان
هذا الفشل ايلانا بانتهاء سطوة بيزنطة من الشام . فقد

اصبح واضحا ان سلطانهم قد اقتصر على انطاكية مع ولاية اسمية على حلب . اما بقية سوريا فقد كانت في يد الفاطميين . وعقدت في ١٠٠١ معاهدة بين باسيل الثاني والحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٢٠٠) تفيد ذلك . بل ان بيزنطة تركت مصر في ١٠١٥ تستولى على حلب وتحكمها حتى غزاها صالح بن مرداس زعيم قبيلة بنى كلاب ومؤسس الدولة المرادسية في ١٠٢٣ ، وظلت المرادسية تحكمها حتى ١٠٧٩ آنا بالتعاون مع بيزنطة وآنا في استقلال عن بيزنطة . باستثناء فترات قصيرة من الحكم المصري ولكن المهم في كل هذا ان جيش مصر الفاطمية هو الذي وضع حدا لسيطرة بيزنطة على الشام ثم على حلب وفي ١٠٢٠ هزم شبل الدولة المرادسي ارجير امبراطور بيزنطة بمعونة المصريين فضمن استقلال المرادسية وقد حاولت مصر ان تغزو حلب أكثر من مرة بين ١٠٣٠ و ١٠٥٧ عام موت المعري لتعزيز هذا الحاجز بين العالم الاسلامي ودولة بيزنطة . وفي عام موت المعري لم يبق للروم في دولتهم الاسيوية الا حوافي سوريا ..

فالمعري اذن قد ولد بعد ان سقطت حلب في يد الروم عام ٩٦٨ بخمس سنوات وبعد ان خرب الباسيليوس فوكاس بلدته معرة النعمان بخمس سنوات وبعد ان سقطت اللاذقية وانطاكية واكثر بلاد سوريا الشمالية التي تردد عليها او درس فيها بأربع سنوات أو نحوها . والمعري ولد في عهد (أبي المعالي) سعد الدولة الحمداني ، الملك المخلوع الذي استعان قرغوية مفتصب عرشه ببيزنطة ليحكم مكانه وحين كان المعري طفلا في الثالثة ، أي في ٩٧٦ استرد سعد الدولة عرشه وقبل ولاية الروم عليه ليحموه من هجمات مصر الفاطمية . وعاش المعري صباه وشبابه الباكر تحت حكم سعد الدولة الذي مات حين كان المعري في

الثامنة عشرة من عمره وتحت حكم باسيلوس الثانى ملك بيزنطة الذى حكم حلب وانطاكية واللاذقية وسوريا الشمالية بعامة من خلال سعد الدولة الحمدانى . كذلك عاش المعرى شبابه الناضج ورجولته تحت حكم (أبى الفضائل) سعيد الدولة الحمدانى الذى حكم ايضا باسم باسيلوس الثانى عاهل بيزنطة حتى عام ١٠٠١ (٣٩٢هـ) أى حتى بلغ المعرى الثامنة والعشرين من عمره : وفى زمن سعيد الدولة هذا حاولت مصر الفاطمية زمن الخليفة العزيز بالله سلف الحاكم بأمر الله - ان تحرر حلب من سلطان الروم بترتيب مع أبى الحسن المغربى الذى كان من قبل وزيراً لبنى حمدان ثم لجأ الى مصر ولكن تعاون الحمدانية مع بيزنطة حال دون ذلك

وقد رحل المعرى الى بغداد عام ١٠٠٧ (٣٩٨هـ) ، وكان يومئذ فى الرابعة والثلاثين من عمره ثم عاد الى المعرة ١٠٠٩ (٤٠٠هـ) ، فى السادسة والثلاثين الى أن مات عام (١٠٥٧) ونحن نعرف أن لؤلؤ ، وزير سعيد الدولة خلع مولاة الحمدانى من عرش حلب فى هذه الفترة لحساب الفاطميين باتفاق مع الحاكم بأمر الله ، وأعلن اسم الحاكم بأمر الله من منابر حلب . وكانت ثورة لؤلؤ واقامة الحكم الفاطمى فى حلب فى سنة لم يحددها التاريخ ، ولكنها كانت على كل حال تنتمى لهذه الفترة ، أى بين ٩٩٦ (٢٨٦هـ) عام تولى الحاكم بأمر الله و ١٠١١ (٤٠٢هـ) ، وهو عام انتهاء حكم لؤلؤ ، أى بعد عودة المعرى الى الشام بعامين فقط . ولما كنا نعرف أن لؤلؤ نفسه انتقض على الحاكم مستعيناً ببيزنطة فى حكم حلب ، ولما كان المعرى مبغضاً للفاطميين ودعواؤهم . . فالدلائل اذن تشير الى صحة ما اشتبه فيه استاذنا الدكتور طه حسين من أن المعرى رحل الى بغداد لاجئاً سياسياً فراراً من الحكم الفاطمى

والاغلب أنه عاد إلى الشام بعد انتفاض لؤلؤ على الحاكم
بأمر الله ، أي بمجرد زوال سبب لجوئه السياسي بتقلص
نفوذ المصريين في حلب

وفى ١٠١١ (٤٠٢ هـ) أيضا ظهرت المرداسية في أفق
السياسة السورية فدخلوا حلب أولا عام ١٠١١ (٤٠٢ هـ)
باتفاق مع المصريين وفر لؤلؤ إلى الروم ثم حكموا حلب
ابتداء من ١٠٢٣ (٤١٤ هـ) ، وفى عهدهم أنشأ المعرى
« رسالة الغفران » ردا على رسالة ابن القارح ، ونحن نعلم أن
الرسالتين كتبتا في عهد شبل الدولة المرداسي لان اسمه
ورد في رسالة الغفران وقد حكم شبل الدولة في حلب بعد
مقتل أبيه صالح بن مرداس عام ١٠٢٩ (٤٢٠ هـ) ، ولم
يكن المرداسية بأفضل من الحمدانية في ذبذبتهم بين مصر
وبيزنطة . وقد سجل التاريخ أن قائدا من قوادهم ، وهو
حسان بن مفرج ، بعد أن فتحت مصر الشام عام ١٠٢٩
(٤٢٠ هـ) لاستخلاصها من نفوذ بيزنطة ، وكان ذلك في عهد
الخليفة الظاهر الذى تولى بعد الحاكم بأمر الله وهو ذلك
الفتح الذى قتل في معاركه صالح بن مرداس مؤسس
المرداسية ، سجل التاريخ أن حسان بن مفرج هذا فر إلى
بيزنطة ، « فألب الروم ورجع بهم إلى بلاد الشام ، وقد
لبس خلعة قيصرية ، وخفق على رأسه عام فيه صليب » ،
وهو نفس ما فعله (أبو الفضائل) سعيد الدولة الحمداني
حين خلعه لؤلؤ من عرش حلب ونفس ما فعله لؤلؤ حين
خلعه وزيره فتح كاتب الحاكم بالاتفاق مع بنى مرداس فان
لؤلؤا لما انطلق إلى انطاكية وعاش فيها مع الروم اخذ
يسعى ويجد فى الجمع لاختضاع حلب لسلطة القسطنطينية
وحاصر حلب على رأس جيش صليبي عام ١٠٣٠ (٤٢١ هـ)
ولكنهم فشلوا لاختلافهم على الملك وقبض الروم على لؤلؤ
وبعض أشراف الروم لاتهامهم بالتآمر على ملك بيزنطة

صورتان واضحتان نخرج بهما من هذه الالمامة الموجزة
من تاريخ هذه الفترة العصبية وربما أعانتنا الصورتان
على فهم عصره ومعتقداته

اما الصورة الاولى التى استخلصها استاذنا الدكتور طه
حسين من أكثر المؤرخين العرب مثل ياقوت الحموى وابن
الاثير وأبو الفداء والقفطى والصفدى وأبو المحاسن بن تغرى
بردى صاحب « النجوم الزاهرة » ، هى أنه فى أيام (أبى
الفضائل) سعيد الدولة الحمدانى وغيره « قرم الفاطميون
بمصر الى ملك حلب » اى طمعوا فيه ، وان سعيدالدولة
« رأى قوما اغنياء قد مد الله ظلهم وبسط سلطانهم على
رقعة واسعة من الارض فلم يفهم ما فى أيديهم ، بل اقبلوا
عليه ينقصون عليه حياته فى اقليم ضيق قد ورثه عن أبيه
— ان صح ان تورث الأقاليم وهو بعد ذلك لم يشهر عليهم
حربا ، ولم يدبر لهم كيذا ، وهو على خلاف لرأيهم فى الدين
اولئك شيعة غالون وهو شيعة معتدل هواه — مع بنى
العباس . فلم يكن بد ان يستعين بالروم على خصومه ،
معرضا عما بينه وبين الروم من اختلاف فى الدين »

وتصوير الموقف على هذا النحو يظهر آل حمدان ومن
بعدهم آل مرداس ومن حكم الشام فى تلك الفترة العصبية
ممن ثاروا عليهم وعزلوهم فى مظهر الضحايا البريئة لمصر
الفاطمية واطماعها التوسعية ، ولكن يخيّل الى هذه النظرة
نظرة جزئية لا ترى الا مصالح الحمدانية والمرداسية
المباشرة فى المحافظة على سلطانهم وارادتهم المستقلة فى
امارتهم . ولكن النظرة الشاملة لاستراتيجية العصر ، بعد
ان تكشففت نوايا بيزنطة للتوسع الاستعماري باسم
الصليب ، تدل على ان العالم الاسلامى كان بحاجة الى
قاعدة سياسية راسخة وقوة عسكرية ضاربة بهما وحدهما
يمكن صد الاستعمار البيزنطى عن تخومه واسواره .

وقد كانت اداة الحكم في بغداد اداة مهلهلة تنخر فيها عوامل الفناء من الداخل والخارج ، ولم يكن في المنطقة كلها من قاعدة ثابتة ومن قوة ضاربة الا في مصر الفاطمية بل وفي مصر الاخشيديّة من قبلها ومهما قيل عن اطماع العزيز بالله او الحاكم بأمر الله او الظاهر خليفة الحاكم وسائر من عاصروا هذه الفترة وما تلاها من فترات لاتقل عنها خطرا وحروجه ، فقد كان من الطبيعي أن تضطلع مصر الفاطمية بما تيسر لها من قاعدة سياسية مستقرة ومن قوة عسكرية ضاربة بمسئولياتها في الدفاع عن المنطقة كلها ضد الغزو البيزنطي ، وكان لابد لها ان تعتبر ان حلب واللاذقية وشمال سوريا عامة هي خطوط دفاعها الطبيعية ازاء هذا التوسع البيزنطي ، ولا سيما وان الشام شأنها في ذلك الوقت شأن العراق كانت مفككة الى امارات او دويلات متخاصمة متناحرة ، ولم تكن بها حكومة مركزية موحدة تستطيع ان تضطلع بهذه المسؤولية وتتلقى الصدمات الاولى . وقد سجل التاريخ أن سيف الدولة الحمداني كان آخر جندي باسل قاتل الروم بضراوة ومع ذلك فقد عاش سيف الدولة ليرى ملكه يتصدع بمعاول البيزنطيين أمام الملك نسيفور فوكاس ، ولا شك أن مصر الفاطمية بتكتيكها او ان شئت بدسائسها ومؤامراتها كانت تؤلب في الشام الوزير على مولاه والامير على الامير والقائد على القائد وتنتقض على من وثقت فيهم وينتقض عليها من وثقوا فيها ، ولكن الغاية النهائية من كل هذا كانت ضمان سلامة الشام من بطش بيزنطة العسكري

لقد كان امراء حلب من حمدانية ومرداسية ومن خوارج على هؤلاء وهؤلاء أشبه شيء بقطع شطرنج تحركها بيزنطة آنا وتحركها مصر انا اخر تلك من أجل العالم المسيحي وهذه من أجل العالم الاسلامي ولكنها كانت قطع شطرنج

تحاول أن تكون لها إرادة مستقلة من دون أن تكون لها القوة المستقلة التي يمكن أن تحمي هذه الإرادة فتاريخ الشام طوال حياة المعري (٩٦٣ - ١٠٥٧) - أو (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) التي بلغت أربعة وسبعين عاما لا تخرج عن أن تكون سلسلة من المحاولات التي قام بها أمراء ضعاف لتحديد أماراتهم المسلمة وسط هذا الصراع الرهيب الدائم بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي . وقد كانت ذبذبتهم المستمرة بين معسكر بيزنطة ومعسكر مصر من عوامل تعويق الدفاع عن المنطقة ان لم تكن من عوامل تخريبها

ولست بهذا أقصد الدفاع عن مصر الفاطمية دفاعا لا تحفظ فيه ، فهناك وجه آخر للموقف لا تكتمل الصورة الا به . وهذا الوجه قوامه ان الفاطمية مذهبا ودولة جاءت الى العالم الاسلامي بطائفة من المقولات الدينية المطلقة التي تتصل بمذهب الشيعة بسبب قوى ولكنها تبلغ به حد التطرف والغلو ، وتقرب به كثيرا من النظرة المسيحية الكاثوليكية للدين . ليس فقط بسبب دعوتها للمهدي المنتظر وقيام نظامها على الاثمة ، ولكن اولا وقبل كل شيء بسبب الوضع الخاص الذي وضعت فيه الفاطمية فاطمة رضى الله عنها كشيعة للمؤمنين لدخول الجنة ، وهو الوضع الخاص الذي نسبته أوروبا الكاثوليكية ليريم العذراء . ويبدو أن هذه الفكرة عن الفاطميين كانت الفكرة الشائعة عنهم في زمانهم في العالم المسيحي . فنحن نجد في المؤرخ جويوم الصوري (١١٣٠ - ١١٨٣) أسقف مملكة صور وصاحب « تاريخ الامبراطور هرقل » الذي يؤرخ فيه للحروب الصليبية وصفا لمعتقدات العالم الاسلامي المعاصر له يقول فيه « فمنهم من يعتنقون شريعة الفرس ويسمون بلغتهم السنة ، ومنهم من يعتنقون شريعة مصر ويسمون السيهه (يقصد الشيعة) وهؤلاء ليسوا بعيدين جدا عن العقيدة

المسيحية الحقيقية كالآخرين . » (عن النص الفرنسى الوارد فى جروسيه) وأسقف صور حين يتحدث عن شريعة الفرس ويربطها بالسنة انما يقصد الدولة العباسية الثانية فى زمانه وقد كان يحكمها القواد الفرس والديلم ولكن مذهبها الرسمى ظل مذهب السنة رغم تعدد فرق الشيعة فيها . وعند هذا المؤرخ الذى يفضل الشيعة على السنة بحكم ديانته وبحكم اعتقاده بقرب الشيعة منها بالقياس الى السنة ان الخلفاء الفاطميين قد اظهروا تسامحا ملحوظا فى معاملة الاقليات المسيحية التى كانت تعيش فى كنف الدولة الاسلامة ولا يفسر تصرفات الحاكم بأمر الله الشاذة نحوهم الا على أساس أنه نيرون مصرى

ولا يعرف الى اى مدى كان العالم الاسلامى المعاصر للفاطميين يقارب بين العقيدة الفاطمية والعقيدة المسيحية الكاثوليكية على غرار ما فعل جويوم أسقف صور . ولكن بغض النظر عن الوضع الخاص الذى اكتسبته فاطمة رضى الله عنها من حيث كونها شقيقة للمؤمنين عند الله بما قرب وضعها من وضع مريم العذراء فى المسيحية الكاثوليكية ، فان العقيدة الفاطمية باصرارها على أن أسرار الدين لا تعلمها الا الباطنية وهى طبقة او فئة محدودة من الائمة والدعاة والاصفياء لهم علم الباطن ، وباصرارها على ان العامة او سواد الناس ليس لهم الا الايمان المطلق بظاهر الدين وبما يلقي اليهم من هذه الطبقة العارفة ، يبدو أنها قد ادخلت فى الاسلام شيئا قريبا من الكهنوت الكاثوليكي الذى يقفل باب الاجتهاد والتفكير أمام الناس ويقصر المعرفة بأسرار الدين على أولى الامر

هذه الدعوة الفاطمية الكهنوتية كانت معادية للعلم وللعقلانية بل وللاجتهاد فى أبسط معانيه وكانت معادية على خط مستقيم لاهم التقاليد الفكرية التى أرساها المثقفون فى

العالم الاسلامى منذ عهد الازدهار الفكرى والتواصل
الثقافى أى منذ عهد المأمون (٧٨٦ - ٤٣٣) أى خلال المائتى
سنة السابقتين على انشاء «رسالة الغفران» (١٠٣٢) اذ
ينبغى الا ننسى ان المعرى كان معاصرا لابن سينا (٩٨٠ -
١٠٣٧) وللبيرونى (٩٤٠ - ١٠٢٠) ولمحمد بن حزم
(٩٩٤ - ١٠٦٤) ولابى حيان التوحيدي الذى توفى بعد
١٠٠٩ وان المعرى ولد فى الجيل التالى بعد موت الفارابى
(٨٧٠ - ٩٥٠) والطبيب الرازى الذى توفى فى ٩٣٠ وكان
قريب العهد جدا من المؤرخ المسعودى الذى توفى ٩٥٦
ومن عالمى الجغرافيا الاصطخرى (٩٥١) وابن حوقل (٩٧٧)
ومن الآثار الذى ترجمها اسحق بن حنين المتوفى فى ٩١٠
كما كانت بين يديه مترجمات حنين بن اسحق (٨٠٩ -
٨٧٣) وبترجمات قسطنطين لوقا المتوفى فى ٨٣٥ وكانت
بين يديه مؤلفات الكندى المتوفى فى ٨٧٣ فضلا عن شيع
المتصوفة الحلوليين من أمثال الحلّاج (٨٥٨-٩٢٢) وابن
الراوندى وغير هؤلاء طائفة عظيمة من الاعلام والمؤلفات
والمترجمات فى علوم الفلسفة والفلك والتاريخ والجغرافيا
والرياضة والبلاغة الخ . كانت المكتبة العربية قد زخرت
فى عصر الترجمة الكبير أى فى القرنين السابقين على المعرى
بعيون التراث اليونانى والفارسى ونتيجة لتفتح الثقافة
العربية للثقافتين اليونانية والفارسية ظهرت فى العالم
الاسلامى تيارات فكرية متضاربة بعضها عقلانى وبعضها
روحانى ولكنها رغم تضاربها كانت تمثل حالة ازدهار ثقافى
عظيم كان يمكن أن يجدد شباب العرب والاسلام قبل تجدد
شباب أوروبا المسيحية بنحو خمسة قرون لولا ظهور الترك
والتتار فى الأفق

فالعالم الاسلامى اذن بعد تفكك دولته العباسية الجامعة
اضمحل عسكريا ولكنه حاول أن يجدد شبابه بالعلم والفكر

والثقافة فحلت محل الدولة الجامعة ذات القوى العسكرية الضاربة دويلات ربما لم يكن لها شوكة من بأس السلاح ولكنها كانت مراكز اشعاع ثقافى عقلى وروحى وحلت محل الدولة الجامعة « الدولة المدينة » على غرار ما كان شائعا فى اليونان القديمة وأصبحت بغداد والبصرة والكوفة وحلب وانطاكية الخ اشبه شىء بأثينا وكورينث وطيبة وسيراكيوز الخ فى عالم اليونان وكان مجد هذه البلاد من ازدهارها الثقافى قبل أن يكون من مجدها العسكرى وكانت حلب وانطاكية بالذات مركزين من مراكز الاشعاع الثقافى بحكم اتصالهما المباشر بالحضارة الهلينية التى ذبلت ايما ذبول أيام بيزنطة فى بلاد اليونان الاصلية بسبب تدفق الجحافل السلافية عليها من الشمال ، وانتقل الى اليونان الآسيوية أى الى الاناضول المتاخمة للشام المؤثرة فيها والمتأثرة بها وهذا ما جعل لحلب وانطاكية فى عصر المعرى مركزا خاصا لانهما كانتا نقطتى التقاء الحضارتين العربية والهلينية بمثل ما كانت مدن العراق فى المقام الاول نقط التقاء الحاضرتين العربية والفارسية

هذا اذن هو المآزق الذى دخل فيه العالم الاسلامى فى المشرق فى زمن المعرى وما قبله بقليل وما بعده بقليل أيام الحروب الصليبية البيزنطية فى القرنين العاشر والحادى عشر . كان عليه ان يختار بين حضارة مدن مثقفة تحترم العلم والفكر والعقل وتضطرب بالرياضة الروحانية او العقلانية مثل حلب وانطاكية والبصرة وبغداد ، ولكنها ضعيفة ومفككة لا تملك القوة الكافية للدفاع عن نفسها امام الغزاة ، ومن باب أولى لا تملك القوة الكافية للدفاع عن العالم الاسلامى كله ، وبين حضارة الفاطميين التى كانت تملك القوة الكافية لرد خطر بيزنطة والصليبيين ولكنها رغم قوتها كانت معادية للثقافة والفكر والتراث العقلى الانسانى

والتواصل الحضارى بين الشعوب بغض النظر عن علاقاتها
السياسية . وفى اعتقادى أن المعرى والمثقفين العرب فى
زمانه من أمثال أبى الفرج الزهرجى وعامة من تعلقوا
ببلاط الحمدانية ومن شاكلهم من مهادنى بيزنطة خرجوا
من هذا المازق باختيار الثقافة على حساب القوة والاستقلال
السياسى فقدموا الجزئى على الكلى وقدموا العقل على الحياة

كلمة عن ابن القارح

قبل ان انتقل الى « رسالة الغفران » للمعري « ٩٧٣ - ١٠٥٧ » أو « ٣٦٣ - ٤٤٩ هـ » ينبغي أن أثبت هنا ديني الثقيل لاستاذنا الجليل الدكتور طه حسين ، مد الله في اجله ، فقد كان مفتاحي الاول الى ادب المعري في حدائتي وفي شبابي وفي كهولتي بفضل رسائله العديدة عن ابي العلاء وللزميلة الكريمة الدكتورة بنت الشاطي . استاذة الادب العربي بجامعة عين شمس لتحقيقها « رسالة الغفران » في افضل نص ظهر الى اليوم ولما انفقت من جهد في دراسته وتحليله . وكذلك ينبغي ان اثبت ديني الثقيل لصديقي الدكتور عبد العزيز الاهواني ، استاذ الادب الاندلسي بجامعة القاهرة ، فقد وضع بين يدي نصوصا من مكتبته الخاصة بعضها اسباني وبعضها لاتيني لم يكن يسيرا حصولي عليها ، كما تفضل وأعارني ترجمته لبعض المخطوطات الاوربية لقصة المعراج . ولست انسى فيمن ادين لهم صديقي الشاعر صلاح عبد الصبور الذي شغف بالمعري شغفا شديدا فانتفعت بشغفه هذا وبما القاه الى من اراء ..

و « رسالة الغفران » التي انشاها المعري نحو عام

١٠٣٢ هـ ، ٤٢٤ هـ ، فيما يظن استنادا على بعض دلائل في النص ذاته وهو يومئذ في نحو التاسعة والخمسين من عمره ، او على الاصح املاها هذا الشيخ الضرير المعمر الذي مات عن اربع وثمانين سنة املاء على سكرتيه او على تلامذته ومريديه وهو معتكف في معرة النعمان ، قد اجمعت اراء العلماء على انها كانت بمثابة رد على خطاب بعث اليه على ابن القارح الذي ولد عام ٩٦٢ هـ ، ٣٥١ هـ ، ولا يعرف متى توفي ولكنه عمر على الاقل نيفا وسبعين عاما بحسب ما روى هو عن نفسه ، اى امتد به الاجل الى ما بعد ١٠٣٢ هـ ، ٤٢٤ هـ ، على اقل تقدير .

ومن المهم ان نذكر انه في نحو الوقت الذي انشئت فيه « رسالة الغفران » في المشرق العربي انشئت في المغرب العربي ، وفي قرطبة بالاندلس على وجه التحديد ، رسالة مشابهة هي « رسالة التوابع والزوابع » لابن شهيد الاندلسي « ٩٩٢ - ١٠٣٤ هـ ، او « ٣٨٢ - ٤٢٦ هـ ، الذي كان معاصرا لابن العلاء المعري ، ولا يعلم احد حتى الان تاريخ انشاء هذه الرسالة ان كان سابقا « لرسالة الغفران » ام لاحقا لها ام موازيا لها ، وهل بينهما صلة التاثر والتاثير التي تقوم عادة بين الآثار الادبية ام ان ما بينهما من تشابه هو من محض المصادفة رغم انه من المعروف انه كان للمعري الذائع الصيت في المشرق رواة وحفظة اذاعوا صيته في المغرب ايضا ابان حياته . فقال زكى مبارك في « النثر الفني في القرن الرابع » ان ابن شهيد كتب « التوابع والزوابع » عشرين سنة قبل ان ألف المعري « رسالة الغفران » وقال احمد ضيف في « بلاغة العرب في الاندلس » ان ابن شهيد هو الذي قلد المعري . ورسالة ابن شهيد « التوابع والزوابع » التي يظن انها انشئت عام ١٠٠٩ هـ ، ٤٠٠ هـ ، لم تصلنا كاملة وانما

وصلت إلينا منها فصول عن طريق ابى الحسن بن بسام المتوفى عام ١١٤٧ « ٥٤٣ هـ » فى كتابه « الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة » اى اكثر من مائة عام بعد تدوين « رسالة الغفران » و « رسالة التوابع والزوابع » وقالت الدكتورة بنت الشاطىء انهما عملاقان مستقلان ..

ورسالة ابن شهيد عبارة عن رسالة موجهة الى ابى بكر ابن حزم يصف فيها ابن شهيد رحلة خيالية له مع أحد الجن فيلتقى بفارس من الجن اسمه زهير بن نمير يعينه على قول الشعر ثم يحمله على جواده الادهم طائرا به فى الجو حتى يبلغ به وادى الجن حيث يلتقى بطائفة منهم هم أصحاب من أحبهم من الشعراء أو ملهموهم كما تقول نحن وهناك يستمع الى ما انشدوا من شعر هؤلاء الشعراء ولكنه يتفوق عليهم بشعره . وتتعدد رحلات ابن شهيد فى مجالس الجن يحاورهم وينظرهم فيفوز عليهم ، اما ان الهيكل العام متشابه بين « رسالة الغفران » و « رسالة التوابع والزوابع » فهذا ما يبدو واضحا بدرجة كافية رغم احتجاجات الدكتورة بنت الشاطىء التى عالجت كل الاحتمالات لاستبعاد هذا التأثير والتأثير بحق فيما ارى ، ولكنها اغفلت الاحتمال الوحيد الاخير الذى ربما فسر لنا مثل هذا التواتر ، وهو ان يكون لرسالة المعرى ولرسالة ابن شهيد مصدر واحد او مصدر مشترك أقدم منهما معا

كانت « رسالة الغفران » اذن بمثابة رد على رسالة ابن القارح . والسبب الرسمى لانشاء « رسالة الغفران » هو ان ابن القارح سئم أن المعرى قد استنكر فيه هجاء لابي القاسم المغربى ، وهو أحد ساسة العصر من ذوى السلطان فى دولة الفاطميين بمصر بعد أن كان اميدا طويلا من خلصائه ومن المتفهمين بحبائه . وقد خشى ابن القارح -

هكذا يقول - ان يظن به المعري خسة الطبع وقلة الوفاء لمن أنعم عليه فأراد أن يبرر موقفه ويبري نفسه . .
 والواضح من خطاب ابن القارح ان المعري لم يكن يعرفه الا بالسماع . أو بلمحة ابن القارح : « بلغني عن مولاي الشيخ - أدام الله تأييده ، انه قال وقد ذكرت له : أعرفه خبرا ، هو الذي هجا أبا القاسم علي بن الحسين المغربي .
 فذلك منه - أدام الله عزه - رائع لي ، خوفا أن يستشر طبعي ، وأن يتصورني بصورة من يضع الكفر موضع الشكر . » وابن القارح يقول في مجال دفع هذه التهمة عن نفسه : « وكيف أشكو من قاتني وعالني نيفا وسبعين سنة ؟ » فهو يعترف بفضل أبي القاسم المغربي عليه ويستبشع أن يشاع عنه أنه تنكر له وهجاه

هذا هو السبب الرسمي الذي اتفق كل من كتب عن « رسالة الغفران » على أنها جاءت ردا عليه . وهو سبب في اعتقادي سخي لا يبرر أن يؤلف المعري رسالة فلسفية للرد عليه ، فلا بد إذن من البحث عن سبب آخر يكون أكثر وجاهة من هذا السبب التافه : اما بدراسة جديدة لخطاب ابن القارح ذاته تكشف فيه عن معان دينية وفلسفية خبيثة أوحى بها إحياء ففهمها المعري ورد عليها في « رسالة الغفران » وكأنه مطالب بذلك من مثقفي عصره ومن ساسته في آن واحد . والعجيب الذي لم يتوقف أمامه أحد توقفا كافيا هو وقوف ابن القارح أمام المعري موقف المسئول أمام سائله والمدافع عن نفسه أمام شيخ ضريح منزو في معرة النعمان لا يملك حولا ولا قوة ، كل ذلك رغم أنعدام الصلة بين الرجلين ، وكأنما المعري وكيل أعمال أبي القاسم المغربي وكأنما ابن القارح كان يخشى بطش أبي القاسم المغربي وأبي العلاء المعري معا . ولست أعتقد أنه يمكن لنا أن نكتفي بقول استاذنا طه حسين في « تجديد ذكرى أبي

العلاء ، لتفسير هذا الامر : « ولسنا نشك في أن عليا أبا منصور بن القارح الذي كتبت اليه هذه الرسالة ، قد كان شديد الزندقة أو شديد الغفلة . فان أبا العلاء لا يكتب بهذه الرسالة الا وهو واثق منه بإحدى الخصلتين . » لان المعري نفسه كان شائعا عنه في زمانه أنه امام من أئمة الزنادقة ، ولان ابن القارح لو كان على كل هذه الدرجة من الغفلة لما عنى المعري بأن ينشئ رسالته العظيمة المليئة بخبيىء المعانى ردا عليه . فلا بد اذن من البحث عن سبب آخر أو أسباب أخرى دفعت بالمعري الى انشاء « رسالة الغفران » وهو في قمة نضجه الادبى والفلسفى وكأنها بمثابة اعلان موقف وسط ذلك البحر المتلاطم من العقائد الدينية والفكرية ومن المؤامرات السياسية التى سادت عصره فمرت على بلده كالاغصير المقتلعة يتقاذفه الفاطميون فى مصر والروم فى الشمال وبنو بويه فى العراق ، هذا عدا بنى حمدان وبنى مرداس فى الشام ذاتها . والمعروف عن المعري أنه لم يكن على الاقل فى صدر حياته يعيش فى برج عاجى معزولا عن قضايا عصره الدينية والسياسية . وقد سجل عليه طه حسين بغضه الشديد للشيعة ولا سيما لفرقها الباطنية ، وأوحى بأنه حين لجأ الى بغداد من ١٠٠٧ الى ١٠٠٩ (٣٩٨ - ٤٠٠ هـ) فعل ذلك لا طلبا للعلم والسياسة كما تقول كتب القدماء وانما بوصفه لاجئا سياسيا مناهضا للحكم المصرى الفاطمى فى المعرة حيث كانت الاسماعيلية الباطنية هى عقيدة العبيدين الرسمية .

وربما كان أقرب الى الصواب أن نقول ان المعري كان لا يبغض الشيعة جملة وتفصيلا ، ولكن كان يبغض الفاطمية على وجه التحديد لغلوهم فى الباطنية ولعزلهم الدين عن العلم والعقل والاجتهاد . وقد كان بنو حمدان أنفسهم ، الذين ارتبط بهم المعري ببعض الوشائج ، من الشيعة

المعتدلة أو من العلويين المعتدلين . وللمعري في علي
والحسين أبيات جميلة في « سقط الزند » كقوله في
قصيدته الرابعة عشرة التي يجيب بها الشريف أبا إبراهيم
العلوي وهي منظومة قبل رحلة المعري الى بغداد :

وعلى الدهر من دماء الشهيد

دين علي ونجله شاهدان

فهما في أواخر الليل فجران

ن وفي أولياته شفقان

ثبتا في قميصه ليحج

ي الحشر مستعديا الى الرحمن

يا ابن مستعرض الصفوف

ببدر ومبيد الجموع في غطفان

أحد الخمسة الذين هم الاغرا

ض في كل منطق والمعاني

والشخص التي خلقن ضياء

قبل خلق المريخ والميزان

قبل أن تخلق السموات أو

تؤمر أفلاكهن بالدوران

والخمسة الذين وضعهم المعري في موضع النور السابق

للخليقة هم محمد وعلي والحسن والحسين وفاطمة .

وللمعري في « سقط الزند » قصائد أخرى في أبي إبراهيم

العلوي كالقصيدة ٣٣ والقصيدة ٤٢ التي يرثيه بها ولهذا

ربما كان أقرب الى الدقة أن نقول أن بغض المعري الاول

كان للفاطمية ولتحركات مصر الفاطمية في ربوع الشام

كذلك يذكر عنه أن صالح بن مرداس حين حاصر معرة

النعمان بلد المعري عام ١٠٢٦ (٤١٧ هـ) لم يجد أهلها

إلا هذا الكهل الضريع يتشفعون به الى الغازي ليفرج عن

أسراهم وليعفو عن بلدتهم فقبل شفاعته ، وقد كان المعري

يومئذ في الثالثة والخمسين من عمره . وكل هذا وأكثر منه يوحي بأن المعري لم يكن يعيش بمنأى عن الحياة السياسية ولا عن التيارات العقائدية في عصره . أما كيف استطاع المعري رغم جراته في القول شعرا ونثرا أن يحتفظ بحريته بل وبرأسه وسط هذا اللج المتلاطم من الأسلحة والعقائد حول حلب ومعرة النعمان فلا سبيل لمعرفته الا بعد دراسة ارتباطاته السياسية والفكرية وموقفه من ميزان القوى في منطقته

فماذا قال ابن القارح في رسالته وماذا قال المعري في رسالته ؟ ..

أما ابن القارح فقد بدأ رسالته بتقرير إيمانه بأن العالم حادث وليس قديما كما كان يقول دهرियो ذلك الزمان ، يفهم هذا من قوله في مطلع رسالته : « والحمد لله المبتدى بالنعم ، المنفرد بالقدم ، الذي جل عن شبه المخلوقين وصفات المحدثين »

وكانى بابن القارح يريد أن يغمز المعري من أول عبارة في رسالته ويشير ضمنا الى أبيات المعري المشهورة في هذا الصدد . ثم هو بعد ذلك يطرى المعري أطراء عظيمة ويعبر عن شوقه لرؤيته وحنينه للقياء في عبارات بولغ في تدبيجها بحيث تدفعنا دفعا الى الاشتباه في أنها تحمل تهكما خفيا بالمعري ، لأنها تقول ان هذا الحنين أقوى من حنين الام لرؤية ولدها لان هذا اللون من الحنين « مما تغيره الايام والليالي » أما حنين ابن القارح لرؤية المعري فهو أعمق وأرسخ : « لكنه حنين الظمان الى الماء والخائف الى الامن والسليم (أى الملدوغ) الى السلامة ، والغريق الى النجاة والقلق الى السكون ، بل حنين نفسه النفيسة الى الحمد والمجد ، فاني رأيت نزاعها اليهما نزاع الاستقصات الى عناصرها والاركان الى جواهرها » . وكانى بابن القارح

اذ يزعم أنه يطلب الامن والسلامة والنجاة والسكون عند المعري انما يقصد انه بما نسب اليه من شطط في العقيدة وزين في الايمان انما يصيب من يلجأ اليه باضداد هذه الاشياء . وهو يتهم بالمعري ثانية حين يستخدم في خطابه لغة الفلاسفة والمتفلسفين التي كانت شائعة يومئذ بين المثقفين العرب كالاستقصات والعناصر والاركان والجواهر ، بل يكاد تعريضه الخفى بالمعري أن يتهمه اتهاما مكشوفاً بالشهوة الى الشهرة شهوة لا تقاوم كشهوة عناصر الطبيعة الى جواهرها فاذا نحن فهمنا كلام ابن القارح على هذا الوجه لم يكن هناك مناص من أن نعد رسالته الى المعري ذمما بما يشبه المدح وكلاما ظاهره معسول وباطنه مسموم

أنظر اليه وهو يحدث المعري عن رحلته الى حلب التي كان يأمل أن يجدها خيرا فاذا هو يصاب فيها «بالدرخين وام حبوكرى والفكرين ، بل رميت بأبدة الابداد والداهية الناد ، باختصار منى فيها بكل الدواهي فما هذه الكلمات العربية كلها الا مترادفات تعنى الدواهي . وكان يرجو من حلب نفعا ، فحصلت من الريح على الرياح ، أى خرج منها بقبض الريح وكانت أول خيبة أمل منى بها ابن القارح هي ضياع رسالة كان قد حمله اياها الى المعري أبو الفرج الزهرجى كاتب نصر الدولة والى ميفارقين وديار بكر الفى حكم زهاء خمسين سنة من ١٠١٠ الى ١٠٦١ (٤٠١ - ٤٥٣ هـ) وكان صديقا للدبا والشعراء ، وهو فيما يبدو كان صديقا للمعري . وهنا يغمر ابن القارح المعري غمرة قوية اذ يقول : « لقيت أبا الفرج الزهرجى بآمد ومعه خزانة كتبه فعرضها على فقلت : كتبك هذه يهودية ، قد برئت من الشريعة الحنيفية . فظهر من ذلك أعظاما وانكارا ، . وكانى بابن القارح يريد أن

يقول للمعري : صديقك هذا الزهرجى الذى تحجون اليه دخلت مكتبته فوجدتها ملى بالاسرائ依ليات ، أى بالتفسير الدينية المدسوسة على الدين وما شاكلها من كتب موضوعة أو مترجمة نشط اليهود منذ العصر العباسى الى انشائها لبيلة الدين الاسلامى على المسلمين

ثم ماذا بعد هذا ؟ نجد ابن القارح يتجود على المعري بكتالوج طويل من الزنادقة والملحدين ويروى عليه قصصهم بادنا بالمتنبى الذى كان اثرا عند المعري الى حد أن المعري لقي عننا عظيما من الحكماء لاجابه به ، فابن القارح أنا يذكر المعري بما كان من ادعاء المتنبى النبوة وكيف سجن وجلد بسبب ذلك فى بغداد فى عهد الوزير ابن الجراح . وهو أنا يهاجم شعر المتنبى لان الصور الشعرية التى يستخدمها منافية للدين ، أو بلغة ابن القارح : « ولا يجب أن يشكو عاقلا ناطقا الى غير عاقل ولا ناطق ، اذ الزمان حركات الفلك الا أن يكون ممن يعتقد أن الافلاك تعقل وتعلم وتفهم ، وتدرى بمواقع أفعالها بقصود و ارادات ، ويحمله هذا الاعتقاد على أن يقرب لها القرايين ويدخن الدخن ، فيكون مناقضا لقوله :
فتبا لدين عبيد النجو

م ومن يدعى انها تعقل

وابن القارح فى هذا لا يشير الى الصابئة من عبدة النجوم بقدر ما يشير الى الافلاطونية الحديثة وما خرج عنها من مدارس انتقلت الى المتفلسفين العرب عن طريق حركة الترجمة المشهورة فى العصر العباسى . وابن القارح لا يظعن فى ميله الى الزنادقة أو كما يقول « وهذا غير قاذح فى طلاوة شعره وروثى ديباجته ولكنى أغتاض على الزنادقة والملحدين الذين يتلاعبون بالدين ويرمون ادخال الشبه والشكوك على المسلمين ، ويستعذبون القدح فى نبوة

النبيين صلوات الله عليهم أجمعين .

فإذا ما فرغ ابن القارح من المتنبي انتقل الى بشار بن
برد وروى كيف أن المهدي الخليفة العباسي أعدمه بسبب
الزندقة ثم أعد صالح بن عبد القدوس وكيف حطم المهدي
فتنة رجل ادعى الألوهية في بخارى ودمر دياره وذيّار قومه
وأعدمهم جميعا بالسّم . ثم يروى قصة مثاله آخر في
التيمن اسمه الصناديقي لقي مصرعه كذلك بمضغ مسموم .
وبعد الصناديقي يعرج ابن القارح على الوليد بن يزيد
الأموي الذي أقام في الملك سنة وشهرين وأياما ، وكان
زنديقا عظيما وسكيرا مزوعا ثم يتحدث ابن القارح عن أبي
عيسى بن الرشيد الذي كان يدعو ضد الصوم في شعره
فصرعه الله . ثم ينتقل الى الجنابي الذي كان يفتك بالوف
الحجاج ثم ينتقل الى الحلاج ومذهبه في الحلول
ويصوره في صورة الجاهل الدجال مثير القلاقل
والانقلابات مدعى الألوهية ويروى عنه نوادر أشبه بنوادر
الحوّة ويصف مصرعه عام ٩٢١ (٣٠٩ هـ) ومثله
الشلمغاني شبيه الحلاج مدعى الألوهية والحلول ، «وكان
يتعاطى الكيمياء» ، ومعهما يذكر ابن الراوندي ، ومادعا
اليه من قدم العالم وغير ذلك من أقوال الزندقة « لان علمه
كان اكثر من عقله » . ثم يحكى حكاية ابو عثمان الناجم
الذي شط عن الدين لانه اراد الانتحار ثم ندم وتاب ثم
يروى كيف ان ابا تمام ترك الصلاة ثم يعرج على بعض
عتاة الفجار مثل المازيار وبابك ، ثم يمجّد جهاد المسلمين
أيام الرسول ثم يعرج على ذم الدنيا وينتقل من ذلك الى ذم
الخمر ثم يتحدث ويذكر اسماء كبار العصاة من فاذوه
الى فزعون . واخيرا يستقر ابن القارح على ذكر حكايته
الاخيرة وهي قصته مع الوزير الاديب ، والسياسي الداعية

أبي القاسم المغربي صاحب المعرى فيشرح ابن القسارح
للمعري أسباب انتقاضه عليه .

يقول ابن القسارح أنه درس على ابن خالويه وعلى أبي
الحسن المغربي (وهو والد أبي القاسم) فلما مات ابن
خالويه سافر الى بغداد ليدرس على أبي علي الفارسي
والسيرافي والرماني والمرزباني والكتاني وتعلم علم الحديث .
ثم سافر الى مصر وحذب عليه أبو الحسن حذبا شديدا
وكان ابنه أبو القاسم المغربي رجلا مغامرا شديدا الطموح
ينبغي دائما للرياسة ويشغل بدسائس السياسة . وخشي
الأب على نفسه من تدبيرات ابنه فاستخدم ابن القارح
ليتجسس عليه . أو بلغه ابن القارح : « فقال لي : اني
أخاف همة أبي القاسم أن تنزوي به الى أن يوردنا وردا
لاصدر عنه ، وان كانت الانفاس مما تحفظ وتكتب
فاكتبها واحفظها وطالعني بها . » وكان أبو القاسم المغربي
يشق في ابن القارح فأطلعه على اطماعه قائلا : « اريد ان
تصار الى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقانب ولا أرضى بأن
يجري علينا كالولدان والنسوان ! » ونقل ابن القارح أفكار
الابن الى أبيه فلما علم أبو القاسم المغربي بذلك حدثت
بينه وبين ابن القارح قطيعة .

ورأى ابن القارح الحاكم بأمر الله شرها الى الدماء
يعمل التقتيل في خصومه ، او فيمن يتوهم انهم خصومه ،
وكان « كلما قتل رئيسا انفذ رأسه اليه وقال : هذا
عدوى وعدوك يا حسين » . والمخاطب هنا هو الحسين
ابن جوهر الصقلي قائد قواد مصر تحت الدولة الفاطمية
وكان على صلة طيبة بابن القارح . وخاف ابن القارح
على نفسه فتظاهر بالرغبة في الحج ليخرج من مصر ،
واستأذن في الحج وسافر الى مكة عام ١٠٠٦ (٣٩٧هـ)
واختفى خمس سنوات ثم عاد الى مصر فوجد أن الحاكم

بأمر الله قد قتل قائد جيشه الحسين بن جوهر الصقلي
وقتل معه قاضي القضاة عام ١٠١٠ (٤٠١هـ) فهرب من
مصر الى الشام ، أولا الى طرابلس ثم الى أنطاكية ثم الى
ملطية حيث أقام في بلاط « المايسطرية » خولة بنت سعد
الدولة ، وهى حفيدة سيف الدولة الحمداني حتى قتل
الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢٠ (٤١١هـ) فلحق بأبى القاسم
المغربى فى ميفارقين بناء على طلب الوزير ، وكان حانقا
عليه يريد الفتك به ولكنه لا يستطيع . فنحن نعلم ان
الوزير ابا القاسم المغربى نفسه كان فى محنة وكان لاجئا
سياسيا فى ميفارتين بعد ان قتل الحاكم بأمر الله اياه
أبا الحسن المغربى ففر ولده ابو القاسم المغربى من مصر
الى الشام واخذ يؤلب الناس على الحاكم بأمر الله . وهنا
يرسم ابن القارح للمعري صورة شخصية لأبى القاسم
المغربى غاية فى السوء فيتهمه بأنه مجنون وبأنه حقود
وبأنه ملول وبأنه عات وبأنه متفطرس ويضيف الى هذا
كله تهمة الكفر : « وبغضى له - شهد الله - حيا وميتا
اوجبه أخذه محاريب الكعبة ، الذهب والفضة وضربها
دنائير ودراهم وسماها الكعبية » . وأخيرا يختم ابن القارح
رسالته بالاعتذار عن شبابه الطائش فى القاهرة وبشكوى
شيخوخته فقد جاوز السبعين التى أوهنته جسدا وعقلا ،
واقترب من القبر فغدا لا يفكر الا فى الآخرة ويخشى عذاب
النار متمثلا بقول الزاهد أبى بكر الشبلى : « انما فكرى فى
ان الحيوان كله لا يدخل النار الا بعد الموت ، ونحن ندخلها
أحياء . » وهو لهذا يستغفر ربه عما تقدم من ذنوبه
ويعتذر عن الكتابة التى حلت عليه بعد أن فرغ من كتابة
رسالته فيقول « ما فرغت من السوداء حتى ثارت بى
السوداء » .

هذه خلاصة رسالة ابن القارح الى المعري ومنها ترى
 انه لم يكن كما ذهب استاذنا الدكتور طه حسين في أولى
 رسائله عن ابي العلاء ، مغفلا من طراز عظيم بل كان رجلا
 شديد الذكاء قوى البنيان والاغلب انه لم يكن يظن من
 لؤم اللثام . وهو باعترافه كان يتجسس على صديقه
 الوزير المغربي لحساب ابيه ابي الحسن المغربي
 ولعل من النافع ان نذكر ان ابا الحسن المغربي نفسه لم
 يكن يختلف كثيرا عن ولده ابي القاسم في المغامرة وجبك
 المؤامرات . فقد بدأ ابو الحسن المغربي حياته صدرا
 في بلاط سيف الدولة الحمداني الذي جعل من حلب
 حاضرة هامة من حواضر العالم الاسلامي وكعبة للعلوم
 والآداب وكان شديد البأس في قتال الروم حتى مات عام
 ٩٦٦ (٣٥٦ هـ) فلما خلفه ابنه سعد الدولة اقام ابو الحسن
 المغربي أيضا في بلاطه حتى مات عام ٩٩١ (٣٨١ هـ) .
 وكان عهده عهد حروب أهلية . فلما خلفه ابنه أبو
 الفضائل سعيد الدولة رحل أبو الحسن المغربي الى مصر
 وأقام في بلاط العزيز الخليفة الفاطمي ،
 وهو أبو الحاكم بأمر الله ، وحرص العزيز على غزو دولة
 حلب والاستيلاء عليها فاستنجد أبو الفضائل سعيد الدولة
 بالروم وظلت الحرب سجالا ينتصر فيها المصريون مرة
 وينتصر الروم مرة ويقيمون دولة أبي الفضائل سعيد
 الدولة الحمداني في حلب حتى مات الخليفة العزيز عام
 ٩٩٦ (٣٨٦ هـ) ، وخلفه الحاكم بأمر الله وفي عهده وباتفاقه
 عزل لؤلؤ غلام أبي الفضائل سيده وحكمت مصر دولة
 حلب من خلاله وأعلن اسم الحاكم من متابرها ، وظل لؤلؤ
 يحكم حلب حتى عام ١٠١١ (٤٢٠ هـ) وهذه هي الفترة
 التي هاجر فيها المعري الى بغداد ربما فرارا من سلطان
 الفاطميين . أما لؤلؤ فقد انتقض في أواخر حكمه على

الحاكم بأمر الله واستعان بالروم على المصريين أما دولة
بنى حمدان فقد قضت عليها نهائيا دسائس الحاكم بأمر
الله ثم دسائس اخته ست الملك من بعده .. وأما لؤلؤ
فقد فر ليحتمى بالروم

وفي ١٠٢٣ (٤١٤هـ) دخل صالح بن مرداس حلب
وأقام فيها الدولة المرداسية وحكمها حتى ١٠٢٩ (٤٢٠هـ)
وهو عام قتله في معركة مع الجيش المصرى فى عهد الظاهر
خليفة الحاكم بأمر الله وخلفه فى حكم حلب ابنه شبل
الدولة واستعان لؤلؤ للمرة الثانية بالروم على المصريين
عام ١٠٣٠ (٤٢١هـ) ، وكذلك استعان بهم حسان قائد
بنى مرداس على المصريين عام ١٠٣٠ (٤٢٢هـ) ودخل
حلب من جيش الروم الذى وطد لحكم شبل الدولة

هذا هو الجو السياسى المعقد الذى عاش فيه المعرى
حتى اعتكف فى معرة النعمان حول ١٠١٠ (٤٠١هـ) ومنذ
ان اعتكف فيها حتى مات عام ١٠٥٧ (٤٤٩هـ) فحلب وهى
على بعد أميال قليلة من المعرة يتبادلها أولا الحمدانيون -
تظاهروهم عسكر الروم - والفاطميون ثم يتبادلها ثانيا
المرداسيون - تظاهروهم عسكر الروم - والفاطميون . ولم
تكن انطاكية احسن حالا فقد ظلت مائة وعشرين سنة
كاملة فى يد الروم من ٩٦٤ (٣٥٣هـ) الى ١٠٨٤ (٤٧٧هـ)،
ولد وهى لهم ومات وهى لهم وتعلم بها وهو صبى وهى
لهم فقد كان يختلف الى مكتبتها مع ابن منقذ فيمسا
روت كتب القدماء وكانت فيها يومئذ حضارة زاهرة حسب
ماروى ياقوت الحموى . وقد كان حكم اللاذقية حكم
انطاكية . كانت فى يد الروم فى زمن المعرى ، وقد تعلم
المعرى فى اللاذقية كما تعلم فى انطاكية
ففيما روى القفطى والذهبي انه نزل بدير فيها « ولقى
بهذا الدير راهبا قد درس الفلسفة وعلوم الاوائل » بلفة

طه حسين او باختصار اخذ عنه اليونانيات فما علوم
 الاوائل هذه التي كانت تقرأ في الاديرة تحت حكم الروم
 الا آداب اليونان وفلسفتهم في لغتها الاصلية . والحق انه
 لا يعرف شيء عن تعليمه الرسمي حتى سن العشرين وهي
 سن التكوين الا انه تعلم في حلب ثم في انطاكية ثم في اللاذقية
 ثم في طرابلس . ومثل هذا الغموض الذي احاط
 بتكوينه العقلي حتى سن العشرين يحيط ايضا
 بحياته كلها فيها بين العشرين والخامسة والثلاثين حين
 تجده يقيم في المعرة - خمس عشرة سنة - بين ٩٩٣
 (٣٨٣هـ) و ١٠٠٧ (٣٩٨هـ) وبها عاش تحت الحمدانية
 والفاطمية والمرداسية والروم . حتى سافر او لجأ الى
 بغداد فترة سنتين ١٠٠٧ و ١٠٠٩ . حيث تعلم انه كان يحضر
 مجامع الشريف الرضي والاسفر ايبني وابي القاسم
 التوحي القاضي وغيرهم او يحضر محاضراتهم كما تقول
 نحن اليوم

فان كانت لرحلة المعري الى بغداد صلة بفترة لؤلؤ
 على ابي الفضائل سعيد الدولة الحمداني لحساب
 الفاطميين و اعلان اسم الحبيباكم بأمر الله من منابر
 حلب ، فان هذا يلقي ضوءا على موقفه من الحكم الفاطمي
 ويفسر ما يقال عنه من بغضه للفاطمية ومختلف أنواع
 الباطنية . فاذا ركرنا على الفترة التي انشئت فيها
 « رسالة الغفران » وهي نحو ١٠٣٢ (٤٢٤هـ) ، فلماذا
 نجد ؟ نجد ان موضوع رسالة ابن القاسم وهو الوزير
 ابو القاسم المغربي كان لسنوات لاجئا سياسيا في ميفارقين
 عند الحمدانيين عند نصر الدولة الحمداني قبل مقتل
 الحاكم بأمر الله عام ١٠٢٠ (٤١١هـ) وكاتبه الزهرجي
 صديق المعري الذي اتهمه ابن القاسم بأنه كانت له مكتبة

كلها من الاسرائيليات اى تجديد في تجديد . كذلك كان
 ابن القارح نفسه لاجئا بملطية في بلاط المايستورية
 (الاستاذة) خولة بنت سعد الدولة الحمداني ، ثم لحق
 بصديقه اللدود الوزير المغربي في ميفارقين . فليس يبعد
 اذن أن يكون الوزير المغامر أبو القاسم المغربي قد لجأ الى
 الحمدانية بما عرف عنهم من صلوات طيبة بالروم وتعاون
 عسكري معهم ليكيد للحكم الفاطمي المصري بعد نكبة أبيه
 ونكبته في مصر . وليس يبعد أيضا أن المعري كان مناصرا
 للحمدانية والروم على الاقل بحكم نفوره من الفاطمية
 وبحكم ثقافته الفلسفية اليونانية والعقلانية العربية كما
 ترجح ذلك رحلته البغدادية السابقة عند اعلان الفاطمية
 في حلب . فاذا كان الامر كذلك فليس يبعد أن سر الجفوة
 المتبادلة والتخوف المتبادل بين الوزير أبي القاسم المغربي
 وابن القارح اللذين نجدهما أوضح ما يكون في رسالة
 ابن القارح كان مصدره أن الوزير المغربي كان يعتقد أن
 ابن القارح عميل فاطمي وربما جاسوس فاطمي مدسوس
 على بلاط الحمدانية سواء عند خولة المايستورية او عند
 نصر الدولة في ميفارقين او في انطاكية التي اقام بها او في
 حلب التي زارها وشهر بها في رسالته الى المعري ، وتاريخ
 ابن القارح في التحسس على الوزير المغربي ثابت باعترافه
 في رسالته حتم ، ايام اقامتهما معا في مصر . ويكون المعنى
 الحقيقي لرسالة ابن القارح الى المعري هي بمثابة قفاز
 فاطمي ألقي به ابن القارح في وجه المعري صدق محذور
 آل حمدان الروم وثقاتهم النابية عن الاسلام وصدق
 المثقفين بالاسرائيليات كآبى الفرج الزهري سكت نصر
 الدولة المؤيدين للدين الحنيف من وجهة نظر الفاطميين
 وهذا تكون رسالة ابن القارح الى المعري بمثابة استدراج
 له الى معركة عقائدية هي في حقيقتها الوجهة

الثقلى لتلك الحرب التى دارت رحاها بين الروم والفاطميين فى ربوع الشام وكان بنو حمدان بعد موت سيف الدولة وزوال المجد ومعهم بنو مرداس فيها كما أوضحنا بمثابة قطع الشطرنج ..

هذا هو تقديرى لهذه الصورة المعقدة التى توشك ان تكون غامضة اشد الغموض ولعل هذا التقدير يفسر لنا اهتمام المعرى بأن يرد على رسالة ابن القارح « برسالة الغفران » رغم التفاوت العظيم بينهما « رسالة الغفران » لن تفهم على وجهها الصحيح الا اذا درست على انها رسالة أيديولوجية فى حزب العقائد الدينية والسياسية التى دارت رحاها فى زمن المعرى زمن التحام العالمين المسيحى والاسلامى

رسالة الغفران

إذا أردنا تلخيص « رسالة الغفران » للمعري في عبارات موجزة لم نجد أفضل من تلخيص أستاذنا طه حسين لها في « تجديد ذكرى أبي العلاء »

فقد رأينا كيف أن ابن القارح ختم رسالته الى المعري بذكر خوفه من الجحيم وناره الاكلة ، فتصور المعري في « رسالة الغفران » رحلة ابن القارح في الدار الاخرى الى الجنة . قال :

« قام هذا الرجل من قبره يوم البعث فلبث في الموقف امدًا طويلا ، حتى أعياه الحر والظما ، وهو واثق بدخول الجنة لان معه صك التوبة ، فلم يفهم معنى هذا الانتظار ، ففكر في أن يخدع سدة الجنة بما كان يخدع به الناس في الدنيا من الشعر ، فأنشأ القصائد الطوال في مدح رضوان ، وأنشده أياها فلم يفهم منها شيئا لانه لا يتكلم العربية . فلما علم على بن القارح بأمره سأله : ما بالك لم تحفل بقصائدي وقد كان يحفل بها ملوك الدنيا ؟ ثم كانت بينهما محاورة آيست على ابن القارح من رضوان ، فانتقل الى سادن نبيه الى أن يتشفع بالنبي في أمره . فاجتهد حتى وصل الى حمزة . فتوسل به الى علي . وانه

لحق طريقته الى علي وقد كلفه ان يظهر كتاب ثوبته ، ، والله
 لفي ذلك واذا شيخه ابو علي الفارسي قد ضاق ذرعا
 بطائفة من شعراء البادية يخاصمونه فيما تأول من
 كلامهم . فنسى التوبة وامر الشفاعة ، وذهب الى استاذ
 فزاد عنه اولئك الاعراب ثم رجع الى علي وقد فقـد
 كتاب التوبة . ولكن عليا قد هون عليه الامر وطلب منه
 شاهدا على التوبة فاستشهد بقاضي من قضاة حلب
 وقبل علي شهادته . ولكن سقاه من الحوض وأياسه من
 من دخول الجنة قبل الحساب ، فلم ير الا الحيلة .
 فذهب الى شباب بني هاشم فقال : لقد ألفت في الدنيا
 كتبا كثيرة وكنت ابدؤها واختتمها بالصلاة على النبي
 وعترته ، فحقت لي بذلك عليكم حرمة ولي اليكم حاجة .
 قالوا : وما هي ؟ قال : اذا خرجت امكم الزهراء من
 الجنة لزيارة أبيها ، فتوسلوا بها اليه في ان يأذن بدخولي
 الجنة فقبلوا منه . ثم نادى مناد : يا اهل الموقف غضوا
 أبصاركم حتى تمر الزهراء ومرت فاطمة فسلمت علي
 ابنائها ، ورجعوا اليها في امر صاحبهم فقبلت . وأشارت
 اليه ان يتبعها فتعلق بركاب ابراهيم ابن النبي ، ولم تكن
 خيلهم تمشي على الارض لكثرة الزحام ، انما كانت تطير
 في الهواء

« وصلوا الى النبي وشفع فيه ، وعاد مع فاطمة
 واخوتها ليدخل الجنة ، فلما بلغ الصراط لم يستطيع ان
 يتقدم عليه قيد اصبع ، فبعثت اليه الزهراء جارية
 تعينه . فأخذت الجارية كلما أسندته من ناحية مال من
 الاخرى ، حتى أعياه ذلك وأعيهاها ، فقال لها : يا هذه ان
 أردت سلامتي فاستعملي معي قول القائل في الدار العاجلة :

ست ان أعياك أمرى فاحمليني زقفونته
 « فقالت وما زقفونة ؟ قال : ان يطرح الانسان يديه

على كُتفى الأخير ، ويفسك يديه ، ويحمله وبطنه الى
ظهره ، أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب :

صلحت حالتى الى الخلف حتى

صرت أمشى الى الوراء زقفونة

« فقالت ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر
طاب الا الساعة . فتحمله وتجاوز كالبرق الخاطف . فلما
جاء قالت ان هراء عليها السلام : قد وهبنا لك هذه
الجارية فخذها كى تخدمك فى الجنان . فلما صار الى
باب الجنة قال له رضوان . هل معك جواز ؟ فقال : لا .
فقال : لا سبيل للدخول الا به . فعى بالامر . وعلى باب
الجنة من داخل شجرة صفاف ، فقال : اعطنى ورقة
من هذه الصفافة حتى أرجع الى الموقف فأخذ عليها
جوازا . فقال : لا اخرج شيئا من الجنة الا باذن من
العلی الا على « تقدس وتبارك » . فلما ضجر بالنزلة قال:
انا لله وانا اليه راجعون . لو ان للامير ابن المرجى خازنا
مثلك لما وصلت انا ولا غىرى الى درهم من خزائنه .
والتفت ابراهيم « صلى الله عليه » فراه وقد تخلف عنه
فجذبه جذبة حصله بها فى الجنة

« فهذه الصور التى تمثلها هذه القصة تبين مقدار ما
تشتمل عليه رسالة الغفران من السخرية الخفية وامثالها
كثير » (انتهى من ٢٣٦ - ٢٣٨)

هذا هو الهيكل العنام « لرسالة الغفران » ومنه
نستطيع ان نلمس تهكمه بآبن القارح فهو أولا يعرض به
كشخص وصولى يسخر الشعر فى أسوأ غرض يمكن ان
يستخدم فيه الشعر وهو المدح لبلوغ النعيم فى الدنيا
والآخرة . وقد بلغ من وصوليته انه اراد ان يستخدم
أساليب الدنيا فى الآخرة

وهو يسخر أيضا منه لالتماسه دخول الجنة لابنساء

على صالح الأعمال ، ولكن بالوساطة لمجرد مدحه اهل البيت . وهو يسخر من دنيويته لانه يحمل الدنيا معه الى الآخرة فلما ان يرى الشعراء والرواة والنحاة يتجادلون في أمور الشعر حتى ينسى أمر دخوله الجنة وينشغل بحديث الشعر عن خلاص نفسه

والمعري يعرف ان ابن القارح كان سكران من طراز عظيم رغم ما ساقه في رسالته من التنديد بالخمير ومن زينوها من الشعراء ولذا فهو يدعو في «رسالة الغفران» الى التوبة منها . وابن القارح باعترافه كان فاسقا عظيم الاقبال على الشهوات فهو يعلن في رسالته انه اضاع نصف عمره في الفسق ، وهو يقول انه درس ببغداد كاحسن ما يكون الدرس ثم « مضيت الى مصر فأمرجت نفسي في الاغراض البهيمية والاغراض الموثمية ، وأردت بزعمي وخديعة الطبع المليم ان اذيقها حلاوة العيش ، كما صبرت في طلب العلم والادب ونسيت ان العلم غذاء النفس الشريفة وصقيل الافهام اللطيفة » وهذا ما يسميه ابن القارح « وحفظت نصف عمرى ونسيت نصفه » . ولذا نجد ان المعري يتهم من توبته ، فلا يجعلها توبة من توبة القلب التي تلازمه فتدخل صاحبها الجنة ولكن مجرد حبر على ورق كجواز سفر يمكن ان يضيع ، فهي توبة مثبتة في ورقة يسميها المعري « صك التوبة » ، أخذه ابن القارح من قاضي حلب . . . وكانا بالمعري يحدثنا عن شيء شبيه جدا بما كان معروفا في العالم المسيحي بصكوك الغفران أو « البولاي » التي كان يهرها البابوات في زمانه للخطاة ويبيعونها بها قصورا ومربعات في الجنة . وفي هذا المشهد الرائع يبلغ المعري قمة فنه في « رسالة الغفران » ، انشغل ابن القارح مع طائفة من الشعراء في حوارهم السخيف .

« وشغلت بخطابهم والنظر في حويرهم فسقط مني الكتاب الذي فيه ذكر التوبة فرجعت أطلبه فما وجدته فظهرت الوله والجزع . فقال أمير المؤمنين : لا عليك . ألك شاهد بالتوبة ؟ فقلت : نعم : قاضى حلب وعدولها ، فقال : بمن يعرف ذلك الرجل ؟ فأقول : بعبد المنعم بن عبد الكريم قاضى حلب - حرسها الله - في أيام شبل الدولة - فأقام هاتفا يهتف في الموقف يا عبد المنعم بن عبد الكريم ، قاضى حلب فى زمان شبل النولة ، هل معك علم من توبة على بن منصور بن طالب الحلبي الاديب ؟ فلم يجبه أحد . فأخذنى الهلع والقل - أى الرعدة - ثم هتف الثانية فلم يجبه مجيب . فليح بى عند ذلك - أى صرعت الى الأرض - ثم نادى الثالثة فأجابه قائل بقول : نعم قد شهدت توبة على بن منصور ، وذلك بأخرة من الوقت ، وحضرت قبابه عندى جماعة من العدول ، وأنا يومئذ قاضى حلب وأعمالها والله المستعان ، فعندها نهضت وقد أخذت الرمق ، فذكرت لامير المؤمنين - عليه السلام - ما التمس ، فأعرض عني وقال انك لتروم حددا ممتنعا ولك أسوة بولد أبيك آدم »

وهكذا رفض أمير المؤمنين على بن أبى طالب توبة ابن القارح ، وهى توبة لا دليل عليها الا صك الغفران قائلا : هذا ممنوع ، فالحد هو الممنوع

ولنبدا بما ورد في « رسالة الغفران » من معان دينية وفلسفية فنقف أمامه قليلا فالمرى يبدأ رسالته بإعلان عقيدته فى الجبر حيث يقول : « قصد علم الجبر الذى نسب اليه جبرئيل ، وهو فى كل الخيرات سبيل ، ان فى مسكنى حماطة ما كانت قط أفانيه ، ولا الذاكرة بها غانية تشر مودة مولاي الشيخ الجليل .. ما لو حملته العالمة من الشجر لدنت الى الأرض غصونها ، وأذبل من تلك

الثمرة مصونها . « أو بلغة أسهل وأيسر ، يقول المعمرى
 أن في داره شجرة - يابسة هي الحماطة - وهذه الشجرة
 لم تكن في أى وقت من الاوقات شجرة مورقة ، بل كانت
 دائما منذ أن نبتت شجرة يابسة وهذه لا تعطى ثمارا
 وانما تصلح فقط لحطب الوقود ومثل هذه الشجرة
 اليابسة العقيمة في داره شجرة يابسة عقيمة في جسده
 ومكانها في قلبه لان مسكنه أيضا هو جسده ، ولان
 الحماطة أيضا هي حبة القلب . وهذه الشجرة ثمراتقل
 الثمار من الحب لابن القارح . باختصار يريد المعمرى أن
 يقول لابن القارح أن ما يحمله قلبى من البغض لك
 لا مثيل له الا ما تحمله شجرة يابسة كشجرة الصبار
 نمت في أجرد مفازة من أشواك وثمار مسمومة . وهو
 يعبر عن هذا في لغة مهذبة ملتوية فتحسبه من ظاهرها
 يقول ان شجرة قلبه تنوء بما تحمل من ثمار الود لابن
 القارح ، وحقيقة الامر أنها تنوء بثمار البغض والسخيمة
 ولكن المعمرى في هذه العبارة العميقة لم يقصد فقط ان
 يعبر عن سواد قلبه بالنسبة لابن القارح ، وانما أراد أيضا
 ما هو أعمق وأشمل ، وهو أن يثبت اعتقاده في الجبر ،
 وهو أن العالم مسير لا مخير ثم اعتقاده فيما تسميه
 الافلاطونية النقص أو الفساد الملازم للكون أو للوجود
 المادى أو ما يسمى في بعض المذاهب الفكرية بالفساد
 الملازم للوجود الانسانى أو باصالة الخليئة الاولى في
 جبلة الإنسان . أما ايمانه بالجبر فهو يشكل موضوعا
 أساسيا من الموضوعات التى تناولها فى « اللزوميات »
 حتى أنه ذكره أكثر من مائتى مرة فيها بحسب احصاء
 طه حسين كقوله : « والعقل زين ولكن فوقه قدر »
 أو قوله :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى
ولا حياتى فهل لى بعد تخيير
ولا اقامة الا عن يدى قدر
ولا مسير اذ لم يقض تيسير
حتى اوشك ان ينكر الايمان بالحساب لولا خوفه من
الزيغ :

مدبرون فلا عتب اذا خطئوا
على المسىء ولا حمدا اذا برعوا
وقد وجدت لهذا القول فى زمنى

شواهدا ونهائى دونه الورع
وأما ايمانه بالنقص أو الفساد الملازم للوجود فى المادة،
فهو قد عبر عنه فى مطلع « رسالة الغفران » بقوله ان فى
سكنه وهو جسده ، حماسة وهى حبة القلب كما هى
الشجرة اليابسة التى « لم تكن قط أفانيه » أى لم تكن
قط ناضرة بمعنى أن العقم قديم فيها ملازم لوجودها .
فاذا ما أضاف المعرى « ولا الناكزة بها غانية » أى ولا
كانت الحية بها مقيمة ، فكما قال المعرى قيما تلا
« وتوصف الحماسة بالف الحيات لها » أو ترددها عليها
وسكنها فيها ، اكتملت لنا صورة الفردوس الاول وفيه
آدم وفيه الحية مصدر الشر تلدغ حبة قلب آدم وتجره
الى السقوط . وعندى أن المعرى لا يريد أن يقول أن
قلبه كان خاليا من الحية لعدم وجود الحيات حول شجرة
حياته أو داخل حبة قلبه ، وإنما يريد أن يقول عكس ذلك
على خط مستقيم وهو أنه قد بلغ من يبس شجرته أن الحية
ذاتها لم تعد تقيم فيها أو تستغنى بها تغنى بها مبر
« غانية » فخرجت تسعى فى الفردوس المفقود لتدمر كل
ما فيه . وفكرة السقوط ماثلة فى قول المعرى فى وصف
ثمار شجرة مودته أو على الأصح بغضه لابن القارح وثمار

الشر عامة بأنها « ما لو حملته العالية من الشجر لدنت الى الارض غصونها وأذيل من تلك الشجرة مصونها ، (اذيل بمعنى أهين وورد في بعض نصوص « الغفران » اذيل) . وهذا بالضبط ما حدث لشجرة الحياة في الفردوس : دنت الى الارض غصونها واذيل منها مصونها ويعود المعرى ليؤكد هذه الفكرة ليقول « وان في طمرى لحضبا وكل باذاتي ، لو نطق لذكر شذاتي ، أى « وان في ثوبى القديم (أى جسدى) لحية جعلت ضر وشر ، والمعرى نفسه يسر لابن القارح ان « الحضب ، « صرب من الحيات » وهو أيضا « حبة القلب »

فاذا ما فرغ المعرى من هذه الصورة عاد فعبر عنها بطريقة أخرى قائلا : « وان فى منزلى لاسود أعز على من عنتره على زبيبة وأكرم عندى من السليك عند السلكة وأحق بايثارى من خفاف بخبايا نديه ، وهو أبدا محجوب (ما) لا تجاب عنه الاغطية ولا يجوب » والاسود هو أيضا الحية وهو أيضا حبة القلب لصلته اللغوية بسويداء القلب . والمعرى يستعرض العشرات من أسماء أعلام العرب الذين اشتهروا بلونهم الاسود كعنتره وزبيبة والسليك والسلكة وخفاف وندبة ، أو الذين دخلت مادة السواد فى أسمائهم كابى الاسود الدؤللى والاسود بن المنذر والاسود ابن معد يكرب وسويد بن الصامت وسودة بن عدى الخ . وغير ذلك من استعمالات السواد فى اللغة والشعر فى الظاهر ليتفكه ويتهكم ، ولكنه فى الحقيقة يدير القول حول صورة واحدة تتكرر دائما أبدا وهى فكرة ملازمة السواد لقلبه وملازمة السواد للحية كملازمته لكل ما ساق من أسماء أعلام اما بحكم لونهم واما بحكم أسمائهم . والقارىء الحديث اذا يتناول رسالة ابن القارح « ورسالة الغفران » يحسب أن ابن القارح والمعرى كانا يضحكان

الوقت في استعراض معلوماتهما اللغوية ، وحقيقة الحال
أنهما كانا يرميان دائما الى خبيء مغلف بالالفاظ الغريبة
ذات المعانى المتعددة

فاذا كانت هذه فكرة المعرى عن الفساد المتاصل في
الوجود المادى فما من شك فى أن أى مؤمن بالشر أو
النقص الملازم للخليفة ينتهى موقفه حتما بربط الغفران
باللطف الالهى أو رحمة الله بعباده سواء مباشرة أو
بشفاعة النبيين وآلهم وأوليائهم وقديسيهم . وهو المبدأ
المكمل لمبدأ الحساب والعدالة الالهية فى الآخرة . وهى
نظرة دينية اعترفت بها كافة الاديان والمذاهب بدرجات
متفاوتة نظرة يشوبها العطف على ضعف الانسان أمام
الغواية والخطيئة والتعبير الدينى عنها يتبلور فى مبدأ
التوبة فى الارض والغفران فى السماء وما يسبقهما من
تظهر من الذنوب يثبت التوبة ويؤهل للغفران

وحكاية « صك التوبة » الذى يحمله ابن القارح ثم
يضيع منه فى الدار الاخرى فيسبب له المتاعب ، وهو صك
مهور بخاتم قاضى حلب وعليه توقيعات شهود عدول من
حلب ، يتخذ منه المعرى موضوعا للتفكهة والسخرية ويجعل
أمير المؤمنين على بن أبى طالب يرفضه قائلا : « انك لتروم
حددا ممتنعا ، ولك أسوة بولد أبيك آدم » ولكن له دلالة
تاريخية يمكن أن نرجحها وهى أن العالم الاسلامى فى
أوائل القرن الحادى عشر الميلادى قد عرف ما عرفه العالم
المسيحى فى تلك الفترة وما قبلها عن تلك الظاهرة التى
تعرف فى تاريخ العصور الوسطى بصكوك الغفران فالارجح
ان المعرى ما كان ليتحدث عن صكوك التوبة ويتفكه بها الا
اذا كانت شائعة فى عصره أو على الاقل معروفة بدرجة
كافية . والارجح أنه لم يبتكر فكرة دخول الجنة بصك
يصدره قاض من قضاة الارض وينسب هذه البدعة لابن

القارح الا اذا كان يريد أن يقول أن ابن القارح يريد أن
يدخل الجنة على طريقة مسيحيي أوروبا الذين كان البابا
يعطيهم صكوكا يدخلون بها الجنة وهو أمر يدعو للتفكه
حقا . وليس بمستبعد بل الاغلب أن المعري كان عارفا بما
كان يجري في العالم المسيحي سواء في شطره البيزنطي أو
في شطره الروماني واني أستبعد أن يكون هذا مراد المعري
في تهزئ ابن القارح . لانه يتضمن أيضا تهزئ قاضي
حلب وأهالي حلب الذين تصورهم أنهم قبلوا الشهادة على
مثل هذه الوثيقة . ولا أغالى ان قلت أن الحديث عن
صكوك التوبة في العالم الاسلامي ، ولو في سبيل
الفكاهة ، كان ليكون اجترأ عظيما من المعري على العالم
الاسلامي اذا لم يكن له بعض السند في الحياة الواقعة
وفي العرف الجارى . فاذا كانت بدعة صكوك التوبة قد
دخلت العالم الاسلامي في فترة من فتراته فالمؤرخون
وحدهم هم القادرون على تحديد متى دخلت وأين دخلت
وكيف دخلت . أما دراسة « رسالة الغفران » فلاتدل الاعلى
أنها كانت معروفة نحو ١٠٣٢ (٤٢٤ هـ) وهو عام
انشائها . ولا تبعد أن تكون صكوك الغفران بدعة من البدع
الكثيرة التي استحدثها الفاطميون في العالم الاسلامي -
نتيجة لاحتكاكهم بالعالم المسيحي قبل مجيئهم الى مصر .
والمعري يحدد اسم مصدر صك الغفران لابن القارح وهو
القاضي عبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب ابان حكم
شبل الدولة ، وهذا محدد تاريخيا فشبل الدولة هو
نهر بن صالح بن مرداس فهو ابن مؤسس الدولة
المرداسية في حلب ، وقد ولي ملك حلب عام ١٠٢٩
(٤٢٠ هـ) وحكمها ثمانى سنوات حتى ١٠٣٧ (٤٢٩ هـ)
حين قتل في معركة مع الجيش المصري على نهر العاصي
أما صكوك الغفران (أو « البولاي » ان منحها البابا

« الاندولجانس » بصفة عامة) كما كانت تسمى في اوربوا الكاثوليكية اثناء العصور الوسطى ، فتاريخها قديم نسبيا وهو مقترن بتطور فكرة التوبة في العالم المسيحي ودور رجال الدين في منح الغفران ولكن العالم المسيحي نفسه لم يعرف صكوك « الغفران الشامل » الا قبل « رسالة الغفران » بنحو مائة واربعين سنة حين اقراها مجلس رانس (٩٢٣ - ٩٢٤) ثم استخدمت على نطاق واسع في عام ١٠٩٥ حين اصدر البابا اوربان الثاني بمناسبة خروج الحملة الصليبية الاولى ١٠٩٦ - ١٠٩٩ ما يسمى بالغفران الشامل لكل جندي مسيحي يخرج الى القتال في الحروب الصليبية مدفوعا بالايمان وليس للكسب كما نص قرار البابا وبهذا ضمن الجنة لكل مجاهد في سبيل المسيحية واما قبل هذا التاريخ فقد كانت صكوك الغفران جزئية المفعول وكان هناك جدل حول ماتملك الكنيسة غفرانه من الذنوب ومالا تملك . وفي الاصل كان البابا هو صاحب السلطة في منح الغفران ثم فوض الكاردينالات والاساقفة في ذلك

و « البولاي » في لاتينية العصور الوسطى وفي العرف الكنسي كانت في الاصل اختاما ذات شكل بيضاوي او مستدير يسمى واحدها « بولا » نقش عليها اسم صاحبها واحيانا صورته ، وكانت تستخدم في ختم الوثائق الرسمية ، ويظن العلماء انها موروثة في ايطاليا الوسيطة من قديم الزمان من الحضارة الاثروورية او الاثروسكية ، وهي الحضارة التي كانت شائعة في ايطاليا قبل مجيء الرومان انفسهم ، وفيها تعودت الصبايا وتعود الفتيان ان يلبسوا على صدورهم هذه « البولاي » مدلاة من سلاسل حول اعناقهم وكانت يومئذ في شكل

القلب وتشتعل على رقية أو حجاب أو طلسم يقي حاملها شر العين الحاسدة ويدفع عنه الأمراض وما إلى ذلك ، وكانت أيضا امارة على شرف المحتد ، ثم تطورت مع مر العصور إلى اختتام يبصم بها على الوثائق الرسمية ، ثم انقرضت هذه العادة في أوروبا حتى اقتصر استعمال هذه القلائد ذات الاختتام على البابوات ابتداء من ٦٥٠ ميلادية على وجه التقريب ، ولا يعرف من أسماء الملوك الذين حملوا هذه « البولاي » الا بيان ملك فرنسا المتوفى عام ٧٦٨ وادوارد المعترف ملك إنجلترا

وقد واجه العالم المسيحي مشكلة التوبة والغفران في زمن باكر من تاريخ الكنيسة فكانت الذنوب يكفر عنها بالصوم والصلاة عادة لمدة تبلغ اربعين يوما وباعطاء الاموال لانفاقها في الاغراض الدينية ، وكان هذا الاجراء حتى القرن الثاني يعود على صاحبه بالغفران الجزئي . فلما كان القرن الثالث نشأت معركة عنيفة بين آباء الكنيسة حول حدود الغفران كان محورها القديس تروتوليان الذي كتب نحو عام ٢٢٠ يهاجم قرارا اصدره البابا كاليسست ووعد فيه بغفران خطيئة الزنا بعد التكفير ، وقال تروتوليان ان الكنيسة لا تستطيع منح الغفران حتى بعد التوبة والتكفير فيما سماه الكبائر الثلاث وهي الردة والزنا والقتل ، لان في منح الغفران عن هذه الكبائر اغتصابا لقدرة لا يملكها الا الله ، وانما يمكن للكنيسة ان تعطي الغفران عن الخطايا الصغيرة . ولكن الازمة التي واجهتها الكنيسة بسبب عنت الوثنية الرومانية امام اضطهاد الامبراطور دوميديوس للمسيحيين اضطهادا مركزا حول ٢٥٠ كان لها تأثير كبير في الموقف . فقد كثرت ردة المسيحيين الى الوثنية بسبب هذه الاضطهادات العنيفة افواجا افواجا حتى خشيت الكنيسة

من اندثار الدين الجديد فأفتى القندينس كبريانوس القرطاجي بأن الردة ليست من الكبائر وان المرتد يمكنه ان ينال الغفران اذا ماتاب « توبة علنية » بما سمناه « اكسمولوجيسينس » أى « الاعتراف » (وهذا منشأ مبدأ « الاعتراف » فى المسيحية) وهو شبيه بما نسميه اليوم « النقد الذاتى » ، ولكن القديس كبريانوس اضاف ان هذه التوبة العلنية او هذا الاعتراف مقدمة لازمة للغفران ، اما الغفران نفسه فهو بيد البابا او الرئيس الاعلى للكنيسة لانه وحده يحمل « قوة المفاتيح » أى مفاتيح الفردوس ثم حدث تطور آخر فى فكرة الغفران هذه . ففى ٥٩٩ أعلن البابا ليو الاول فساد التوبة العلنية او الاعتراف العلنى بسبب تردد الكثيرين من الخطاة فى ان يعلنوا عن ذنوبهم الشائنة امام الناس . بل ذهب الى ما هو أبعد من هذا فحرم افشاء سر المعترف وكان هذا هو اساس « سر الاعتراف » او « ختم الاعتراف »

اما فى الكنيسة الشرقية ، كنيسة بيزنطة فقد كانت التوبة فيها تمر فى اربع مراحل هى مراحل - ١ - الباكين - ٢ - السامعين - ٣ - الراكعين - ٤ - الواقفين . اما الباكين فهم يكون لما ارتكبوا من خطايا واما السامعون فهم يسمعون حكم الدين فى الرذيلة والفضيلة واما الراكعون فهم يركعون للاستغفار واما الواقفون فهم يقفون انتظارا للغفران - وهم يستمعون لصلوات المؤمنين وهم يتشفعون لهم . ولما كان « الوقوف » هو آخر مرحلة قبل الحصول على الغفران ، فقد كان ينتهى دائما « بتناول السر المقدس » الذى يتلوه الغفران . وكانت اجراءات التوبة علنية فى بيزنطة كما كانت علنية فى روما حتى حرم

لكتاريوس بابا القسطنطينية هذه التوبة العلنية والفي
وظيفة كاهن التوبة او القاضي الذي يتوب امامه الخطاة

وقد أدى الغاء التوبة العلنية واتباع نظام التوبة
الخاصة أو الشخصية الى ظهور نظام صكوك الففران
او ادى الى انتشار العمل بهذا النظام على اقل تقدير
لان التوبة العلنية بغير حاجة الى صك يشبهها ولها من
علايتها خير اثبات . اما هذه التوبة التي تدور في الخفاء
بين المذنب والكاهن ومحرم ان يعرف بأسرارها احد فهي
بحاجة الى وثيقة تثبت قيامها . هكذا بلغت سذاجة
الناس في تلك العصور وهكذا بلغ سلطان الكنيسة على
نفوسهم ولكن الغاء التوبة العلنية ذاته لم يأت اعتباطا
فقد كان الناس يأخذون التوبة فعلا مأخذ الجد ولا
يعدونها مجرد عملية يزاولها الانسان بعد كل خطيئة
ليعود الى الخطيئة من جديد . كانت توبة نصوحا وكان
من شعائرها في بعض البلاد تحريم الزواج على التائبين
ماداموا في مرحلة التكفير وتحريم المعاشرة الزوجية على
التائبين حتى يغفر لهم او الانزواء في دير لاجل طويل
حيث يقضى التائب فترة في النسك والعبادة . وقد بلغ من
خوف الناس من التوبة العلنية ان الكثيرين كانوا يؤجلون
توبتهم حتى ساعة الوفاة . وقد اثار القديس اوجسطين
هذه المشكلة في القرن الخامس وأبدى شكه في أن من
يموتون بغير توبة يمكن أن يدخلوا الجنة ، فشاع الاعتراف
مرة كل سنة وكان الاعتراف اختياريا حتى جعلته
الكنيسة اجباريا لمن يبلغ سن الرشد في هذه الحدود
السنوية منذ عام ١٢١٥ . كذلك ثار جدل حول قيمة
التوبة بالنية وقيمة التوبة الرسمية امام الكنيسة ولكن
الراى الذى استقرت عليه الكنيسة كان يلزم بدخول

الكنيسة كطرف فيه لأنه جعل من « تناول السر المقدس » وهو لا يتم الا على يد الكاهن ، شرطا أساسيا للتطهر وقبول التوبة

ونعود فنقول انه بالفاء التوبة العلنية وحلول التوبة الفردية محلها شاع اثبات هذه التوبة بصكوك التوبة أو ما يسمى عادة بصكوك الففران . ثم أصبح اتفاق المال في الوجوه الدينية يؤخذ مأخذ الزكاة عن النفس طلبا للففران وقد شجعت الكنيسة الكاثوليكية هذا الاتجاه ليتم لها جمع المال اللازم لبناء الكنائس والكاتدرائيات والاتفاق على وجوه البر ، ثم انحطت الكنيسة الكاثوليكية فشجع رجال الدين هذا الاتجاه لابتزاز اموال المؤمنين والاثراء على حساب البسطاء والفاستق . وهكذا تحولت صكوك الففران الى تجارة في الدين وبعد أن كان الاصل في صكوك الففران انها كانت مجرد اعفاءات من العقاب الديني أو التكفير في الدنيا عن الخطيئة بالصوم والصلاة والنسك وكافة ما فرضه الدين على اهل الذنوب من وسائل التطهر تحول الى جواز مرور تبسعه الكنيسة لدخول الجنة

فهل من حقنا أن نتساءل - في الكلام عن المعري و « رسالة الففران » - ان كان المعري لم يقصد أن يقول متهمكما لابن القارح : انت يا سيدى واصحابك الفاطميون في مصر تزعمون اننا اهل الشام زنادقة واننا خلطنا ديننا بالاسرائيليات ، هذه التي نسميها الفلسفة ، فمالنا بغير شك الى الجحيم . اما انتم يا اصحاب مصر الفاطمية فتريدون دخول الجنة على طريقة كنيسة روما الكاثوليكية ، وهي بدعة الاسلام منها برىء ، وتحسبون انه يكفي لدخول الجنة ان يتوب المرء توبة صورية على يد القاضي

بعد حياة كلها فسق واجرام فيعطيه القاضي ورقة يدخل بها الجنة ، وتحسبون ان الايمان الشفوى يغنى عن صالح الاعمال ، وان الرسول وآله ، بل ورضوان نفسه شأنهم شأن ملوك الارض يكفي ان يتملقهم المرء بالمدايح حتى يتشفعوا فيه عند الله . كلا ليس ما زعمتم من الدين في شيء . انكم يا اصحاب مصر الفاطمية تزعمون انكم اعداء الصليبيين الالقاء ، وانتم لا تقولون عنهم شرا ، لانكم بقلتم عنهم معتقدات وخرافات وبدعا دستموها على الاسلام ، اخذتموها عنهم نتيجة لاحتكاكم بالعالم المسيحي في موطنكم الاول في شمال افريقية ، وادخلتموها في العالم الاسلامي منذ ان آل اليكم السلطان عام ٩٠٩

الا يحق لنا ان نتساءل : اليس « رسالة الغفران » تشتمل على اتهام صريح للفاطميين بانهم ادخلوا في المشرق الاسلامي بدعة صكوك الغفران او صكوك التوبة كما يسميها المعري ، وانهم تشروا هذا النظام حيثما استقر لهم الامر ، حتى لقد اصبحت نظاما مألوفاً في عهد شبل الدولة المرداسي الذي تولى عام ١٠٢٩ قبيل انشاء « رسالة الغفران » بثلاث سنوات . فكان من اختصاصات قاضي حلب عبد المنعم بن عبد الكريم ان يصدر صكوك التوبة ؟ ان اكثر من مائة عام من استتباب الامر للفاطميين في مصر وغيرها من بلاد المشرق قبل انشاء « رسالة الغفران » كانت كافية لانتشار هذه البدعة لو ان الفاطميين كانوا مؤسسيها . وايا كان الامر فليس هناك أدل على رسوخ هذا النظام من وصف المعري الساخر لاصرار ابن القابح على دخول الجنة يصك مكتوب حتى بعد ضياع صك التوبة منه ، فهو يحاول اقناع رضوان ان يعطيه ورقة من شجر الجنة ليمضي بها الى شفعائه ويحصل

فيها على اذن كتابي بدخول الجنة ، وحما قال المهرى على
 لسان ابن القارح : « فلما صرت الى باب الجنة ، قال
 لى رضوان : هل معك جواز ؟ فقلت : لا . فقال لا سبيل
 لك الى الدخول الا به . فبلغت بالامر . وعلى باب الجنة
 من داخل شجرة صفصاف ، فقلت : اعطنى ورقة من هذه
 الصفصافة حتى ارجع الى الموقف فاخذ عليها جوازا .
 فقال : لا اخرج شيئا من الجنة الا باذن من العلى الاعلى ،
 تقدس وتبارك » . وحين اراد ابن القارح ان يوضح حقه
 فى دخول الجنة قال : « فقلت : انى كنت فى الدار الداهية
 اذا كتبت كتابا وفرغت منه ، قلت فى اخره : وصلى الله
 على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى عترته الاخيار
 الطيبين ، وهذه حرمة لى ووسيلة » . فابن القارح
 يحسب ان مجرد هذا الايمان النظرى الذى يترجم الى
 الصلاة على النبي وآله بالقول ولا يترجم الى صالح
 الاعمال ، كاف لان يعفيه من الحساب وان يكون « الوسيلة »
 لدخول النعيم . ولكن ابن القارح حين مثل امام سيدنا
 محمد ، تعلم ان الشفاعة وحدها لا تكفى وانه لابد من
 النظر فى اعمال الناس ليؤذن لهم بدخول النعيم « فوقفت
 عند محمد - صلى الله عليه - فقال من هذا الاتاوى -
 اى الغريب - فقالت له : هذا رجل سأل فيه فلان
 وفلان - وسمت جماعة من الائمة الطاهرين - فقال
 حتى ينظر فى عمله . فسأل عن عملى فوجده فى الديوان
 الاعظم وقد ختم بالتوبة فشفع لى ، فاذن لى فى الدخول »
 وقد كانت « وساطة الاولياء والقديسين » فضلا عن
 وساطة مريم والمسيح من المبادئ المستقرة فى اوروبا
 الكاثوليكية ، وما زالت كذلك الى حد كبير الى اليوم .
 وكانت هذه الوساطة ترتكز على ما يسمى « بالسكنوز

الروحية « التي تملكها الكنيسة بفضل اعمال القديسين
والاولياء ، وهو رصيد روحى يمكنها من ان « تشتري »
ذنوب المذنبين من الله او هى بمثابة الفدية التى تدفعها
عن الخطاة ليفك أسارهم وتحصل لهم على الغفران

نعيم المعرى

في الكلام عن مصادر أدب المعرى لا شك أن المصدر الأول لرسالة الغفران كان قصة الاسراء والمعراج في ابن عباس رضى الله عنه وما شابهها من روايات للحديث الشريف الخاص بقصة الاسراء والمعراج . فالعالم العامة للجنة وللجحيم كما صورهما المعرى تطابق بغير شك ما ورد في التنزيل الحكيم أولا وفي ابن عباس ثانيا وفي المصادر الاسلامية بوجه عام ثالثا . وربما كانت نقطة البداية في هذا البحث هو ما تواتر في المصادر الاسلامية من أن ارتقاء الرسول المعراج الى السماء السابعة اثناء حياته وعودته منها الى الأرض بعد أن كلم رب العرش وتفقد الفردوس والجحيم هو المعجزة التي اختص بها الرسول اذ لم يؤذن لغيره ان يرتقى المعراج اثناء حياته . وفي رواية ابن اسحق « لما فرغت مما كان في بيت المقدس اتيت بالمعراج فلم أر شيئا أحسن منه وهو الذي يمد اليه الميت عينه » وفي « السراج الوهاج » للامام جعفر بن زين العابدين وهو من المتأخرين : « ثم أتى بالمعراج الذي تعرج عليه الارواح عند حلول المنية . لم تر الخلائق احسن منه ، له مراق من المسجد واللجين ، مرقاة فوق مرقاة »

فالمعراج اذن هو السلم الذي تصعد عليه كل الازواح الى السماء بعد قبضها لتحاسب وهو « سلم السماء » أو « الاسكالا كايوم » كما يسميه الاوروبيون . ومن هنا امكن للمعري وسواه ان يستخدمه موضوعا لادب دنيوى غير دينى ، وان يجتهد فيه بخياله وبخيال غيره لأن ارتقاء المعراج قدر محتوم على كل أهل الفناء بعد فنائهم

معالم الجنة التى يصفها المعري اذن فى رحلة ابن القارح الى العالم الآخر هى فى صورتها العامة المعالم الموصوفة فى التراث الدينى وفى التراث الانسانى معا ، ومثلها أيضا معالم الجحيم فى صورتها العامة . ففى الفردوس هناك الرياض ذات الظلال الوارفة والفاكهة الشهية والطير الجميل ، تخرقها انهار الماء واللبن والخمر والعسل ، وتسكنها الحور والولدان ، وتكثر فيها العيون والينابيع ، وهى تزخر بالاحجار الكريمة وبالمعادن النفيسة . ولكن رغم تشابه وصف المعري للجنة فى صورتها العامة مع ما جاء فى المصادر الاسلامية نجد المعري فى الوقت نفسه يضيف تفاصيل فى وصف الجنة ومثلها فى وصف الجحيم لا نجد لها اثرا فى المصادر الاسلامية . وبعض هذه التفاصيل نستطيع أن نقول انه ثمر للابتكار الشخصى لانه مجرد نسج للخصوصيات على العموميات الواردة فى الادب الدينى ولكن بعضه الآخر ، وهو هام وكثير ، لا سبيل الى تفسيره الا بافتراض اطلاق المعري على الوان من التراث الاجنبى كان له اليها سبيل واطلاعه على الوان من التراث الشعبى الشائع فى عصره . فاذا نحن اردنا تحليل مكونات رسالة الغفران خارج ما أخذه المعري عن المصادر الاسلامية ، وجب أن نحاول حصر هذه « المتيقات » والمواقف والمشاهد والتفاصيل التى لم يرد ذكرها فى هذه المصادر والتى يصعب أو يستحيل

أن تصور انها ثمرة للاجتهاد في الابتكار الشخصي والتوليد الذاتي . وأهمية هذا الحصر ناشئة من انه يعيننا من جهة أخرى على تتبع هذه التفاصيل في « الكوميديا الالهية » لدانتى وما شاكلها من مؤلفات في أدب الآخرة ، ورد هذه التفاصيل الى مصادرها الحقيقية ، ولا سيما اذا كانت لها مقابلات مشهورة في الآداب الأخرى وأهم هذه العناصر التى لا نستطيع أن نرجعها الى المصادر الإسلامية لقصة المعراج هي :

١ - فكرة تناول موضوع الحياة في العالم الآخر تناولا فكاهيا . فوصف الحياة في العالم الآخر جزء لا يتجزأ من جميع الآداب الدينية الراقية . أما فكرة وصف الحياة الثانية وصفا فكاهيا فقد اشتهر بها الأدب اليونانى من خلال أعمال أرسطوفانيس أولا ولوسيان ثانيا ..

٢ - فكرة عقد الموازنة بين الشعراء في العالم الآخر وحسابهم وعقابهم لا على أساس ما اتوا في الدنيا من خير وشر ، ولكن على أساس ما نظموا فيها من شعر جيد وشعر ردى . هذه الفكرة تظهر لأول مرة في كوميديا « الضفادع » لأرسطوفانيس ، حيث يقوم ديونيزوس قاضيا في عالم الموتى بين أسخيلوس وأوريديس ، ويكون حساب الشعارين على أساس ما في فنهما من روعة وأخطاء وما في تعاليمهما من نفع أو ضرر للبشر ، وقد أخذ الكاتب اليونانى الساخر لوسيان هذه الفكرة وطورها فجعل الآخرة مسرحا لمحاكمة الفلاسفة والموازنة بين مذاهبهم وحسابهم وعقابهم على هذا الأساس . بل ان لوسيان قد تجاوز موضوع الفلاسفة ، واقام في الآخرة المحاكمات لالهة اليونان وأبطالها . وقد كان من أهم ما كتب في هذا « محاورات الالهة » و « محاورات الموتى » التى نرى

فيها لوسيان يدير المناقشة ، أمام بلوتو رب الموتى ، بين
 الفلاسفة مثل ديوجين ومنيبوس وبين القواد مثل فيليب
 المقدوني والاسكندر وهانيبال وشيبو وبين أبطال الملاحم
 مثل أخيل وأجاكس وأجا ممنون . ثم هناك محاوراة
 « السماء » ، حيث يجمع لوسيان أرواح أعلام الفلاسفة
 في العالم الآخر من أفلاطون وأرسطو وديوجين
 وأميادوقليس إلى طوائف الفيثاغوريين والرواقيين والمشائين
 والايقوريين الخ ويسخر منهم جميعا ويفضح جشعهم
 للمال والتستر تحت الفكر لقضاء مآربهم بعد أن تجرى
 محاكمتهم أمام « الفلسفة » و « الحقيقة » و « الفضيلة »
 و « المنطق » ، ويعلن في النهاية أدانتهم جميعا . ثم هناك
 محاورته الساخرة بعنوان « رحلة إلى العالم السفلي »
 حيث يجري ردامانثوس خازن الجنة مع خارون معداوى
 الأرواح وكلوثو ربة القدر محاكمة لطالب من طلاب
 الفلسفة تعود استخدام المنطق لتبرير خطاياهم فأرسلوه
 إلى جزائر السعداء ثم يحاكمون من بعده طافية من
 الطفلة ويدعون سريره ومصباحه ليشهدا على الليالي
 الحمراء التي كان يقضيها أثناء حياته ، وبعد أدانته
 يرأفون بحاله فلا يلقونه في نهر بريفليجيثون لفصل أوزاره
 عنه ولا يرمونه في جهنم ، وإنما يعطونه جرعة من نهر
 النسيان . ومثل هذا محاوراة لوسيان « رحلة إلى
 السماء » أو « إيكارومنيب » حيث ترى الفيلسوف
 الكلبى منيبوس يصعد مع صديق له إلى السماء دون
 حاجة إلى معراج على حد قوله ولكن باستخدام أجنحة
 من أجنحة الطير ويسخر لوسيان من هذا الفيلسوف
 وفلسفته في هذه المحاوراة

وقد عاد المعرى بهذا الموضوع إلى النقطة التي تركه
 فيها أرسطوفانيس ، فجعل من وصف الجنة والجحيم

مناسبة للموازنة لمحاكمتهم على شعرهم شكلا وموضوعا .
 فنرى ابن القارح بين جماعة من الأدباء كانوا أعداء الداء
 في الحياة الأولى فإذا بهم في الجنة متحابين متصافين ،
 ومن أدباء الفردوس هؤلاء المبرد وأبو بكر الازدي ويونس
 ابن حبيب الضبي والافخش الاوسط وثعلب والمبرد
 وسيبويه والكسائي والاصمعي وغيرهم من العلماء النحاة
 من مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة فإذا عداوتهم في الجنة
 أخاء ، وإذا هم يتجادلون في الادب وعلوم اللغة دون
 خصام . ويلتقى ابن القارح في الجنة بالاعشى فيعلم منه
 ان النبي انقذه من أيدي الزبانية الذين اوشكوا ان يزجوا
 به في النار وكانت نجاته بسبب قصيدة له في مدح
 الرسول ، ولان الاعشى اثبت لعلي بن ابي طالب انه رغم
 ولعه بالخمير في الجاهلية « كنت أومن بالله وبالحساب
 وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء » فدخل الجنة
 على الا يمس ما فيها من خمر مكتفيا « بالعسل وماء
 الحيوان »

كذلك يرى ابن القارح في الجنة قصرين أحدهما لزهير
 ابن أبي سلمى والآخر لعبيد بن الابرص الاسدي فيعجب
 لوجود شعراء الجاهلية في الجنة ، ثم يعلم أن زهيراً كان
 مؤمناً في الجاهلية فغفر له وأن عبيد بن الابرص دخل
 جهنم ولكن بيتا واحداً له انقذه من الجحيم وهو :

من يسأل الناس يحرموه
 وسائل الله لا يخيب

ثم يلتقى ابن القارح بعدي بن زيد العبـادي ، وهو
 أيضاً من شعراء الجاهلية فيعلم منه أنه دخل الجنة لأنه
 كان على ملة المسيح قبل رسالة محمد وقد حقت جهنم
 على من عبدوا الأصنام في الجاهلية وحدهم . ثم يبلغ
 ابن القارح قصرين من در أحدهما للناطقة الجعدي والآخر

النابغة الذبياني . ثم انضم اليهم الاعشى فصاروا خمسة
واخذوا يشربون من خمر الجنة ويتجادلون فيما قالوا
من شعر ومواطن القوة والضعف فيه وفيما نحله
عليهم الرواة . ويطول النقاش بين النابغة الذبياني
والنابغة الجعدي كل منهما ينقد الآخر حتى لتذكر
« صفادع » ارسطوفانيس ثم يمر عليهم لبيد بن ربيعة
ويذكرونه بشعره فيتبرأ منه قائلا : « هيهات ! انى تركت
الشعر فى الدار الخادعة ولن اعود اليه فى الدار الآخرة » .
وتتخذ الجماعة من شعرها فى الخمر موضوعا للنقد
والفكاهة والتهكم ويوازنون بين خمر الاولى وخمر الآخرة
وبين الخمر واللبن . ويتباهى الجعدي بشعره ويعير الاعشى
بمدح الملوك فيغضب الاعشى ويضربه بكوز من ذهب .
وهنا يذكرهما ابن القارح بأن لا عريضة فى الجنان ويحاول
أن يصلح ما بينهما فلا يوفق . وهكذا تنتقل من شاعر
الى شاعر ومن فكاهة الى فكاهة . حسان بن ثابت ،
الخليل بن أحمد الخ ، حتى الخطيئة نجده فى الجنة رغم
أنه كان شتما عظيما دخلها لا لقوله :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

ولكن لأنه صدق فى هجاء نفسه . كذلك نرى الخنساء
فى أقصى الجنة قريبة من مطلع النار لترى أخاها صخرا .
وفى النار يرى ابن القارح بشار بن برد وأمرأ القيس
وعنترة وعمرو بن كلثوم وعلقمة والحارث يشكرى وطرفة
ابن العيد وأوس بن حجر وأبو كبير الهذلى والأخطل الذى
سحر الزبانية بشعره فآلهاهم عن تعذيبه . وبعد أن
يجادل ابن القارح كل هؤلاء فى شعرهم يضيق بالنار
ويخرج منها ليعود الى قصره فى الجنة ، وهناك يسأل عن
الباقين فيعرف أن المهمل والمرقس الأكبر والمرقس

الاصفر والشنقرى وتابط شرا فى النار بين راض بمصيره
وساخط عليه

فالموازنة بين الشعراء فى الآخرة ، وهى ركن هام من
أركان « رسالة الغفران » تقليد بداه أرسطوفانيس فى
« الضفادع » ونسج عليه لوسيان بالموازنة بين الفلاسفة
فى الآخرة ، ومن الطبيعى أن نفترض أن « رسالة الغفران »
تنتمى الى هذه الفصيلة من الأدب ، وأن هذا الموضوع
من رواسب الأدب اليونانى فى الأدب العربى

٣ - يحدثنا المعرى عن « طعام الخلود » وهو ما كان
يسمى فى الأدب القديمة « الامبروزيا » (العنبر) ففى
« رسالة الغفران » نرى ابن القارح يتنزه فى رياض الجنة
على نجيب أى جمل صنع من « ياقوت ودر » فيسير على
غير منهج ومعه شئ من طعام الخلود . ومثل طعام
الخلود شراب الخلود أو ما كان القدماء يسمونه « النكتار » ،
وربما كان شيئاً مثل قطر الندى ، وهو شراب الالهة
بمثل ما كانت الامبروزيا طعام الالهة . أو بلفة المعرى :
« فيقول : الا تشربان ؟ فيجرعان من ذلك المحلب جرماً
لو فرقت على أهل سقر (أى جهنم) لغازوا بالخلد
شراً » . ومثل هذا الطعام والشراب لا ذكر له فى المصادر
الاسلامية . كذلك لم يرد فى المصادر الاسلامية تحديد
لاسـم الماء الذى يجرى فى الكوثر ، والمعرى يحدده بـماء
الحيوان فالمعرى يقول :

« وتجرى فى أصول ذلك الشجر انهار تختلج من ماء
الحيوان ، والكوثر يملها فى كل أوان . من شرب منها
النفية فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت وسعد من اللبن
متخرقات ، لا تغير بأن تطول الاوقات وجعافر من الرحيق
المختوم ، عز المقندر على كل محتوم . تلك هى الراح
الدائمة ، لا الديمة ولا الدائمة » فالكوثر يغذى أنهار

الجنة وأشجارها بأكسبر الحياة أو الاكوافيتا أى ماء
الحياة الذى يسميه المعرى ماء الحيوان

٤ - الارتداد الى الشباب وارتداء حلة الشباب الدائم
موضوعان يتكرران باستمرار فى « رسالة الغفران »
كظاهرة هامة عامة من ظواهر الحياة فى الجنة ، دون أن
يكون لهما ذكر صريح فى المصادر الاسلامية المعتمدة لقصة
المعراج وان كان لهما سند فى الحديث الشريف « لا تدخل
الجنة عجوز » وفى ابن عباس أن آدم فى الجنة « شيخ
حسن الوجه حسن الثياب جالس على كرسى من نور » وهو
النبي الوحيد الذى يراه الرسول فى الجنة أو فى السماء
السابعة ..

وفى رسالة الغفران نرى الاعشى وقد ارتد شابا
وسيمًا ، أو بلغة المعرى : « فاذا هو بشاب غرائق ، غبر
فى النعيم المفاثق ، وقد صار عشاء حورا معروفا وانحناء
ظهره قواما موصوفا » كذلك نرى زهير بن ابى سلمى
وقد ارتد شابا بهى الطلعة وهو الذى نعرف من شعره
انه استوفى الثمانين على الاقل ، فهو القائل :
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش

ثمانين حولًا لا ابالك - يسام !

أو بلغة المعرى :

« فيبتدى بزهر فيجده شابا كالزهرة الجنية ، قد
وهب له قصر من ونيسة (أى من الدر اللؤلؤ) كأنه
ما لبس جلباب هرم ، ولا تأفف من البرم » كذلك يلتقى
ابن القارح فى الجنة بلبيد بن ربيعة الذى عاش الى عمر
رذل ، وهو القائل :

ولقد سئمت من الحياة وطولها

وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟

فهو فى المعرى قد برؤ من شيخوخته : « لاهرم ولابرم »

كما يقول • ومثل هذا حدث للنساء فى الجنة ، فالقبيحات
منهن قد غدون آيات فى الجمال ، ومثلهن حمدونة التى
كانت من اقبح نساء حلب • فلما زهدت فى الدنيا الغرور
وتوفرت على العبادة • دخلت الجنة فصارت الى حورية
يخطف جمالها الابصار • ومثلها ايضا الجارية السوداء ،
التى كانت تشتغل « فتاة مكتبة » فى مكتبة بغداد ،
اصبحت بعد ان دخلت الجنة حورية زينة للناظرين • او
كما يقول المعرى : « وتقول الاخرى : اتدرى من انا يا
على بن منصور انا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى
دار العلم ببغداد على زمان ابى منصور محمد بن على الخازن
وكنت أخرج الكتب الى النساخ » (والخازن هنا هو أمين
المكتبة) ، فيجيبها ابن القارح : « لا اله الا الله ، لقد
كنت سوداء فصرت انصع من الكافور » وارتداد البشر
فى الجنة الى حالة الشباب الدائم واكتساؤهم بالجمال
المتلاى رغم دمايتهم الاولى ليس له سند فى ابن عباس
ولا فى المصادر الاسلامية المعتمدة لقصة المعراج ونظير
هذا فى الاداب القديمة هو ما حدث لاوديسيوس ورجاله
فى نعيم الحورية كيركا وحورها : حين ارتدوا جميعا الى
الشباب الدائم والى الفتوة الفارعة بفضل شراب العشب
السحري « مولى » وهو ايضا مما ورد فى الاعمال والايام
لهيسود حيث تتعرض هذه القصيدة لوصف العالم الاخر
وهو ايضا مما وصفه أرسطوفانيس فى « الضفادع » حيث
نجد كوراس الصوفية فى الاخرة يبتهلون لياكوس رب
الخرقة والتجدد ان يردهم الى الشباب من جديد • وربما
كان وصف المعرى لتجدد الشباب والجمال فى الجنة
تصورا ادبيا للحديث الشريف متأثرا باوصاف القدماء

٥ - فى جنة المعرى مدن ليست كمداثن الجنة ، ولا
عليها النور الشعشعاني وهى ذات « ادحال » أى مخازن

للمطر « وعما ليل » أى اجم مظلم كثيف الشجر .
 ونعرف ان هذه جنة العفاريت الذين امنوا . ويلتقى ابن
 القارح باحدها وكنيته ابو هدرش فيقول : يا ابا هدرش .
 مالى اراك أشيب واهل الجنة شباب ؟ فيقول : ان الانس
 اكرموا بذلك وأحرمناه ، لاننا اعطينا الحولة فى الدار
 الماضية ، فكان احدا ان شاء صار عصفورا وان شاء صار
 حمامة فمنعنا التصور فى الدار الآخرة ، وتركنا على خلقنا
 لا يتغير ، وعوض بنو ادم كونهم فيما حسن من الصور .
 وكان قائل الانس يقول فى الدار الداهية : اعطينا
 الحيلة ، واعطى الجن الحولة

هذه التشكلات او التحولات او التصورات شئ مألوف
 فى الفولكلور العربى وفى الاداب الشعبية ، وهى عنصر
 هام فى اعمال مثل « الف ليلة وليلة » وما شاكلها ، وهو
 محور « التحولات » او « التشكلات » لافيد ، اما ما يسمى
 « الميتامورفوز » . والمعرى لم يكن بحاجة الى الذهاب الى
 أوفيد ليتعلم شيئا عن « الحولة » او التصور كما يسميه
 المعرى ولكن بعض التفاصيل فى « رسالة الففران » تبث
 حقا على الاشتباه فى أنه كان مطلعا على بعض المصادر
 الاجنبية الى جانب اطلاعه على قصص الحولة او التصور
 فى التراث العربى

٦ - خذ مثلا فكرة النساء البجع فى جنة المعرى :
 « ويمر رف من أوز الجنة ، فلا يلبث ان ينزل على تلك
 الروضة ويقف وقوف منتظر لامر . ومن شأن طير الجنة
 ان يتكلم - فيقول : ما شأنكن ؟ فيقلن : الهما ان نستط
 فى هذه الروضة فنغنى فيها لمن شرب . فيقول : على
 بركة الله القدير . فينتفضن فيصرن جوارى كسواعب
 يرفلن فى وشى الجنة ، وبعد ان يغنى البجع لابن القارح
 ميمية المخبل السعدى التى كانت تغنيها القيان فى القاهرة

وفى بغداد فى زمانه يقول : « فتبارك الله القدوس . نقل هؤلاء المسمعات من زى ربات الاجنحة الى زى ربات الاكفان المترجحة ، ثم الهمهن بالحكمة حفظ اشعار لم تمرر قبل بمسامعهن ، فجنن بها متقنة ، محمولة على الطـــــرائق ملحنة » وتحول الطير الى نساء والنساء الى طير ، وبالذات الى بجمع او ما يسميه المعرى أوز الجنة يبعدنا عن التشكلات المألوفة فى حكايات الجن المعروفة فى الادب الشعبى العربى ويقترب بنا كثيرا من الميثولوجيا اليونانية حيث النساء البجع جزء لا يتجزأ من الاساطير الاساسية ، ليس فقط فى قصة الاختين الحوريتين سيرينا اللتين اشتهرتا بعذب الغناء فى « الاوديسا » وغيرها وكانتا دائما تصوران فى صورة الطير فى عالم الموتى حيث تغنيان أجمل الاغاني للارواح ، وليس فقط فى قصة ليذا التى تحولت الى بجة حين عشقها زيوس كبير الالهة فأنجبت منه هيلانة طروادة الشهيرة بجمالها ، وليس فقط فى قصة سيجنوس او سيكنوس وأمه اللذين حولهما العشق الى بجمع فى بحيرة البجع ، لكن ايضا فى قصة فيلوميلا البلبل وأختها بروكنا اللتين تحولتا الى طير وفرتا الى أكثف الغابات هربا من الامير تيروس ، تلك القصة التى اشتهرت فى العالم القديم ولا سيما كما رواها الشاعر أوفيد

٧ - وخذ مثلا فكرة النساء الشجر وهى مثل النساء البجع المغنيات فى الجنة ففى جنة المعرى يقود ملاك ابن القارح فى رياض الجنة

« فيجىء به الى حدائق لايعرف كنهها الا الله فيقول الملك : خذ ثمرة من ذا الثمر فاكسرها فان هذا الشجر يعرف بشجر الحور

» فيأخذ سفرجلة او رمانة او تفاحة او ماشاء الله من الثمار ، فيكسرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء تبسرق

لحسنها حوريات الجنان» وأشجار الحور بالذات هي وأشجار
الصفصاف ، من دون سائر الأشجار كانت في الأدب اليوناني
من «أوديسا» هوميروس إلى الكاتب الساخر لوسيان (١٢٥ -
٢٠٠ ميلادية) هي الأشجار المميزة للعالم الآخر . ولوسيان
بالذات لأنه كان سوريا يكتب باليونانية كان واسع الشهرة
عظيم الأثر في الشرق لأنه كان بمثابة نقطة التقاء الشرق
بحضارة الإغريق ، وقد كان لوسيان متخصصا في الكتابة
عن زيارته للعالم الآخر بأسلوب كله سخرية ودعابة ، ومن
أشهر ما كتبه « حوار الآلهة » و « حوار الموتى » و « رحلة
إلى العالم السفلي » و « رحلة إلى السماء » و « خارون
معداوى الأرواح » و « الصياد » . وهذا ما كتبه في مقطوعته
التي يسميها « البجع والعنبر » :

« لا شك أنك تؤمن بصدق أسطورة العنبر ، وكيف أن
العنبر هو الدموع التي ذرفتها أشجار الحور على فيتون في
نهر الأردن فأشجار الحور هذه كن أخواته وقد تحولن إلى
أشجاروهن ينحن عليه وما فتئن يذرفن عليه دموع العنبر
هذا ما فعلته من الشعراء وقد تآقت نفسى إلى الوقوف تحت
شجرة حور ، إذا ما ساقنى القدر إلى الأردن في يوم من
الأيام ، كما تآقت إلى جمع بعض هذه الدموع العنبرية في
ثنايا ثيابي وبذا يتوفر لي مدخر من هذه السلعة

» ولكنى أؤكد أنى وجدت نفسى هنالك منذ زمن غير بعيد
في مهمة أخرى ، وأتيح لي أن أزور الأردن ورغم يقظتى
والتفاتى في كل مكان لم أر أشجار حور ولا عنبر بل أن
الاهلين لم يسمعوا حتى باسم فيتون وبدأت بحثى بالسؤال
متى أصل إلى حور العنبر . فلم أسمع إلا ضحكات الملاحين
الذين طالبونى بالتفسيرات . فرويت عليهم القصة : قلت :
كان فيتون ابن هليوس أبولو رب الشمس ، فلما كبر جاء
إلى أبيه يسأله : متى أستطيع يا أبت أن أسوق عربتك ،

عربة الشمس ، فأصبح موجد النهار ولو مرة واحدة .
فوافق أبوه على أن يعيره عربته ، ولكنه سقط وقتل
فتحولت أخواته النائحات عليه (في أرضكم هذه حيث
سقط على نهر الاردان الى أشجار حور ، ومن لا زلن يذرفن
عليه دموع العنبر)

« قالوا : أى كذاب خدعك على هذا النحو ؟ نحن ما رأينا
قط سائق عربة يهوى . ثم أين تكون أشجار الحور ؟ أنظن
أننا ، لو صدق هذا ، كنا نجدف أو نشد زوارقنا ضد
التيار من أجل دريهمات ، لو صدق هذا لكفانا ان نجتمع دموع
أشجار الحور لتكون من الاثرياء . وكان لهذا القول الحق
أثر عميق فى نفسى فصحت وأدركت ادراكا موجعا مبلغ
غباوتى الصبائية حين صدقت كلام الشعراء . فبضاعتهم
من هذه الخيالات المسرفة ، وهم يحقرون الحقائق المعقولة
وهكذا طار منى أمل من امالى ، أمل كنت أعتز به كثيرا ،
فحزنت على ضياعه كأنما ضاع العنبر ذاته من يدى ، فقد
كنت أعددت كل مشروعاتى للاستفادة منه فى مختلف
الوجوه

« ورغم هذا فقد بقى شىء واحد كنت اظن انى واجده هناك
حقا . وذلك هو سرب البجع الذى يغنى على الشطآن .
فعدت أقول للملاحين : فى أية ساعة تقريبا تأخذ البجع
مكانها لتقدم أغانيها المشهورة هم أخوة الرب أبولو فى
صناعة الغناء كما تعلمون ، وقد تحولوا هنا من بشر الى
طيور ، ولا يزالون يغنون وفاء لذكرى فنهم القديم
« ولكن الملاحين سخروا منى ، لا أكثر ولا أقل : ألا تكف
عن الكذب عن أمور بلادنا ونهرنا ؟ نحن لا نبارح الماء قط ،
وقد اشتغلنا طول العمر على نهر الاريدان . والحق أننا
نرى بجعة من وقت لآخر فى المستنقعات ونسمع صوت
البجع فاذا هو نقيق جارح وهزيل وصوت الغربان التى

تعد سيرينات بأنفيس الى صوته . أما هذا الغناء العذب الذى تتحدث عنه فلا أثر له هنا . ونحن لا نفهم من أين تأتون يا قوم بكل هذه الحكايات عنا ،

هذا بعض ما قاله لوسيان عن نهر الاردان أو الوردان أو الاردنواس وما شاع عنه فى العالم القديم انه كانت تسكنه نساء تحولن الى أشجار الحور التى تنزف دموع العنبر وقتيان تحولوا الى بجع يغنى أعذب الغناء . وهونهر أسطورى قيل أن فى مصبه جزرا من الايكتريد أى العنبر أو الكهرمان وقد تحدث عنه هسيود فى «أنساب الالهة» أو «التيوجونيا» البيت ٣٢٨ حديثه عن نهر له وجود حقيقى . وكانت اليونان تقول أولا أن مكانه غير معروف فى أقصى الشمال من أوروبا أو فى أقصى الغرب منها وأنه يصب فى المحيط الشمالى . وقد شك فى وجوده المؤرخ هيرودوت (٣ - ١١٥) والجغرافى استرابو (٥ - ٢١٥) ، وظنه اسخيلوس فى أسبانيا ولكن بلىنى (٣٧ - ٣٢) زعم أنه هو نهر الرون ، ثم نقل محله أخيرا الى نهر البو فى الادب الرومانى . أما عن غناء البجع أو أوز الجنة ، وهو ما لم يرد فى المصادر الاسلامية ، فقد وصفه المعرى بقوله :

« فاذا تيقن لها حذاقة وعرف منها بالعود لباقه ، هلل وكبر وأطال حمد ربه واعتبر وقال ويحك ألم تكونى الساعة أوزة طائرة والله خلقك مهدية لا حائرة ؟ فمن أين لك هذا العلم ، كأنك لجذب النفس خلم أى صديق لو نشأت بين معبد وابن سريج لما هجت السامع بهذا الهيج فكيف نفضت بله أوز وهزرت الى الطرب هذا الهز ؟

٨ - النساء الحيات . ورد فى المصادر الاسلامية أن فى الجنة أنواعا من الحيوان يستخدم فى وصفها اسم الجنس وهو « الانعام » دون تخصيص كما جاء فى التنزيل وفى ابن عباس رضى الله عنه . وقد ذكر المعرى ألوانا عديدة

من الحيوان والطيور في الفردوس خصصها كلها بالاسم :
 منها خيل الجنة ومنها الاسد ومنها الذئب ومن الطيور
 بالذات الطواويس والدجاج والبط وكل هذه تفاصيل يمكن
 أن ينسج منها الخصوصيات على العموميات لانها من مألوف
 الحيوان . ولكن وصف المعرى للحيات في الجنة يدفعنا
 دفعا الى افتراض اطلاعه على مصادر اجنبية . والحية ليست
 غريبة على الفردوس ، فقد كانت في الجنة الاولى وقد لعبت
 دورا في غواية ادم وحواء في التوراة ولكن الحية في المعرى
 من طراز اخر . قال المعرى : « ثم يضرب سائرا في الفردوس
 فاذا هو بروضه مونقة ، واذا بحييات يلعبن ويتماقلن
 يتخاففن ويتثاقلن ، فيقول لا اله الا الله . وما تصنع حية
 في الجنة فينطقها الله - جلّت عظمته - بعد ما ألهمها المعرفة
 بها جس الخلد فتقول : أما سمعت في عمرك بذات الصفا
 الوافية لصاحب ما وفي ؟ » والى هنا نستطيع أن نفترض أن
 المعرى كان يجتهد داخل اطار التراث الشرقي المألوف الذي
 يقرن الحية بالحكمة . ولكن حين نسمع حية المعرى تنشد
 الشعر في الفردوس ونقرأ في رسالة الغفران عن ابن
 القارح :

« ويهكر (أى يعجب) - أزلفه الله مع الابرار المتقين
 - لما سمع من تلك الحية ، فتقول هي : ألا تقيم عندنا برهة
 من الدهر ؟ فاني ان شئت انتفضت من أهابي فصرت مثل
 أحسن غواني الجنة ، لو ترشفت رضا بى لعلمت أنه أفضل
 من الدراياقة التي ذكرها ابن مقبل في قوله :
 سقتنى بصهباء درياقة

متى ما تلين عظامي تلن
 ولو تنفست في وجهك لاعلمتك أن صاحبة عنقرة تقلة
 صدوف (أى نتنة كريهة الرائحة) . ولو أدنيت وسادك
 الى وسادى لفضلتنى على التى يقول فيها الاول . (أبيات

لمجنون ليلي) : فيندعر منها - جعل الله آمنه متصلا ،
والطالب شاؤه من تقصير منتصلا - ويذهب مهرولا في
الجنة ، ويقول في نفسه : كيف يركن الى حية شرفها السم
ولها فالفتكة هم ؟ فتناديه : هلم الى اللذة ، فاني لافضل من
حية ابنة مالك التي ذكرها العبسي في قوله :
ما ولدتنى حية ابنة مالك

سفاحا ولا قولي أحاديث كاذب
وأحمد عشارا أى معاشرة من حية ابنة أزهر التي يقول
فيها القائل :
إذا ما شربنا ماء مزن بقهوة ..

ذكرنا عليها حية ابنة أزهر
ولو أقمت عندنا الى أن تخبر ودنا وانصافنا ، لندمت
ان كنت فى الدار العاجلة قتلت حية أو عثماننا (أى
ثعبانا) ..

فحية المعرى اذن ليست بالحية المألوفة وانما هى غائية
تصورت فى صورة حية أو حية تتصور فى صورة غائية .
هى كالفادة لاميا التى روت أساطير اليونان انها كانت ملكة
على ليبيا ، وأن زيوس كبير الالهة عشقها واختصها وحدها
بالتدرة على أن تخلع عينيها وتردهما الى مكانهما كلما أرادت
وقد أنجبت منه أطفالا عديدين ، ولكن هيرا الغيور ، زوجة
زيوس ، فتكت بجميع أطفالها لتنتقم منها فلم ينج منهم الا
سكيلا . فجن جنون لاميا وتحولت الى حية ضارية فتفتك
بكل من تلقاه من أطفال . وأصبحت لاميا واحدة من
الامبوزات ، وهن جنيات كن يتشكن فى كل صورة واشتهر
عنها أنها كانت تتشكل فى صورة الغادة الفاتنة التى تسحر
الفتيان بجمالها وتستدرجهم الى فراشها ثم تمص دماءهم
وهم نيام . ومما اشتهر عن لاميا أنها كانت تستطيع أن
تهب عينيها للابطال والحكماء والشعراء ليكتسبوا ببصرها

الرؤية الخارقة ثم تفتك بهم بعد أن تستدرجهم الى فراشها ..

فالنساء الحيات اذن لا وجود لهن فى التراث الاسلامى كالنساء الاشجار أو النساء البجع . ولم تكن الحية هى الحورية الوحيدة فى جنة المعرى القادرة على التشكل أو التحول أو الحولة كما يسميها المعرى أو الميتامورفوز كما تسمى فى التراث اليونانى والرومانى . فكل من فى جنته من حور وجنيات قادرات على هذه الحولة . فابن القارح يلتقى بحورية فاتنة فى الفردوس ، ولكنه يراها نحيلة أكثر مما ينبغى فاذا هى تستوى أمامه ثقيلة الاردا فوفق ما يشتهى : « ويخطر فى نفسه وهو ساجد ، أن تلك الجارية - على حسننها - ضاوية ، فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف يضاهى كثران عالج فيها من قدرة الله اللطيف الخبير .. فيقال له : أنت مخير فى تكوين هذه الجارية كما تشاء ، فيقتصر من ذلك على الارادة » بمعنى اخر أن الفكر أو الارادة والامانى وحدها كافية فى الفردوس لتحقيق ما لا سبيل الى تحقيقه . ومن يقرأ رحلة أرسطوفانيس للعالم الاخر فى « الضفادع » لا يستطيع أن ينسى ذلك المشهد الذى سخر فيه سيد الكوميديا من تشكل الحورية أمبوزا أمام عينى ديونيزوس على عكس ما كانت نفسه تشتهى ، فهو يريد لها بنتا جميلة ليقبلها فاذا هى تارة حية وتارة عنزة الخ ..

٩ - يحدثنا المعرى عن أن من أشجار الجنة شجر الصنصاف بالذات وهو ما لم يرد فى المصادر الاسلامية على هذا التحديد . فقد جاء فى رسالة الففران على لسان ابن القارح : « فلما صرت الى باب الجنة ، قال لى رضوان : هل معك من جواز ؟ فقلت : لا . فقال لا سبيل لك الى الدخول الا به . فبعلت بالامر (أى تحيرت) . وعلى

باب الجنة من داخل شجرة صفصاف ، فقلت : اعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع الى الموقف فأخذ عليها جوازا فقال لا أخرج شيئا من الجنة الا باذن من العلي الاعلى ، تقدس وتبارك . ، واذا كان ذكر الصفصاف لم يرد في المصادر الاسلامية فتصيين المعرى لهذا النوع دون سواء من الاشجار لابد وأن يكون اما من رواسب ثقافته اليونانية ، واما من رواسب المعتقدات الفولكلورية الشائعة في زمانه وقد رأينا كيف أن « أوديسا » هوميروس وغيرها من عيون الادب اليوناني كانت تصف العالم الآخر بأنه مطوق بسنياج من شجر الصفصاف أنا وباشجار الحور أنا اخر

١٠ - في حديث المعرى عن الحور المغنيات في الجنة يحدثنا عن المغنيتين اللتين اشتهرتا في الجاهلية الاولى أيام سكن العماليق مكة قبل العرب حسب ما كانت تقول العرب وهو يحدثنا عنهما بطريقة تذكرنا بحوريتي سيرينا في الاوديسا وما تواتر عنهما في الادب اليوناني من أن جمال غنائهما يشغل البطل ورفاقه عن واجبه المقدس . ثم ان المعرى يحدثنا حديثا عن قصة الجرادتين حديثه عن أسطورة من أساطير الاولين ليست لها حقيقة تاريخية ، يقول المعرى : « فيقول الشيخ - بلغه الله الاماني - مما يدل على أن المراد قيل بن عتر ، قولك : وجرادتان تغنيانهم لان الجرادتين فيما قيل - مغنيتان غنتا لوفد عاد عند الجرهمي بمكة ، فشغلوا عن الطواف بالبيت .. »

« ولقد وجدت في بعض كتب الاغاني صوتا يقال غنته الجرادتان فتفكنت لذلك أي تعجبت له ، والصوت :

أقفر من أهله المصيف
 .. فبطن عروة فالغريف
 هل تبلغني ديار قومي
 .. مهيبة سيرها تلتيف

يا أم عثمان نولينى
هل ينفع النائل الطفيف
« وهذا شعر على قرى
أقفر من أهله ملحوب

« ومن الذى نقل الى المغنين فى عصر هارون وبعده أن
هذا الشعر غنته الجرادتان أن ذلك لبعيد فى المعقول ، وما
أجدره أن يكون مكذوبا ! »

والهم فى قصة الجرادتين ، اذا نحن تأملنا باطن الشعر ،
أن بها اثارا من قصة السعى للعودة الى الوطن : فقول
الشاعر العربى :

هل تبلغنى ديار قومي مهريه سيرها تلقيف

(أى سيرها بالترع) أشبه شىء بقول أوديسيوس : هل
تبلغنى شواطئ ايثاكا سفينة سوداء تتخبط بين الجزر
والصخور ، ويبدو ان صح هذا أن العرب كانت تعرف
صيغة صحراوية لا بحرية من قصة أوديسيوس ورفاقه حيث
يشغل البطل عن بلاده بما يصادفه فى طريقه من غوايات
ومعوقات . والجرحمى فى روايات العرب أحد العماليق ،
وكان سيد مكة نزلت عليه جماعة من قوم عاد تطلب السقيا
والنجدة من القحط الذى ألم بقومها ولكنها أقامت فى قصره
فى نعيم الهاها عن نفسها وقومها فنسيت وطنها وما جاءت
تبحث عنه . ولكن بدلا من السفر على ظهر السفينة نجد
السفر هنا على ظهور الافراس والمهارى . وأيا كان الامر
فاشارات المعرى الى المومس الشهيرة شيرين صاحبة كسرى
التي تشبه الكأس النجسة تغسل وتملأ بأفخر النبيذ فيقبل
عليها كل الندماء بشراة ، اشارات تحتاج الى مزيد من
التحقيق بسبب تواتر اسم سيرينا او كيرينا فى الادب اليونانى
على أنها النموذج الاشهر للبغى المتمرسة فى ارضاء الرجال
كما جاء فى « الضفادع » لارسطوفانيس

وليس ما ذكرت كل شيء : فهناك فى جنة المعرى مشاهد وأشياء أخرى كثيرة لم يرد لها ذكر فى المصادر الإسلامية كوصفه للصيد والقنص فى الفردوس الذى اشترك فيه ابن القارح مع عدى بن زيد العبادى ومع أبى ذؤيب الهذلى، أو وصفه للمآدب فى الجنة « فتوضع الخون من الذهب والفواير من اللجين » ، وعلى الجملة فهى تذكرنا بالمآدب التى أقيمت لاوديسيوس ورفاقه فى عصر الحورية كيركا ذات الغدائر المجسولة . ثم هناك صورة الحور يعملن بالرحى « فرحى من در ورحى من عسجد وأرجاء لم ير أهل العاجلة شيئاً من شكل جواهرهن »

أليس من حقنا بعد كل هذا أن نتساءل من أين جاء المعرى بكل هذه المواقف والمشاهد والصور ما دام لم يرد لها ذكر فى المصادر الإسلامية ؟ ثم أليس من حقنا بعد كل هذا أن نفترض أن المعرى كان مثقفاً فى تراث اليونان القديمة شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أدباء عصره ، وأنه قرأ هوميروس وأرسطوفانيس ولوسيان على أقل تقدير سواء فى ترجمات عربية ضاعت أو فى نصوصها الأصلية ؟ بل أليس من حقنا أن نشبه فى أن المعرى كان عارفاً بلغة اليونان يقرأ فيها أدب اليونان ، بعد كل ما رأيناه من وصف البيئة المحيطة به ومن وصف نشأته وتعليمه الرسمى ؟ لقد كانت أنطاكية واللاذقية بصفة خاصة وحلب إلى حد ما مراكز من مراكز الثقافة الهلينية فى عصر المعرى سواء بعلّة مجاورتها لتخوم بيزنطة أو بعلّة احتلال الروم إياها أكثر من قرن كامل وهذه هى البلدان الثلاثة التى تقول لنا سير المعرى أنه تلقى فيها تعليمه الرسمى حتى تجاوز العشرين وتنقل بينها حتى رحلته البغدادية وهو فى الخامسة والثلاثين . وحين نقرأ عن المعرى أنه درس بدير فى اللاذقية على راهب من الرهبان علوم القدماء ، أليس من حقنا أن

نستخلص أن علوم القدماء هذه التي كان يحفظها ويعلمها
رهبان الروم في أديرتهم لم تكن سوى الادب اليوناني
والفلسفة اليونانية بصفة خاصة ؟ ان الصورة التقليدية
التي ترسم لادباء العرب لا تحفل كثيرا بالبحث في مدى
ثقافتهم الاجنبية يونانية كانت أو فارسية وفي لونها وفي
مدى تأثيرهم بها ، بل ولعلها توحي بأنهم لم يكونوا على علم
بشيء الا بالتراث العربي وحده ، وهذا عكس ما نعرفه عن
التواصل الثقافي منذ عصر المأمون بين حضارة العرب وما
جاورها من حضارات

ان الصورة التي رسمها القفطي في أخبار الحكماء لحنين
ابن اسحاق وقد أطلق شعره على طريقة الخنافس ومشي
يتغنى في شوارع بغداد بأشعار هوميروس في لغتها
اليونانية تدل على أن مؤرخي الادب العربي ، ولا سيما
المحدثين منهم ، لم يتمثلوا بعد الجو الثقافي والادبي والفني
الجاد المعقد المتروك الذي كانت تعيش فيه حواضر العالم
الاسلامي منذ عصر المأمون حتى عصر المعري . وهذا بحث
ينبغي أن يفتح فيه باب الاجتهاد من جديد لالتقاء مزيد من
الضوء على الادب العربي وتاريخه . فكما أن أوروبا لم تكن
في عزلة عن تراث العالم العربي ، كذلك لم يكن العالم
العربي في عزلة عن تراث الاوربيين

هذا ما يمكن أن نرجح أن المعري قد تمثله من تراث
اليونان أو من التراث الفولكلوري الشائع في عصره وبيئته ،
فلنر بعد هذا ماذا أخذ دانتى صاحب الكوميديا الالهية
من التراث الاسلامي في تصوير الجحيم والمطهر والفردوس

الكوميديا الإلهية: المحيم

منذ أن اصدر المستشرق الاسباني اسين بلاسيوس كتابه الخطير « الغائية الاسلامية والكوميديا الالهية » المعروف « بالاسكاتالوجيا الاسلامية » واثبت فيه ظنه بوجود صلة نسب حميم بين « الكوميديا الالهية » وقصة المعراج من جهة ، وبين « الكوميديا الالهية » و « رسالة الففران » من جهة اخرى ، انفتح باب الاجتهاد على مصراعيه حول هذا الموضوع الخطير في باب الادب المقارن . وقد كان لب الحديث حول هذا الموضوع قائما على حصر وجوه الشبه بين ملحمة دانتي العظيم ومصادر الاسلاميه ، ولكن السؤال الذي لامفر من طرحه : الا وهو: من أين لدانتي بهذه المصادر الاسلاميه يطلع عليها ويتاثر بها اذا كان لم يعرف عنه انه كان يعرف العربية ؟ هذا السؤال الذي لامفر منه ظل حائرا الى سنوات قليلة ، او على وجه التحديد حتى نشر المحقق الاسباني خوزيه مونيوز سندينو عام ١٩٤٩ نص مخطوطات ثلاثة لقصة المعراج مترجمة الى الاسبانية واللاتينية والفرنسية في عهد الفونسو العاشر الشهير بالفونسو العالم ملك كاستيل (قشتالة) باسبانيا (١٢٥٢ - ١٢٨٤) . اما المخطوط

اللاتيني فقد عثر عليه في المكتبة الاهلية بباريس ضمن أوراق ترد على الاسلام من وجهة نظر مسيحية وضمن ترجمة لاتينية للقرآن الكريم . واما المخطوط الفرنسي فقد عثر عليه في مكتبة البودليانا بجامعة اكسفورد ، والمخطوطان من اواخر القرن الثالث عشر واولائل القرن الرابع عشر ، اى انهما دونا في حياة دانتي صاحب « الكوميديا الالهية » (١٢٦٥ - ١٣٢١) . وهناك نص على أن هاتين الترجمتين اللاتينيتين والفرنسية قد ترجمتا عام ١٢٦٤ اى قبل مولد دانتي بعام ، وانهما نقلتا عن الترجمة الاسبانية بقلم سكرتير ايطالى فى بلاط الفونسو العاشر يدعى بوناينتورا دى سينا . واما الترجمة الاسبانية الاصلية فقد نقلها عن العربية يهودى اسباني اسمه دون ابراهام الطليطلى المعروف بالحكيم وهو ايضا مترجم ابن الهيثم وقد ضاعت وانما وجدت بدلا منها ترجمة اسبانية نقلها رجل يدعى بيدور باسكوال عن النص اللاتيني . ومعروف ان كل هذه الترجمات كانت بأمر الفونسو العاشر ، وهى تحمل عنوان « معراج محمد » . وهناك مخطوطان اخران باللاتينية لقصة المعراج من العصور الوسطى احدهما موجود فى مكتبة الفاتيكان والاخر فى ايرلندا . اما القرآن الكريم فقد ترجم فى اسبانيا اكثر من مرة قبل الفونسو العاشر ، ومنها الترجمة التى ظهرت حوالى ١١٥٠ اى قبل مولد دانتي بأكثر من مائة عام وغزارة هذه المخطوطات اللاتينية والفرنسية والاسبانية لقصة المعراج فى عصر دانتي لاتدل فقط على انها كانت فى متناول يده ، بل تدل ايضا على انها كانت كغيرها من الترجمات عن العربية من مآلوف الكتب التى كان يتداولها المثقفون فى عصر دانتي ، بل كانت جزءا لا يتجزأ من ثقافتهم الانسانية والدينية يومئذ

وقد أتيح لى أن أقارن الترجمتين اللاتينية والفرنسية القديمة على أشهر النصوص العربية المعتمدة فوجدت انهما لم تنقلا عن « قصة المعراج » فى ابن عباس رضى الله عنه ، ولا عما ورد فى « صحيح البخارى و « صحيح مسلم والتفسير الكبرى عن قصة المعراج ، لانهما تشتملان على تفاصيل عديدة لم يرد لها ذكر فى هذه التفسير . ومن هنا فلابد من افتراض انها مترجمة عن رواية عربية ضائعة لقصة المعراج ربما كانت شائعة فى الاندلس فى القرن الثالث عشر او قبله رواية لانعرف من راويها . اما انها مترجمة عن نص عربى وليست مؤلفة باللاتينية رأسا بقلم أوروبى استوحاها من قصة المعراج المعتمدة فهذا مالا شبهة فيه لانها تشتمل على فقرات عديدة مسهبة مطابقة حرفيا للروايات المعتمدة لقصة المعراج ، وكل ما فى الامر انها تشتمل على اضافات لم يرد لها ذكر فيما لدينا من روايات مؤصلة من الحديث الشريف وبعد ظهور هذه المخطوطات اللاتينية والفرنسية والاسبانية لترجمة قصة المعراج يصبح السؤال الاول فى هذا الموضوع هو : هل اعتمد دانتى فى « الكوميديا الالهية » على ماتعلمه من قصة المعراج وحدها ام انه كان على علم ايضا « برسالة الففران » . وقد اشتبه بعض المستشرقين فى تأثيره بكتابات ابن عربى وغيره من فلاسفة الاسلام ومتصوفته وهو أمر مرجح ، ولكن فى اعتقادى ان اكبر مؤثرين فى بناء « الكوميديا الالهية » كانا بحسب الترتيب فى الاهمية هما : « قصة المعراج » اولا و « رسالة الففران » ثانيا وقد رأينا ان « قصة المعراج » كانت فى متناول دانتى فى ترجماتها الاوروبية ، وليس يستبعد ان « رسالة الففران » كانت ايضا فى متناول يده فى ترجمة لاتينية ضائعة لان

أوجه الشبه بينها وبين « الكوميديا الالهية » أوضح مما يمكن ان ينسب الى محض المصادفة او توارد الخواطر بين الشعراء

والهيكل العام « للكوميديا الالهية » يقوم على ان دانتي يروي قصة رؤيا أو حلم زار فيه الآخرة . وهو يبدأ بقوله انه في الليلة السابقة للجمعة الحزينة من عام ١٣٠٠ (وكان يومئذ في الخامسة والثلاثين أو مايسميه منتصف العمر) ضل الطريق القويم (أى سار في طريق الفواية) واستولى عليه . نعاس ثقيل فألقى نفسه وسط غابة ظلماء وحشية مخوفة بالمهالك ، وما لبث أن وجد نفسه عند سفح تل مشرق بضوء الشمس بلفه بعد أن اخترق الغابة الظلماء ، فهذأت مخاوفه وبعد ان اراح جسده قليلا اخذ في صعود التل ولكن سرعان مااعترضت طريقه فهدة مرقشة (رمز غوايات الجسد) ثم اعترض طريقه أسد ضار (رمز الكبرياء والعنف) ثم اعترضت طريقه ذئبة جائعة (رمز الجشع) ، فعجز عن صعود التل وارتد على عقبه . وهنا تجلى له شبح الشاعر فرجيل فاستنجد به دانتي فأخذ فرجيل يحثه على ارتقاء ذلك التل المشرق لان في ارتقائه بلوغ السعادة والصفاء . فأدرك دانتي انه ليس في الدنيا ولكن في العالم الآخر حيث اشباح الموتى ووعد فرجيل دانتي ان يكون قائده ودليله في الآخرة قائلا أنه سيطوف به في عرصات الجحيم حيث الخطاة يصرخون من عذاب جهنم ، ثم يطوف به في ارجاء المطهر يرى الخطاة راضين بنار المطهر أملا في ان تطهرهم ناره من ذنوبهم فيخرجوا منها انقياء مؤهلين لخلود الفردوس . وحين يخرجان من المطهر سوف يسلمه فرجيل الى طيف آخر يقوده الى الفردوس ويجوس به خلاله ، طيف بهي اكرم من طيف فرجيل واصلح منه لدخول النعيم وهو طيف

بياتريس ، ففرجيل كان فى حياته من العصاة والله لا
 يسمح بدخوله الجنة . وهكذا تبدأ هذه الرحلة الشهيرة
 وينتاب دانتى خوف شديد فيشجعه فرجيل على
 الصعود قائلا انه ينبغى عليه أن يتأسى به ، فهو أى فرجيل
 كان « معلقا » مع نفر غفير فى « ليمبو » فلا هو فى الجنة
 ولا هو فى الجحيم ، ثم جاءت سيدة بهية الطلعة عيناها
 الوضاءتان تتلألئان كأنجم السماء وطلبت الى فرجيل أن
 يخف لنجدة دانتى فى طريق الآخرة . قالت السيدة : انا
 بياتريس التى تأمرك أن تمضى اليه . أتيت من مكان احب
 ان أعود اليه . والحب هو الذى هز قلبى والحب هو
 الذى أطلق لسانى .وعندما اكون امام الله مولاي ،
 لسوف امتدحك عنده كثيرا . هذه هى بياتريس التى
 كانت عند دانتى رمز المعرفة اللدنية او الوحي الالهى
 الذى به وحده يستطيع الانسان ان يتلقى الكلمة ، وبها
 وحدها تفوق الانسان على سائر احياء الخليقة خلا الملائكة
 عند دانتى . وهى لا تخاف النزول من ضياء النعيم الى
 حيث الخطاة « لان الله وله الحمد خلقنى بحيث
 لا تشقبنى بأساؤكم ولا تحرقنى هذه النيران » . فالذى
 يحس فى الملكوت بالام الخطاة عند دانتى هى « السيدة
 الرحيمة » أى مريم العذراء ، وهى التى أرسلت الى
 بياتريس لوتشيا رمز اللطف الالهى وهى جالسة الى
 جوار راشيل او راحيل رمز التأمل فى الالهيات لتستنهض
 بياتريس لانقاذ حبيبها دانتى الذى ترك العالم الصاخب
 شوقا اليها وهو الان يتعذب من اجل لقيائها
 .وحين اطمأن دانتى الى أن السماء ترعاه بعنايتها ممثلة
 فى هؤلاء النسوة الثلاث تشجع فؤاده الخائف وأقبل
 على رحلته المخوفة بجنان ثابت يهديه دليله فرجيل فى
 طبقات الجحيم .

وبلغ دانتى باب جهنم مدينة الاحزان ، فقرا النقش على الباب يقول : اتركوا كل أمل ايها الداخلون . وقاده فرجيل الى مدخل الجحيم فسمع الانين والاهات والتنهدات والعيول الفظيع الذى مزق الهواء المظلم . قال لفرجيل : ومن هؤلاء يامعلمى ؟ فاجابه فرجيل : هذه الارواح الشقية هى ارواح من عاشوا بلا رذيلة ولا فضيلة ، وهى تشقى على هذا النحو . وقد اختلط بها الملائكة الذين فى ثورة ابليس والعصيان الاول لم يتمردوا على الرحمن ولم يؤازروا ابليس بل وقفوا على الحياض لا يفكرون الا فى انفسهم . ثم يبلغ دانتى شط نهر عظيم ، هو نهر اخيرون وفيه ملاح هو خارون ينادى فى الارواح التى ينقلها من الجحيم الى المطهر بزورقه . ويرفض الملاح ان يفسح لدانتى مكانا فى زورقه فقد كان يعلم انه ليس ممن كتبت عليهم لعنة الجحيم . ثم زلزل هذا الوادى زلزاله فارتعب دانتى وتصبب عرقا واثارت فى هذا الوادى الكئيب الزوابع فانبثق منها نور قرمذى ملك عليه كل حواسه فسقط مغشيا عليه . ثم قعقع رعد عظيم فأفاق من اغمائه فوجد نفسه وقد عبس الى الشاطئ الآخر ، وهكذا دخل منطقة الجحيم

واذا الجحيم مقسم الى تسع دوائر وطبقات كل منها داخل الاخرى أبعدا عن المركز أقلها عذابا وكلما اقتربت من المركز ازدادت فيها الويلات . وفى الطبقة الاولى واسمها لمبوراي دانتى ارواح الصالحين الذين لم يعرفوا نعمة الايمان وجدهم فى الدائرة الاولى التى تحف بالهاوية كالزئار . وللبو كلمة مشتقة من لمبوس اللاتينية ومعناها الحافة أو التخوم ، فنحن اذن فى حافة الجحيم . وهنا لم يسمع دانتى عويلا بل سمع تنهدات مزقت الهواء .

هنا كانت الارواح حزانى ولكن بغير تعذيب . وعلم
فرجيل دانتى ان مارآه هو ارواح الصالحين من غير
المؤمنين بالله ، لهم اخف طبقات الجحيم الى أجل ، لان
صالح الاعمال وحده لا يغنى عن الايمان بالله . هؤلاء هم
الاخيار من اهل الوثنيات الاولى عقابهم ان يعيشوا « فى
رغبة ولكن دون امل » فى تحقيق هذه الرغبة . كذلك علم
فرجيل دانتى ان اول من خلصهم الله بالكلمة من هامش
الجحيم الذى يعيش فيه اخيار الوثنيات الاولى وادخلهم جنة
الايمان والرضوان كانوا ابانا ادم والاخيار من سبط
هابيل ونوح وموسى وابراهيم الخليل وداود . كذلك
راى دانتى من هامش الجحيم أعظم الشعراء من اخيار
الوثنية لان حكمتهم وفلسفتهم قربتهم جدا من الايمان .
راى هوميروس وهوراس واوفيد ولوكان . ثم بلغنا
مشارف قصر كريم طوقته الاسوار العالية سبع مرات
ومن حوله جرى جدول بهى يجميه من العابرين . وعبرنا
الجدول وكأنه من التربة اليابسة ودخلت مع هؤلاء الحكماء
سبعة ابواب حتى بلغنا مرجا خضرته ناضرة . وهناك
راينا قوما عيونهم هادئة ونظراتهم وقورة تفيض بجلال
الامزة . وفى هذا الروض راى دانتى أبطال القدماء رجلا
ونساء : راى اليكترا وهكتور وانياس وقيصر وكاميل
وبنثيسيليا والملك لاتينوس وبنته لافينيا . كذلك راى
بروتوس قاهر تاركوين وراى لوكريسيا وجوليا ومارسيا
وكورنيليا ولا يلفت نظرنا فى كل هذا الا انه راى ايضا
صلاح الدين الايوبى مع هذا الحشد من ابطال اليونان
والرومان . كذلك راى دانتى فى هذا الروض اعلام
الفلاسفة : المعلم الاول أرسطو ، ومعه سقراط وأفلاطون
ولايموقريط وديوجين واناكساغوراس وطاليس

وامبادوقليس ، وهرقليط وزينون ومعهم أورفيسوس
وشيشرون ولينوس وسنيكا وأقليدس وبطليموس
الجغرافى وابوقراط وابن سينا وجالينوس وابن رشد
وآخرون من الحكماء والابطال كلهم كانوا يقيمون فى وادى
النور القرمزى الخافت ، نور الحكمة والفلسفة ، وهو
واد النور فيه خافت لانه نور العقل وليس نور الايمان
الباهر . هؤلاء مع الاخيار غير المؤمنين هم أقرب الناس
الى الجنة ولكنهم ينتظرون لطف الله على هامش الجحيم
ثم يدخل دانتي الدائرة الثانية او الطبقة الثانية من
الجحيم ، فاذا هو فى واد ليس فيه شىء يضىء ، وانما فيه
عذاب يدفع الخطاة الى العويل . ورأى دانتي مالكا خازن
النار الذى يسميه مينوس يكشر عن انيابه ويفحص الخطاة
وهم يدخلون : فهم يعترفون امامهم بخطاياهم وهو يقضى
بينهم فيوزعهم على طبقات الجحيم كل بحسب جرائمه
ويعرف دانتي ان الطبقة الثانية من الجحيم هى جحيم
العشاق الاثمين الذين كانوا يتمرغون فى ملذات الجسد .
ويرى بينهم الملكة سميراميس التى خلفت زوجها
نينوس على عرش نينوى ببابل ، ويرى ديدو صاحبة
انياس التى قتلت نفسها فى سبيل الحب ثم يرى كليونترا
ذات الشهوات العظيمة ويرى هيلانة التى شقى القدماء
لغرامها كذلك يرى من العشاق آخيل عاشق بوليكسينا
وباريس عاشق هيلانه وتيرستان عاشق ايزولدا ، والف
عاشق وعاشقة غير هؤلاء ويخاطب دانتي من اطياف
العشاق طيف فرانثيسكادى ريمنى الشهيرة صاحبة باولو
والغرام الدامى . فقد كانت فرانثيسكا بنت مولى رافينا
متزوجة من ابن مالاتيستا مولى ريمنى ، ثم عشقت أخا
زوجها باولو عشقا تحدثت به الاساطير ، وانتهى العاشقان
نهاية فاجعة حين فتك بهما الزوج نحو عام ١٢٨٥ .

وقالت فرانثيسكا لدانتى عن موعد غرامها الأثم لباولو :
« كنا يوما نستمتع بقراءة قصة لانسيلوت وكيف قهره
الحب وكنا فى خلوة وليس للشكوك الينا سبيل .
وكم من مرة قرأنا فالتقت عينانا وامتقع وجهانا ، ولكن
موقفا واحدا هو الذى قهرنا . فما ان قرأنا عن هذا
العاشق وهو يطبع قبلة على صدر جوينيفير حين اضاءته
البسمة التى كان يتمناها من قلبه ، قبل ثغرى المرتعش
باولو حبیبى الذى لن يفرقه عنى شيء . وكان الفارسي
جالاهاد هو الذى كتب كتاب حينا . وفى ذلك اليوم لن
نقرأ فى الكتاب مزيدا »

وفيما كانت فرانثيسكا تروى قصتها على دانتى كان
صاحبها باولو ينتحب انتحابا مريرا ، غاص له قلب دانتى
فسقط مغشيا عليه

ثم انتقل دانتى يقوده فرجيل الى الطبقة الثالثة من
الجحيم حيث يتعذب النهمون والشرهون ، فوجدها مكانا
لعينا باردا قارس الزمهرير غزير الامطار لا يعرف الصفاء،
مياها مظلمة والبرد والتلج يتساقطان فيها مدرارا
وأرضها عفنة وينبج فيها كلب جهنم كريبروس أو سربيروس
ذو الحلق الثلاثة والعيون الحمراء والمخالب والانياب
الشداد الذى يقر بطون الخطاة . ومن هذه الطبقة
من الجحيم يلتقى دانتى بمن اشتهروا فى التاريخ
بشراحتهم الفظيعة

وفى الطبقة الرابعة من الجحيم يجد دانتى نفسه بين
البخلاء والمبذرين . وفى الهاوية الرابعة حيث العذاب
أشد منه فى الهاوية الثالثة يلتقى دانتى بمن كان همهم فى
الدنيا جمع المال أو تبديده . وفى هذه الطبقة الثالثة
يلتقى دانتى بالباووات والكاردينالات ويكهنه الكنيسة
الذين شغلوا بجمع المال فى الدنيا . ثم التقى ايضا

بالخطاة الذين اعماهم الغضب فى الدنيا الى ارتكاب الاثام
 مثل فيليبو ارجنتى . وهنا بلغ دانتي نهر الاعراف
 (الاستيكس) ووجد الناس فى أحواله ومستنقعاته يتعذبون
 وفى الجحيم الخامس يصل دانتي بعد عبور الاعراف الى
 مدينة هاديس أو ديس كما كان الرومان يسمونها وكانت
 كلها سعيرا من نيران تحيط بها خنادق عميقة واسوار خيل
 لدانتي انها مصنوعة من الحديد . وكان عند ابوابها آلاف
 مؤلفة من الجن الذين هووا من السماء فقد كانوا من قبل
 ملائكة . وأوصدت الجن باب جحيمها فى وجه دانتي .
 ولكنه استطاع ان يتسلل الى مدينتها من باب ليس له
 مزلاج ليشهد مافيها من الوان الآثام والوان العذاب
 وفى مدينة أريس رأى الفوريات الثلاث : ربات الانتقام
 وقد لطختن دماء الضحايا وكانت لهن أجساد النساء
 وسلوكهن ولكن كن يتسربلن بلباس الحيات الخضراء
 وكانت لهن مكان الشعر ثعابين ذات قسزون ، وكانت
 أسماؤهن ميچارا واليكتو وتيسيفون ، وقد كن وصيفات
 بر سيفونا ربة عالم الظلمات وكن يمزقن ائداءهن بأظافرهن .
 وكانت تسكن هذا الجحيم الخامس مدوزا التى تستطيع
 ان تحيل دانتي الى عمود من حجر . ولكن ملكا من النساء
 جاء وانقذه من هذا الجحيم

وهكذا دخل دانتي الطبقة السادسة من الجحيم فوجدها
 خاصة بالزنادقة ، أو المهرطقين ووجد فيها ابوقور
 وشيعته ووجد فيها النبيل كافالكانتى والكاردينال
 أوبالدينى وفرديريك الثانى وأمثالهم ممن أنكروا وجود
 الروح كذلك رأى دانتي قبر البابا استاس الذى ضل
 بعد ايمان . . .

ثم انتقل دانتي الى الجحيم السابع فوجد ثلاث دوائر:
 فى الدائرة الاولى رأى القتلة والطغاة وسفاكى الدماء

وقطاع الطرق ورأى نهرا مياحه دماء نفلى وفيه كان يسلق الاسكندر وديونيزيوس طاغية سيراكيوز وأتيلابيروس وغيرهم من طغاة إيطاليا وسواها . وفى الدائرة الثانية رأى جحيم المنتحرين ، وكان هذا الجحيم عبارة عن غابة أشجارها من الرجال الذين قتلوا انفسهم وكانت هذه الاشجار تنتحب ويسمع لها عويل :

« وسمعت عويلا منبعثا من كل جانب ولم ار احدا ينتحب فذهلت وتوقفت عن المسير . واعتقد ان معلمى اعتقد انى اعتقدت ان كل هذه الاصوات انبعثت من قلب تلك الجنود من أناس اختبأوا فيها منا . فقال معلمى : لو كسرت غصنا من أية شجرة من هذه الاشجار انقطعت أفكارك ثم مدت يدي قليلا ونزعت فرعا صغيرا من غصن شجرة شوكية هائلة فصرخ جذعها قائلا : لماذا تكسرنى ؟ واظلم لونه حتى صار بلون الدم وصاح ثانية يقول : لماذا تكسرنى ؟ اليس فى قلبك ذرة من الرحمة ؟ انما كنا رجالا والآن قد اصبحنا جذوعا . ولو ان أرواجنا كانت أفاعى لكانت يدك أرحم بنا حقا ،

وكان الفرع المكسور يشتعل من طرف ويقطر دما من الطرف الآخر وكان يسمع له أزيز فاختلطت بالدماء كلماته . . هكذا كان عقاب المنتحرين ، أن يتحولوا الى أشجار اجتمعت منها غابة عظيمة فى الهاوية السابعة من جحيم دانتي وكانت تخرج الهاربيات او ربات الانتقام وتأكل أوراقها

اما الدائرة الثالثة من هذه الهاوية السابعة من جحيم دانتي فقد كانت دائرة من الرمال المحترقة وكان يعذب فيها أعداء الله وأعداء الطبيعة وأعداء الفن فى الحياة وكانت تسقط عليهم جمار من نار من غزارة الثلوج على قمم الالب . وفى هذه الدائرة من الجحيم السابع تجرى انهار

الجحيم الثلاثة وهي اخيرون واستكس وفليجيثون نهر
 الدم الذى يغلى وتلتقى هذه الانهار الثلاثة فتكون بحيرة
 كوكيتوس . وهذه الانهار الثلاثة تنبع من مكان ما في
 الدنيا هو جبل ايدا الشهير بجزيرة كريت حيث ولدت
 الربة ريا ولدها زيوس كبير الالهة واخفته من غضب
 ابيه حتى لا يفتك به وهو بعد رضيع . وداخل هذا الجبل
 يقف شيخ عظيم منتصب القامة وقد ادار ظهره شطر
 دمياط ووجهه نحو روما ، اما رأسه فمن ذهب خالص
 وأما صدره وذراعاؤه فمن فضة نقية ، واما جذعه حتى
 مفترق الساقين فهو من نحاس ، واما جزؤه الاسفل فهو
 من حديد فيما خلا قدمه اليمنى فهي من طين محروق ،
 وهو يقف على هذه القدم الفخارية اكثر الوقت ، وقد
 تشقق جسده في كل مكان ماعدا رأسه الذهبى ، ومن كل
 هذه الشقوق تنهمر دموعه وتتدفق فتجرى منها انهار
 الجحيم ، الانهار الثلاثة ونهر رابع اسمه ليثا وهو نهر
 النسيان وصورة هذا الشيخ المعدنى القابع في الجبل
 مقتبسة من حلم نبوخذ نصر فى التوراة (دانيال ، ٢ - ٢١
 - ٣٣) . وهي ترمز لتاريخ الانسانية التى مزت أولا فى
 العصر الذهبى ثم فى العصر الفضى ثم فى العصر البرونزى
 ثم فى العصر الحديدى كما كان القدماء يقولون . وهذه
 الدموع التى تجرى من التمثال المتشقق فتملا أنهار الجحيم
 هي دموع الاجيال المتعاقبة من البشر خطاة كانوا أو معذبين
 وهكذا انتقل دانتى يقوده فرجيل الى الجحيم الثامن
 او الى الطبقة الثامنة من الجحيم . وكانت الهاوية عميقة
 وكان بلوغها صعبا فلن يجد بدا من امتطاء حيوان متوحش
 فعين اسمه جيريون لبلوغها حيوان يجتاز الجبال ويخترق
 الجدران وتتكسر عليه السهام والسنان والنصال ، وجهه

وجه رجل عادل فبشرته الخارجية تتجلى فيها كل معاني
 الخير ، ولكن - جسده جسد الثعبان وكانت له كفان
 يكسوهما الشعر حتى الباط ، وكانت على ظهره وصدره
 وجنبه دوائر وحلقات ملونة « . ويركب دانتي ودليلة
 على ظهر جريون الذي يهبط بهما الى الهاوية الثامنة
 في دوران حلزوني حتى بلغ بهما قاع الهاوية الثامنة
 فتركهما عند صخرة خشنة وانطلق كالسهم واختفى .
 وكانت الهاوية الثامنة هي جحيم الفشاشين والمدلسين
 والمتلقين ، وكانت تنقسم الى سرر او بؤج (بولجيا)
 كل بؤجة منها تجمع طائفة من الخطاة . ورأى فيها من
 ألوان التعذيب خنادق تطفح بالبراز والبول وقد اكتظت
 الخطاة في اوساخها . وفي بؤجة من هذه البؤج رأى دانتي
 سمعان المجوسى الذى اشتهر بأن المسيح الدجال من أتباعه
 ومعه البابا نيكولاس الثالث معلق من رجليه فرأسه من
 أسفل يخاطب البابا بونيفاس الثامن الذى اغتصب الكرسي
 البابوى بالخديعة . ولصعوبة الانتقال بين هذه العرصات
 كان فرجيل يحمل دانتي على ظهره ينتقل به فى هذه
 المنحدرات ويرى البابوات الفاسدين (مثل كلمنت الذى
 نقل البابوية من روما الى افنيون) الذين أقبلوا على الدنيا
 وأحبوا الذهب والسلطان . وفى العرصة الرابعة رأى دانتي
 المنجمين والعرافين والسحرة وامامهم تيرسياس الذى
 كان يتحول باستمرار من ذكر الى أنثى وبالعكس وكانت
 لهذه العرصات او البؤج أبواب وكانت بينها كبارى تعبر .
 وفى العرصة الخامسة من هذه الهاوية الثامنة رأى دانتي
 القضاة الظالمين المرتشين وشهود الزور والذين « من أجل
 المال يجعلون » اللا « نعم » ويفر دانتي من العرصة
 الخامسة ويبلغ العرصة السادسة . فىرى فيها المنافقين
 يعذبون وقد لبسوا معاطف من الرصاص كساها طلاء من

ذهب وفي العرصة السابعة يرى اللصوص وقد القوا في
جحيم امتلاً بالثعابين . وفي العرصة الثامنة يرى المشيرين
بالسوء مثل اوديسيوس وديومييد . وفي العرصة
التاسعة يرى مثيرى الفتنة والشحان ودعاة الانتقام بين
البشر . وفي العرصة العاشرة يرى المزيفين والغشاشين
والكذابين . وفي آخر عرصة من عرصات الهاوية الثامنة،
وهى العرصة العاشرة يرى دانتي العمالقة الذين اشتهروا
بتحديهم لله وبتطاولهم عليه فيرى برج بابل فتبلبت
بسببه السنة البشر ويرى اوتوس وافيالت اللذين كدسا
الجبال على الجبال ليبلغا السماء فصرعهم الله

وأخيرا يبلغ دانتي ودليله الهاوية التاسعة من الجحيم
فاذا هى بحيرة من الجليد حيث البكاء وصرير الاسنان
أعدت لتعذيب الخونة ويجدها من أربع دوائر : الدائرة
الاولى لمن يخونون أقرباءهم واسمها كايكا ، والدائرة
الثانية لمن يخونون اصدقاءهم والدائرة الثالثة لمن يخونون
من يحسنون اليهم ، واسمها يهودية ، وهم أظنع أنواع
الخطاة وعذابهم أظنع عذاب وفي مركز الدائرة الرابعة
من الهاوية التاسعة وهى مركز الجحيم الذى ليس بعده
جحيم يرى دانتي ودليله ابليس وسط البحيرة عملاقا
جسيما . وكان الشيطان دميم الهيئة بقدر ملاحظته قبل
سقوطه . وكان فى رأسه ثلاثة وجوه ، وجه فى مقدمة رأسه
كان لونه قرمزيا من غضب العاجزين ووجهان يغطيان
من منتصف الكتف الى الصدر : الايمن ابيض واصفر
ممتقعا بالحق والغيرة والحسد والآخر اسود بظلام الجهل
وكانه بلون الزوج . وكان له جناحان جسيما بلا ريش
كانهما جناحا خفاش هائل . وكان جناحاه
يصطفقان ثلاث مرات فتهب رياح ثلاثة تجعد ميساه
كوكيتوس . وكانت له ست عيون تبكى دما ودمعا .

وكانت أفواهه الثلاثة تمزق بأسنانها ثلاثة خطاة هم يهوذا الاسخريوطى فى فمه الاوسط وبروتوس وكاسيوس (قاتلى قيصر) وعرف دانتى من رؤية الشيطان انه بلغ مركز الكون ، وان زيارته للجحيم قد انتهت فقد كان الشيطان مفروسا فى مركز الكون رأسه الى اسفل وقدماه الى اعلى .

ولم يبق الا أن يخرج من قاع الهاوية فتعلق برقبة دليله فرجيل الذى حمله زقفونة . قال فرجيل : « تعلق بى بقوة فعلى هذه السلالم لابد ان يكون انصرافنا من هذا البشر العظيم . » وأخترق به فرجيل مركز الارض حتى بلغ به نصف الكرة الجنوبي وظل يسير به حتى اخترق به قشرة الارض فتلألأت أمامهما نجوم السماء

هذه هى الصورة العامة التى رسمها دانتى للجحيم فى « الكوميديا الالهية » . وواضح من وصف دانتى لطبقات الجحيم التسع التى تنتهى عند مركز الارض انه لم يأخذ هذا الوصف من التراث المسيحى المألوف فى تصوير الجحيم ولكن من قصة المعراج فى التراث الاسلامى مع بعض الاختلاف فى التفاصيل عن المصادر الاسلامية الاصلية كرواية ابن عباس وما جاء فى « صحيح » البخارى و (صحيح) مسلم عن قصة المعراج اعتمادا على النص الاندلسى المترجم لقصة المعراج

١ - فتقسيم الارضين الى سبع ارضين مثل تقسيم السموات الى سموات سبع ثابت فى التنزيل الحكيم وفى ابن عباس الذى ذكر فى حديث المعراج ان مكان الجحيم فى الارض السابعة ، فقد جاء فى ابن عباس :

« وانفتح الباب فنظرت فيه الى مشرق من السماء الخامسة الى نحو الارض السابعة السفلى واذا بجهنم مظلمة ممزوجة بغضب الله ودخانها قائم واذا بملك عظيم

الخلقة مرهب النظر ظاهر الغضب شديد البأس صعب
 المراس بين عينيه عقدة لو أشرف بها على الأرض لما اتوا
 عن آخرهم وغارت منه البحار وتفطرت منه الجبال ..
 قال النبي صلى الله عليه وسلم : قلت يا أخى يا جبريل من
 هذا الذى اقشعر منه جلدى ورجف منه فؤادى فقال :
 يا حبيب الله هذا مانك خازن النار خلقه الله من غضبه
 وسخطه ولم يزل منذ خلقه الله وولاه جهنم لا يزداد الا
 غضبا على أعدائه . هذا وملك الموت عزرائيل لا يضحك
 أبدا ..

هذا التقسيم اخذه دانتى عن التراث الاسلامى ، ولكنه
 جعل السموات تسعا من فوقها « الاميريوم » حيث عرش
 الله وجعل طبقات الجحيم تسعا تنتهى فى مركز الأرض
 حيث ابليس مقيم . وحتى التقسيم التساعى بدلا من
 التقسيم السباعى نجده فى قصة المعراج المترجمة الى
 اللاتينية والفرنسية والاسبانية فى تاريخ كان يمكن دانتى
 من الاطلاع عليها وربما كان التقسيم التساعى قد جاء
 تحت تأثير افلوطين وفرقريوس ومدرسة الافلاطونية
 الحديثة بعامة لانها كانت مبنية على التواسيع والتاسوعات
 وهى الدوائر التسع التى يتألف منها الوجود ومركزها
 النور الامثل الذى تخف نورانيته وتمتزج بالظلال كلما
 ابتعدنا فى تسلسل الدوائر عن مركز الاشعاع النورانى .
 ودانتى يسمى خازن النار مينوس بدلا من مالك

٢ - كذلك اخذ دانتى من التراث الاسلامى فكرة تصنيف
 المذنبين فى مختلف طبقات الجحيم بنسبة فظاعة شرورهم .
 وعن ابن عباس :

« فقلت له : ارنى جهنم فقال مالك ليس الامر لى .
 واذا النداء من العلى الاعلى لا تخالف حبيبي محمدا .
 فعند ذلك كشف عنها الفطاء ، فاذا هى سوداء ممتزجة

بغضب الله . وقيل ان نار الدنيا لها ضياء لانها غمست
 في بحر القدرة سبعين مرة حتى صار شعاع ونور ينتفع
 به فرايت فيها سبعين ألف بحر من غسلين وسبعين ألف
 بحر من غساق وسبعين ألف بحر من قطران وسبعين ألف
 بحر من رصاص منوب ، على ساحل كل بحر سبعون ألف
 مدينة من نار ، في كل مدينة سبعون ألف قصر من نار ،
 في كل قصر سبعون ألف تابوت من نار ، في كل تابوت
 سبعون ألف صندوق من نار ، في كل صندوق سبعون ألف
 صنف من العذاب ورأيت فيها حيات كأمثال النخل الطويل
 وعقارب كأمثال البغال ورأيت فيها سبعين ألف بشر من
 الزمهرير »

هذا عن تصنيف العذاب في طبقات الجحيم اما عن
 تصنيف الخطاة في الجحيم بحسب ذنوبهم فقد جاء في
 ابن عباس :

« رأيت نساء باقيات حزينات ينادين فلا يجبن
 ويتضرعن فلا يرحمن : فقلت : من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟
 قال هؤلاء اللواتي يتزين لغير أزواجهن . ورأيت نساء
 عليهن سراويل من قطران وفي أعناقهن السلاسل والأغلال .
 فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء المستخفات
 بأزواجهن اللاتي تقول احداهن لزوجها ما أشنع وجهك
 وما أقبح شكلك وما انتن ريحك .. ألم تعلم بأن الذى
 خلقها خلقه وهو اله واحد . ورأيت نساء قد احترقت
 وجوههن والسنتتهن مندلعات على صدورهن فقلت : من
 هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللواتي يقلن لأزواجهن
 طلقنا من غير سبب . ورأيت نساء معلقات من شعورهن
 ويغلى دماغهن كغلى القدر .. فقلت من هؤلاء يا أخى
 يا جبريل ؟ قال : هؤلاء النساء اللاتي لا يغطين شعورهن
 من الاجانب . ورأيت نساء معلقات بشعورهن ومكبلات

بشديهن بطلايب من نار فقلت : من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أنلاتى كن يرضعن أولاد الناس بغير إذن أزواجهن . ورأيت نساء أرجلهن إلى السنتهن وأيديهن إلى نواصيهن : فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللواتى لا يحسن العشرة ولا يحسن الوضوء . قدرات الثياب والجسد لا يغتسلن من الحيض والجنابة ويتهاون فى صلاتهن حتى تفوت . ورأيت نساء صما بكما عميا فى تابوت من نار يخرج من دماغهن مثل الدهن من مناخيرهن وأبدانهن منتنة تتقطع من انجذام والبرص فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى أولادهن من غير أزواجهن ورأيت نساء معلقات من أرجلهن فى تنور من نار فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء يشتمن أزواجهن ورأيت نساء سود الوجوه يأكلن أمعاءهن فقلت : من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء القوادات اللاتى يجمعن بين اثنين على الحرام . ورأيت امرأة رأسها كراس الخنزير وبدنها كبदन الحمار وعليها ألف نوع من العذاب فقلت من هذه المرأة يا أخى يا جبريل ؟ قال : هذه النمامة التى توقع العداوة بين زوجها والجيران وتسعى بين الناس بالنميمة والكذب ، ورأيت امرأة على صورة الكلب والنار تدخل من فوقها وتخرج من تحتها والملائكة يضربون رأسها بمقامع من حديد فقلت : من هذه يا أخى يا جبريل ؟ قال : هذه المحرشة بين الناس بالبغضاء

» ورأيت رجلا منقلبين على وجوههم وعلى ظهورهم صخرة من نار والملائكة يضربونهم بمقامع من حديد . فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللوطية الذين يأتون الذكران من العالمين . ورأيت رجلا ونساء مصفدات بأصفاد من نار وجباهم قد أسودت والحيات مطوقات

بأعناقهن تلدفهم فتهرى لحومهم ثم يعودون خلقا جديدا .
 فقلت : من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين
 يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله .
 ورأيت أقواما بين أيديهم لحم طيب ولحم خبيث
 وهم يأكلون الخبيث ويتركون الطيب فقلت
 من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين تكون لاحدهم
 امرأة فيتركها ويميل الى الحرام ، والتي تكون مع زوجها
 بالحلل وتميل الى الحرام . ورأيت رجالا ونساء ردت
 أقبالهم الى أديارهم وأديارهم الى أقبالهم والمقامع
 ترشقهم والملائكة تسحبهم على وجوههم كلما ضربوا تلهب
 فى أجسادهم النار . فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟
 قال : هؤلاء الذين يستكبرون على الناس بغير الحق
 الا ترى ان إبليس لما استكبر على آدم فقال أنا خير منه
 تقطعت أجنحته وخرج من الجنة ملعونا ؟ ورأيت رجالا
 ونساء سفايفد النار تدخل فى أديارهم وتخرج من
 أفواههم . فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال هؤلاء
 الهمازون اللمازون الغمازون . ورأيت رجلا يرمون
 بشهب من نار فتقع فى أفواههم وأبصارهم وتخرج من
 أفقيتهم . فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء
 الذين يبتهون الناس ويرمون بينهم بالفتنة . ورأيت نساء
 معلقات بشعورهن فى شجرة الزقوم والحميم يصب عليهن
 فتهرى لحومهن . فقلت : من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟
 قال : هؤلاء النساء اللاتى كن يشرن الأدوية حتى يقتلن
 أولادهن خوفا من مطعمهم ومشربهم وتربيتهم الم يعلمن
 ان الله يطعمهم ويسقيهم ؟ وقد قال تعالى وما من دابة فى
 الأرض الا على الله رزقها - ورأيت نساء مقيدات بقيود
 من نار وقد فتحت أفواههن ولهب النار يخرج من
 بطونهن فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء

المغنيات اللاتي يمتن من غير توبة . ورايت نساء على
 رموسهن قطران والحيات تنهشن فقلت من هؤلاء يا اخي
 يا جبريل ؟ قال : هؤلاء النواحات بالكراء اللاتي يفعلن
 ما نهى الله عنه وقد متن من غير توبة . ورايت رجالا
 ونساء في السعير والنار لها دوى في بطونهم تدخل من
 ادبارهم وتخرج من افواههم . فقلت من هؤلاء يا اخي
 يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين ياكلون اموال اليتامى
 ظلما انما ياكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا . ورايت
 رجالا ونساء يسقون من القيح والصيد كلما حصل في
 بطونهم شيء تمزقت جلودهم ثم يعودون خلقا جديدا فقلت
 من هؤلاء يا اخي يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين ياكلون
 بالربا . ورايت رجالا ونساء رموسهم مغمورة في نار جهنم
 ويصب عليهم الحميم والزهرير يلفحهم فيهرى لحومهم
 فقامت : من هؤلاء يا اخي يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء الذين
 يلقون العداوة بين الناس . ورايت نساء قد مسخن
 واجسادهن سود كالقطران . فقلت : من هؤلاء يا اخي
 يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء اللواتي يصبغن شعورهن ويغيرن
 خلق الله . ورايت النار وأهوالها وعقابها شديد لا تقوى
 لها الحجارة ولا الحديد ورايت فيها أهوالا فداخلني منها
 رعب على ضعاف أمتي واذا باكثر أهلها من النساء . ثم
 انطبق الباب وعاد كما كان »

فاعتماد دانتى على قصة المراج واضح وصريح سواء
 في تصوره لطبقات الجحيم او في تصنيفه لل درجات
 الذنوب والمذنبين . حتى النقش الذي جاء في الحديث
 الشريف عن ابن عباس وغيره ان الرسول قراه على باب
 السماء الخامسة قبل ان ينكشف له غطاء الجحيم مباشرة
 نقله دانتى فجعله نقشا على باب الجحيم وغير مدلوله
 بما يناسب ملحمته ومعتقداته . وبعض الاختلافات راجع

الى النص الاندلسى لقصة المعراج الذى اطلع دانتي على ترجمته
وقد افاض اسين بلاسيوس ومونيزسندينو فى وصف تأثر
دانتي بابن عربى وبخصوص قصة المعراج ورسالة
الفقران بما لم يقنع الدكتور بنت الشاطىء ولكنه
اقنعنى

٣ - ليس فى قصة المعراج فى أى نص من نصوصها
ذكر لأشخاص محددين بالذات فى الجنة فيما خلا بعض
الأنبياء والملائكة المعروفين باسمائهم فهؤلاء نجدهم فى
النعيم معينين بأشخاصهم كذلك الحال فى الجحيم لا ذكر
فيه إلا لعزرائيل ملك الموت ومالك خازن النار . وإنما فى
قصة المعراج وصف لأهل النعيم وأهل الجحيم . وفكرة
التقاء زائر العالم الآخر بأشخاص محددين بالذات ممن
عرفهم صاحب الرؤيا فى الدنيا أو سمع بأخبارهم وأعمالهم
فكرة نجدها قوام « رسالة الفقران » وقوام « الكوميديا
الالهية » معا وهذا ما يوحى بأن دانتي قد اطلع على
صيغة ما من كتاب المعرى مترجمة أو ملخصة فى احدى
اللغات الأوروبية . ولا شك ان زيارات العالم الآخر فى
الأدب اليونانى واللاتينى تتميز بقاء الأبطال فى النعيم أو
الجحيم . ولكن التفات دانتي الى مصير اخيار الناس فى
العالم القديم قبل ظهور ديانات التوحيد والى مصير
فلاسفة الوثنيات الأولى وحكمائها ، ووضعهم فى مدخل
الجحيم وعلى هامشه حيث العذاب هين وحيث الأمل فى
النجاة أقوى ما يكون أو على الأصح فى « لمبو » أو
المحبس القائم بين الجنة والنار يذكرنا باهتمام المعرى
بمصير شعراء الجاهلية الاخيار ونجاتهم من جهنم بفضل
اهتدائهم بالفطرة الى شىء قريب من الايمان الصحيح
وهو ما لم يرد فى قصة المعراج كذلك يذكرنا جحيم الزنادقة
فى دانتي بما جاء فى « رسالة الفقران » من وصف لعذاب

الزنادقة في الجحيم وهو ما لم يرد في قصة المعراج كذلك وصف دانتى لجحيم الجن يذكرنا بوصف المعرى لجنة العفاريت المؤمنين التي تقع في مكان معزول من الجنة وهو ما لم يرد في قصة المعراج . فاذا ما ذكرنا كيف ان فرجيل في تنقله بين طبقات الجحيم حمل دانتى على ظهره أنا أو امتطى معه ظهر الجنة جريون لم يسعنا الا أن نذكر أيضا دعايات المعرى حين جعل ابن القارح يقترح على الجارية ان تحمله على ظهرها « زقفوئة » حتى تكتب له « السلامة في عبور الصراط وهى وسيلة للانتقال لم يرد ذكرها في قصة المعراج »

وربما أخذ دانتى من المعرى أيضا تصويره لابليس وهو يرسف في السلاسل والاصفاد في الجحيم ، حيث يقول : فيطلع فيرى ابليس لعنه الله وهو يضطرب في الاغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذ من أيدي الزبانية . أو من قوله تعالى في القرآن الكريم عن مآل الكافرين : « خنوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » وقوله : « أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال في أعناقهم » (ه الرعد ١٣) وقوله : « وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا » (٢٣ سبا ٣٤) وقوله : « اذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون » (٧١ غافر ٤٠) أو قوله : « انا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا » (٤ الانسان ٧٦ الخ) . وفي قصة المعراج لم يرد ذكر لابليس بين عرصات الجحيم . فهذه المقابلات وأمثالها تجعلنا نرجح أن دانتى كان على معرفة « برسالة الغفران » في صورة من صورها الى جانب معرفته المحققة بقصة المعراج ومعرفته المرجحة بالقرآن الكريم

الكوميديا الإلهية : الفردوس

بعد « الجحيم » « المطهر » ، وبعد « المطهر » « الفردوس » :
 هذا هو الهيكل العام لزيارة دانتي للعالم الآخر . وقد كان دليل
 دانتي في الجحيم هو الشاعر فرجيل اما دليل دانتي في الفردوس فهو
 بياتريس جبهة دانتي التي أتخدمتها رمزا للتأمل في الإلهيات أو
 للمعرفة اللدنية . وفي رؤيا الفردوس رأى دانتي قبة السماء وهي
 بيضاء ، ورأى فيها « سراج العالم » أى الشمس تسطع على العالمين ،
 ورأى بياتريس دليلته ، تلتفت الى الجانب الأيسر وتحقق في
 الشمس . وكأنها نسر لا يخاف الضياء . وحقق هو في بياتريس مثلما
 حدثت هى في الشمس . ولطول التحديق في ضياء بياتريس سقطت
 من دانتي طبيعته البشرية وتحول الى جوهر بغير ناسوت . وكما نزل
 دانتي تسع طبقات من هاوية الجحيم حتى بلغ قاع جهنم في مركز
 الأرض حيث رأى إبليس مفروسا كالتنين الهائل ، كذلك صعد على
 المعراج تسع سموات حتى بلغ « الأميريوم » أو سماء العنبر التي تقع
 فيها « السماء الدرية » (الكريستال) حيث « المحرك الأول » كما
 يقول دانتي

وصعد الى السماء الاولى ، وهى سماء القمر ، وكانت تقدمه
 بياتريس فقالت له : « هيا اسم بعقلك واحمد الله الذى جعلنا
 نتحد بالنجم الاول » ، وكان هذا النجم الاول ، أو الكوكب الأول ،
 هو القمر فحمدا لله على أنه أنتشله من دنيا البشر ثم سألها عن
 بقع القمر وما يقال على الأرض من انها تصور قابيل وقد حمل فخص
 الشوك ليوقد به نارا وهو يقدم قربانه . وكان دانتي في كل مرحلة
 من مراحل صعوده يزداد معرفة بالاسرار الإلهية ، يسأل فتجيبه
 معلمته بياتريس أو تجيبه الأطياف المباركة التى يلتقى بها من كل سماء
 يرقاها ، فكانت كل سماء تمثل درجة من درجات المعرفة ، وكان القمر
 أقربها الى الأرض . وابتسمت بياتريس ونهته الى سداجة حواس

البشر الذين لا يبلغون المعرفة الا من طريق الحواس ، وفرت له نظام الكون الذي يقوم على انبثاق حركات الافلاك وخصائصها من مصدر أعلى هو المحرك الاول الوجود في السماء الدرية الدائرة في الامبريوم الساكن او سماء العنبر الساكنة ، وهذا المحرك الاول في السماء التاسعة هو الذي يفدى كل ماتحته من سموات تسع بالحسركة والخصائص من خلال محركات مباركة هي الملائكة ، فهي الادوات التي ينتقل بها كل شيء من عقل الله الى الخليفة . وفي السماء الاولى ، سماء القمر ، يلتقى دانتى بأطياف نساء صالحات ولكن صلاحهن غير تام . ويعرف من بياتريس ان هذه السماء الاولى خصصت لمن أعطوا العهد لله ثم لم يستطيعوا الوفاء بالعهد . ويلتقى دانتى بروج بيكاردا ، ويعلم منها انها كانت أختا عذراء من راهبات سانت كلير . وكانت بيكاردا رغم سكنها في السماء السفلى او السماء الاولى كغربة كحورية وضاعة وقد زالت عنها طبيعتها البشرية وتحولت الى حورية من حور الجنان ، وكانت هي وأترابها يعيشن في سعادة غامرة . وسألها دانتى قائلاً : « أأنتن يامن تعيش هنا في سعادة ، الا تتمنين ان ترفعن الى مكان أعلى حتى تزداد رؤياكن ، وتضمن بمزيد من الاجاء ؟ » فأجابته بيكاردا - باسمه : « أى أختى ان فضيلة الخير تلهب ارادتنا ، وتجعلنا لا نرغب الا فيما نملكه ، وهى لا تلهب ظمأنا الى شيء آخر . فلو اننا رغبتنا في مرتبة ارفع من مرتبتنا فان رغبتنا ستتعارض مع ارادة الله الذى خصص لنا هذا المكان .. وملك الملوك هو الذى ينفلد فينا ارادته ، وارادته هى «سلامنا .. » ان بيكاردا كما تقول قد تبعت سيدة أعلى منها مرتبة في الطهر وأعلى منا مرتبة في النعيم هى سانت كلارا التى كانت مثلاً نادراً في الزهد ، وحين تبعتها أعطت العهد الا تتزوج طيلة حياتها وفرت من الدنيا وهى لا تزال بنتا صغيرة لتعيش في زهد كامل مع القديسة كلارا . ولكن أهلها أخرجوها من الدير عنوة وأوغموها على الزواج فشقيت شقاء عظيماً . ومثلها ايضا الاخت كونستانس بنت ملك صقلية . قصتها هى نفس قصة بيكاردا وضياؤها مثل ضيائها فى السماء السفلى ، سماء القمر . أعطين العهد ان يتبتلن فى الدير ثم حشن بالعهد . وتساور دانتى الوسواس حول العدالة الالهية لانه لا يفهم لهؤلاء النسوة دنيا ما وقد أكرهن اكرهاها على قبول الدنيا ، ويظهر فى كلامه نوع من الاحتجاج على الحكمة الالهية ، فيأتيه الجواب : « هلر لارادة ناقصة لتقاوم الشر او العنف ، وفى تاريخ الصالحين والصدّيقين أمثلة رائعة على مقاومة الشر او العنف والاساس فى الحكم الالهى ان الانسان مخير لا مسير ، وقد وهبه الله ارادة وهو يحاسبه على ممارسة هذه الارادة . ونحن لا نستطيع ان نفهم دانتى حق الفهم الا اذا ذكرنا انه كان يعبر عن الفلسفة المسيحية فى المفهوم الوسيطى ، تلك الفلسفة التى كانت تفسر عن عليّ النجاشي

الرهيبانية والنسك في الأديرة ، وعدم الحياة الدنيا مجرد مقبسر الى الآخرة كل ما فيه مما يتصل بحياة الجسد شر ونجاسة ونقص . وبهذا المنطق كان ينبغي على بيكاردا وكونستانس مقاومة القسر الواقع عليهما لردهما من الدير الى الحياة وهما عند دانتى قادران على مقاومة هذا القسر ، لان نظامه الدينى الفلسفى يقوم على الاختيار لا على الجبر أو كما قالت بياتريس لدانتى في النشيد الخامس من « الفردوس » : « ان أعظم هبة وهبها الله الكريم للخلقة وهو يخلقها ، وأعظمها تمسها مع طبيعته الخيرة ، وأعظمها منزلة عنده ، كانت حرية الإرادة ، التي اختص بها مخلوقاته العاقلة ، كل مخلوقاته العاقلة وليس غير مخلوقاته العاقلة . اختصهم بها في الماضى ويختصهم بها في الحاضر »

وبعد أن تعلم دانتى هذا الدرس في السماء الاولى ، صعد الى السماء الثانية وهى سماء عطارد تقوده بياتريس ، وكانت هذه السماء مستقر الأرواح المباركة التى قضت حياتها على الأرض في التماس المجد والشرف . وكان ظل الأرض لا يزال بعضه ساقطاً على سماء عطارد ، وهى في درجة خفيفة من السموات ، فضياؤها ناقص في الصفاء . لان أهلها تعلقوا بمجد الدنيا أكثر مما تعلقوا بمجد الآخرة وفى السماء الثانية التقى دانتى بالامبراطور المشرع جوستينيان « العادل » الذى حكم روما عام ٥٢٧ واشتهر بمدونة القوانين المعروفة باسمه واشتهر أيضاً بأنه رد « النسر » الرومانى ، الذى كان رمز الامبراطورية الرومانية من الشرق الى الغرب ، بعد ان كان قسطنطين قد نقله الى بيزنطة عام ٣٢٤ . وفى سماء عطارد لقت بياتريس دانتى شيئاً من الالهيات : علمته ان الانسان خير بالطبع او على الاصح ان الله خلق الانسان بفطرة خيرة ، وان سقوطه الذى تربى عليه نفيه من الفردوس كان عقاباً عادلاً مستحقاً لا ظلم فيه من زلله وضلاله لانه أعطى القدرة ان يسير في طريق الخير ولكنه تنكب عنه او كما قالت بياتريس في النشيد السابع من « الفردوس » ، « هذه الفطرة حين كانت متحدة مع خالقها كانت صافية وخيرة ولكنها نغيت من الفردوس بفعلها هى لانها حادت عن طريق الحق وحادت عن حياتها » وهذا يدل على عدالة الحساب في الآخرة

صعد دانتى الى السماء الثالثة ، سماء فينوس أى سماء الزهرة ، تقوده بياتريس فى جنباتها . وفى سماء الزهرة التقى دانتى بكوكبة من الاطيفاف الباهرة التى سمت اليه فى نورانياتها لترغيبه . وكانت « فى ذلك الجزء من بلاد ايطاليا الشريرة بين الريالتو (فى الهندية) احدى هذه الاطيفاف هى كونيترزا دا رومانو . قالت كونيترزا لدانتى : بين ينابيع البرنيتا والبيافا « فى جبال الالب » هناك كل ارتفاعه لمعظمهم ، سقط منه مشعل انقض على ذلك الاقليم فأشاع فيه لهيباً عظيماً .

كان عنصرى من عنصره فقد ولدنا من منبت واحد . ويسموننى كونيترًا ،
وانى اتلأ هنا بالضياء لان نور هذا النجم قهرنى . وانى لاسلم
بنفس راضية بسبب قسمتى ونصيبي ، وهو ماقد يبدو أمرا يسيرا
للدهماء فى أرضكم . وهذه الجوهرة الساطعة العالية التى ترين جبين
مملكتنا ، هذه الجوهرة التى تراها بجوارى وأقرب ما يكون الى ، قد
بقى صيتها العظيم الذى لن يخمد قبل أن تدور دورة القرن خمس
مرات » والذى تريد كونيترًا أن تقوله هو أنها تعرف أن خطيئة غرامها
هى التى أنزلتها هذه المنزلة الخفيفة فى الفردوس فهى فى السماء
الثالثة فقط لا تتجاوزها الى سماء أعلى منها . وهى مثل بيكاردا قاعة
بمصرها لأنها تدرك خطيئتها التى غفرت لها ، أما الارواح التمردة فهى
وحدها التى تشك فى عدالة الحكم الالهى ، أما الجوهرة اللامعة المجاورة
لها فهى طيف حبيبها فولكو او فولكيت المنسوب الى مرسيليا الذى
كانت تمسقه أثناء الحياة . وقد كان فولكو فى شبابه شاعرا جوالا
شهرا من شعراء التروبادور عرف بالفسق والمجون ، ثم تاب وأتاب
وانقطع للعبادة حتى أصبح أسقف تولوز وقد مات عام ١٢٣١ . وما
تعلمه دانتى فى سماء الزهرة هو ان الحب صاف نقى على ذلك
الحب الذى يملأ الارواح فى سماء الزهرة ، هذه الارواح الائمة ، بعد أن
تطهرت من انهما فى المطهر غفر لها ونسيت زللها وهى الان بتتسم فى
سعادة غامرة لان القدرة الالهية غسلت قلبها من الشهوات . وقد كانت
سماء فينوس هى آخر سماء سقط عليها ظل الارض . وهو يظل
مخروطى الشكل بحسب ما علم بطليموس فى علم الفلك . وفى دانتى أن
ظل الارض حيثما يسقط سواء على سماء القمر او على سماء عطارد
او على سماء الزهرة ، كان يتجلى فى ضعف الارادة امام قوى الشر كما
فى قصة بيكاردا او فى الاطماع البشرية كما فى قصة كونيترًا . وهذا هو
السبب فى حشر ارواح هؤلاء الخطاة بعد خلوصهم من المطهر فى المراتب
المظلة من الفردوس ، وهى أخفض مراتب

وبعد أن يفرغ دانتى من زيارة السماء الثالثة يصعد لزيارة السماء
الرابعة ، وهى سماء الشمس ، تقوده بياتريس ، وهى السماء التى
تسكنها ارواح الحكماء وفقهاء الدين . وهى بداية السموات المعلقة
النورانية . ومن السماء الرابعة او سماء الشمس يرى دانتى روح
القديس توماس الاكوينى (١٢٢٥ - ١٢٧٤) ومعه ارواح عدد غفير من
الحكماء والفقهاء مثل البرتوس ماجنوس (١١٩٣ - ١٢٨٠) وجراتيانوس
(القرن ١٢) وبطرس اللومباردى (القرن ١٢) ويرى طيف أوردوسوس
المؤرخ الدينى (ق ٤ - ق ٥) وأيسيدور الاشبيلى (توفى ٦٤٦) وبيد
(توفى ٧٣٥) وغيرهم ، وكلهم من علماء اللاهوت وفلاسفة الدين . وكان
أجمل طيف يسطع بين هذه الاطيف طيف سليمان الحكيم . وكان بين

هذه الاطيان طريف بعض فقهاء الدين الذين اهتمتهم الكنيسة بالزندقة
وامعدمهم بسبب اجتهاداتهم الدينية التي كانت غير سائفة للبابوات
الفاستدين ، ومثل هؤلاء المصلحين الدينيين في فردوس دانتي سيجر
البرابانتى (الهولندى) الذى كان في اوائل حياة دانتي استاذاً لفقهِه
الدين في جامعة باريس ثم اعدته كنيسة روما في اورفيتو بسبب
دعوته للاصلاح الدينى واجتهاده في تفسير الدين ، وفى السماء الرابعة
قال دانتي ان ما رآه من بهاء « شمس الملائكة » وماتوحى به من التعبد
والتهجد الهاء عن بياتريس وابتناسمتها الوضاعة ومع ذلك فلم تفضب
بياتريس لذلك وان سماء الشمس هذه ، وهى « ساحة السماء » كان
بها من الجواهر والاحجار الكريمة انفسها واجملها . وقد دارت من
حول دانتي وبياتريس الملائكة النورانية وهى تسبح وتتلالا كالشمس
التي يعشى سناها الابصار ، دارت حولها ثلاث مرات وتجلت لعيني
دانتي في صورة نساء ثلاث ، وسمع احدها من تقول له : « مادام نور
اللطف الالهى الذى به تشتمل نار الحب الحقيقى ثم تتكاثر بالحب
اشعته يسطع عليك فيقودك الى عليين على ذلك السلم الذى لا يهبط
به صاعد عليه ، فان من يقبض عنك خمر قنينته وانت عطشان مثله
مثل الماء الذى لايجرى الى البحر وهو كبت بالضرورة محال وحرية
تلفيها نواميس الطبيعة » وفى حلقة اخرى من حلقات حكماء الدين في
هذه السماء الرابعة يلتقى دانتي بالقدس بونافنتورا الذى يشرح له
سيرة القديس دومنيك . وكانت ارواح الحكماء فى هذه الحلقة الملائكية
تدور حول دانتي وبياتريس كالحلقة الاولى وكأنها الرحي المقدسة او
كانها اكليل دائر من الورد الابدية . وكانت هذه الرحي الملائكية او
الورد الابدية تضم هيجوسان فكتسور (١٠٩٧ - ١١٤١) ويوحنا
كريزوستوم اى فم الذهب والاب انسلم (١٠٣٣ - ١١٠٩) والقديس
دوناتوس وغيرهم وغيرهم من كبار فقهاء الدين كل ذلك والقديس
توماش الاكوينى يشرح لدانتي فلسفة الدين ويعلمه ان العقل البشرى
غير قادر على الحكم الصحيح فى امور العقيدة وتنتهى زيارة دانتي
للسماء الرابعة بصلاة بياتريس التي عادت الى عملها الاول وهو قيادة
خطى دانتي ..

وهكذا ارتفعت بياتريس الى درجة ارفع من درجات الخلاص هى
السماء الخامسة ، سماء المريخ ، حيث وجد دانتي ارواح « جنود
المسيح » . وفى هذه السماء لقي دانتي اسلافه ، فانتحت بياتريس
مكاناً قصياً لتفسح لهم المجال ليتحدثوا فى شئون الاسرة وفى حظ دانتي
ومصيره . ولكن سعادة دانتي تزداد بمقدار ما يرتفع من سماء الى
سماء وبمقدار ما يقترب من الامبريوم او من سماء العنبر ، وهى اعلى
سماء . ثم يرتقى دانتي الى السماء السادسة وهى سماء جوبيتر او
سماء المشتري . ووجد دانتي نور المشتري ابيض هادئاً على غير ما رأى

من نور المريح الأحمر الثاني . وقرأ على كوثب المشتري نقشاً حروفه من نور ونوره من صفوف الملائكة وكان النقش حكمة من سليمان الحكيم تقول : « احبوا العدل يامن تحكمون في الارض » وكانت الحروف من ذهب وفضة . وسمع صوت النسر الرومانى وهو يتكلم عن العدالة الالهية ، وقد كان النسر عند دانتى هو رمز الامبراطورية الرومانية التى كان يعتقد انها دولة مقدسة وظيفتها تحقيق العدالة على الارض . . ورأى في سماء المشتري النسر النورانى مرصعا بالدر والياقوت ، وسمع فيها غناء العادلين وترتيلهم . وتكلم النسر فعرف منه دانتى انه قد تجسدت فيه ارواح بعض الاباطرة والابطال العادلين مثل تراجان وقسطنطين وريبوس الطروادى ، وكان بعضهم ممن عاشوا ايام الوثنية الاولى ولكنهم عدلوا عدل المؤمنين الصادقين ، فدانتى يقول ان من الوثنيين والمجوس من هم احق بالجنة من المسيحيين

« وفي السماء السابعة ، وهى سماء زحل (ساتورن) ، رايت داخل الدرة التى تحمل اسم هذا الزحل الشهير وهى تدور حول الارض ، هذا العامل الذى ماتت كل الشرور في زمنه ، رايت معسراجا بلون الذهب يضئ عليه شعاع من الشمس ، وكان هذا المعراج يصعد الى اعمال قصر بصرى عن رؤية مداها » وزمن زحل كان في اساطير القدماء يمثل العصر الذهبى للانسان . ورأى دانتى حشدا من الملائكة بلا عدد يهبط السلم من عليين ليرحب به ترحيبا . واخذت هذه الانوار الالهية تدور من حوله كالرحى السريعة وكانت هذه الملائكة هى ملائكة الساروفيم والشاروبيم (الكروبيون) ، وكان معها القديس بندكت والانبيا مكاريوس الاسكندري والانبيا انطونيوس مؤسس الرهبانية في مصر ويدعى دانتى الى الصعود الى السماء الثامنة ، سماء النجوم وما فوقها حتى الامبريوم : « قال : يا اخى ، ان رغبتك السامية مستحق لك هناك كل الامانى كاملة وناضجة وتامة . . فهى سماء لائق في مكان وليس لها قطبان ومعراجا يبلغها وهو لهذا يختفى عن بصرك . هو في عليين رآه ابونا يعقوب يمتد في الاعالى حيث بدا له محملا بالملائكة . وهو معراج لا يرتقيه احد باقدامه على الارض » وسماء العنبر ثابتة لا تتحرك اذ ليس لها محور تتحرك حوله ولا قطبان قالت بياتريس لدانتى : « انك قد اقتربت من خلاصك الاخير فيجب عليك ان تجلو بصرك ليصبح ناقبا » ويتأهب دانتى لدخوله النعيم ، وهو اعلى درجة من درجات الفردوس . قالت بياتريس : « لم تدلعت في عشق وجهى حتى الهاك العشق من النظر الى الحديقة الفاتنة التى اينمت تحت ضياء المسيح ؟ ها هي ذى الوردة التى فيها أصبحت الكلمة الالهية جسدا : وهذا هو السوسن الذى هدى شذاه الى الطريق القويم » وكانت الوردة هى مريم العذراء « روزا ميسيتكا » كما كانوا يسمونها. قالت بياتريس لتدفوه لدخول الفردوس : « اقتح مينيك وانظر الى

ما اكون . انك قد رايت من الاشياء ما جعلك تحفظ على ابتسامتى .
قال دانتي : « كنت كمن أرتد الى نفسه من رؤيا منسية وحاول مبنا
ان يستعيدھا في خلده ، عندما سمعت دعوتھا ، هذه التى تستحق كل
حمد فلا يجوز ان تزول من كتاب الذاكرة ، سجل الماضى . فاذا كانت
بوليمنيا ، ربة الغناء وأخواتھا قد أغدقن من علب لبنهن على كل هذه
اللسنة المسیحة ليشجعننى ، فان التسبیح بهذه الابتسامة المقدسة
وكيف أضاعت هذا الوجه المقدس ليتجاوز في صدقه ألف مرة غناء ربة
الغناء » وقال عن الوردة : « ان اسم الزهرة الجميلة الذى أناديه دائما
أبدا في صباحى ومسائى قد شغل عقلى فعاقتى عن النظر الى النار
الكبرى . وحين امتلات عينى بضياء ذلك النجم الحى القاهرة الان فى
قلبك كما كان قاهرا على الأرض ، وامتلات بجرمه العظيم ، رايت مشعلا
من وسط السماء يرسم دائرة فى صورة اكلیل من الزهر هبط واحاط
بھا كالزناد ودار من حولھا دورانا ، وان اغانى الأرض مهما كانت
جميلة تسحر الروح تبدو كالغیمة التى تنشق فتزعد وتقعقع اذا هی
نست بصوت تلك القيثارة التى توجت بھا الزمردة البهیة التى لونت
المع السموات بخضرة الزمرد » . وقال النشید الجمیل : « انا الحب
المالکى وانا اطوف حول الفرحة العظمى التى تنطلق من الرحم الذى
كان مستقر شوقنا . ویا سيدة السماء ، لسوف اطوف واطوف حتى
تسبى ولدك وتجعلی السماء العليا أكثر الوھیة بولوجھا » . وهكذا
بلغ النشید النوار ختامه فنادت كل الانوار الاخرى باسم مريم نداء
جلجل صدها »

وكانت السماء التاسعة هى « المعطف الملكى » الذى التفت به أعطاف
الكون . كانت السماء التاسعة حیث « المحرك الاول » تلف كل
السموات الاخرى وتدور حولھا فتدفعھا الى الحركة . وحين اراد
دانتي دخول السماء التاسعة ، وجد نفسه امام القديس بطرس ،
فقبل مفاتيح الفردوس فى المعتقدات المسيحية ، الذى لم يأذن له فى
الدخول قبل امتحان ايمانه . ثم تجلى لدانتي ايضا القديس يوحنا
فى ضياء يمشى الابصار ففقد دانتي بصره بعض الوقت وكان يوحنا
يسأل دانتي من الحب الالهى فيجيبه . وحسنت اجابة دانتي فاسترد
بصره فتجلى له أبونا آدم أيضا فى السماء التاسعة وكالم دانتي ادم
فعرف منه سبب سقوطه ونفيه من الفردوس الاول . قال ادم لدانتي :
« والان يا بنى لا تحسب ان الاكل من الشجرة فى حد ذاته هو الذى
جر على هذا النفى المديد ، ولكنى نفيت من الفردوس لانى تجاوزت
الحدود » وهكذا دخل دانتي وبياتريس « السماء الدرية » او سماء
الكريستال ، وما هذه الا السماء التاسعة حیث يسكن المحرك الاول ،
وفیھا تعلم دانتي ان الملائكة انفسهم مقسمون الى تسع طبقات يسكن
كل منها سماء من السموات التسع بحسب رتبهم

وكان دانتي يرى نور الله معكوسا في عيني بياتريس . وصعد الى
 سماء الامبريوم أو سماء العنبر وهي النعيم ، خاتمة المطاف التي هي
 فوق كل سماء فوجد النورانية كاملة فقد كانت السموات التسع رغم
 ما فيها من ضياء عظيم سموات مادية أو درجات من الوجود في الكون ،
 اما هذه فقد كانت سماء خالية من أية شبهة للوجود المادي . ورأى
 فيها نهر النور قال دانتي : « ورأيت النور في هيئة نهر يتللا بالضياء
 يجري بين ضفتين نقشتا بينوع عجيب . ومن هذا المجرى خرجت
 شرارات حية وفي الجانبين كانت هذه الشرارات تستقر في الأزهار
 وكأنها عقيق يساوره الذهب ، ثم كانت تتطاير من جديد وكأنما أسكرها
 العنبر وتندمج في التيار العجيب . وكلما عادت الى نهر النور شرارة
 خرجت من شرارة » . ويسترسل دانتي في وصف الجنة فيقول عن
 بياتريس : « وهكذا قالت لي شمس عيني : هذا المجرى وهذا
 الزبرجد الداخل الخارج وهذا السندس البسام انما هي ظلال
 لحقائقها المثلى » كذلك يقول دانتي : « وجذبني بياتريس في صمت
 من يريد الكلام فأدخلتني بين أوراق الوردة الابدية الصفراء التي تنتشر
 على مدى واسع وترتفع في طيات وتنفس عبر الشكر للشمس التي
 تنفجر منها عين دائمة . قالت : « انظر ! ما ارحب دبرنا ذي الوردية
 البيضاء ! وانظر ما أوسع رحاب مدائننا ! وانظر الى أرائكنا تجدها
 ملأى بالاختيار فلم يبق من البشر من ننتظرهم الا الاقلون » ولكن دانتي
 لم ير « الوردية البيضاء » الصافية البياض الا حول العرش ، وكانت
 أوراقها من الملائكة الناصعة البياض . ورأى راية السلام منشورة في
 وردة الفردوس حيث جلست مريم العذراء . وتنتهي « الكوميديا
 الالهية » بصلاة موجهة للعذراء وبرؤيا الخلاص الابدی في النعيم .
 هذه خلاصة « الفردوس » عند دانتي ومنها يتضح ان فكرته
 الاساسية عن النعيم ، كفكرته الاساسية عن الجحيم ليست مأخوذة
 عن التراث اليوناني والروماني الذي تثقف به ولا عن التراث المسيحي
 الذي نشأ فيه ، ولكن مأخوذة عن التراث الاسلامي الذي درسه
 وتمثله وانتفع بأهم رموزه مهما كان قد حوره هنا وهناك ليناسب
 معتقداته المسيحية . وهو لم يأخذ عن التراث الاسلامي المعالم العامة
 للفردوس فحسب بل أخذ عنه كثيرا من التفاصيل المحددة التي نجدها
 مبثوثة في كل مكان في « الكوميديا الالهية » . ولا شك ان مصدر دانتي
 الاول كان قصة المراج ، والراجع ايضا انه كان دارسا للقرآن الكريم ،
 وليس بمستبعد انه كان عارفا برسالة الغفران على نحو ما وربما بغيرها
 من عيون ادب الدنيا والدين في العالم العربي

والصورة العامة للجنة في حديث المراج عن ابن عباس وغيره هي
 الصورة العامة لفردوس دانتي واستلهم دانتي لقصة المراج واضح
 وصريح . فحديث المراج عن ابن عباس يبدأ بأن الرسول كان في بيت

أم هاني بنت أبي طالب رضى الله عنها وأسماها فاخته ليلة الاثنين ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان من البعثة وكان عندها فاطمة الزهراء رضى الله عنها وعمرها تسع سنين . ولم تكن تزوجت بعلى رضى الله عنه لأنه تزوجها بالمدينة المنورة . وإذا بالباب قد طرقة طارق فخرجت فاطمة لترى من بالباب فرأت شخصا عليه الحلى والحلل وله جناحان أخضران قد سد بهما المشرق والمغرب وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجوهر مكتوب على جبهته لا اله الا الله محمد رسول الله ، وكان الطارق جبريل الذى أوفد ليبلغ الرسول « فانك فى هذه الليلة تناجى ربك » وخرج النبى الى الصحراء « فاذا بالبراق قائما وجبريل يقوده واذا هو دابة لا تشبه الدواب فوق الحمار ودون البغل له وجه كوجه ابن ادم وجسده كجسد الفرس وهو دابة خير من الدنيا وما فيها من اللؤلؤ الرطب منسوج بقضبان الياقوت يلمع بالنور وأذنانا من الزمرد الاخضر وعيناها مثل كوكب درى يوقد لها شعاع كشعاع الشمس شهاب بقاء مجملته الثلاث مطلقة اليمين عليها جل مرصع بالدر والجوهر لا يقدر على وصفها الا الله » وركب النبى البراق يقوده جبريل « فسار جاريا بين السماء والارض » حتى بلغ « وادى العقيق » فنزل وصلى ثم استأنف رحلته واستوقفته فى رحلته ثلاثة أصوات : صائح عن يمينه هو داعى النصارى وصائح عن شماله هو داعى اليهود ثم امرأة هى فتنة الدنيا ناشرة شعرها ، عليها من كل زينة خلقها الله تعالى من الحلل والجواهر والدر والياقوت قد أشرق حسنها وجمالها وهى تنادى وتقول : يا محمد قف حتى أكلمك فانى انصح لك ولاملك » ولكن النبى تجاهل كل هذه الاصوات لانه استشمر انها أصوات الفواية والضلال وانها معوقة له فى رحلته الالهية . حتى بلغ بيت المقدس وفيها رأى « شابا حسن الثياب طيب الرائحة » وروح دين الاسلام تمثل أمامه بشرا وعانقه ثم اختفى وفى بيت المقدس عرض جبريل على النبى ثلاثة أقذاح من لبن « الفطرة » وخمر الفواية مسطورا ان لو شرب القدح كله لملأ دخل أحد النار من أمته : « ثم وماء » الهلاك غرقا » ، فاختار النبى اللبن وشرب أكثره ، وكان مسطورا ان لو شرب القدح كله لما دخل أحد النار من أمته : « ثم ان جبريل عليه السلام أتى بى الى الصخرة من عنان السماء فلم أر شيئا أحسن من المعراج وهو مرقاة من الذهب ومرقاة من الفضة ومرقاة من الزبرجد ومرقاة من الياقوت الاحمر » وهنا ضمّه جبريل الى صدره ولفه بجناحيه وصعد به الى السموات السبع ، ووجد فى كل سماء طبقة من الملائكة تسبح

وبلغا السماء الاولى « ففتحوا لنا الباب ودخلنا فاذا هى سماء من دخان » « يقال لها الرفيعة » ، ورأى فيها اسماعيل « خازن سماء الدنيا » « ونظرت فاذا فيها نهران عظيمان مطردان فقلت ماهذان

النهران يا جبريل ؟ قال : هذا النيل وهذا الفرات ، عنصرهما اى اصلهما من الجنة . واذا بنهر اخر وعليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضربت يدى فيه فاذا هو مسك اذفر . فقلت : ما هذا النهر ؟ فقال : هذا الكوثر . وراى فى السماء الاولى سبعين الف فارس فى الحل والحلل يحملون حرايا من نور يقودهم اسماعيل خازن سماء الدنيا الذى يركب فرسا من نور وعلم النبى أن هذا الجيش من الملائكة هم « جند الله » . وكذلك راى فى السماء الاولى « الملك الموكل باكتاف السموات وهو انصح الملائكة لبني ادم » . وقال فى وصفه : « واذا انا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفىء النار ، له الف رأس ، فى كل رأس الف وجه فى كل وجه الف فم فى كل فم الف لسان يسبح الله تعالى بالف لغة لا يشبه بعضها بعضا » ..

ثم صعدا الى السماء الثانية : « فاذا هى سماء من حديد لا وصل فيها ولا فصل يقال لها : « المذون » وراى فيها « جند من الملائكة خلقهم الله تعالى لنصرة الاسلام الى يوم القيامة . وفى السماء الثانية راى يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم « يوحنا والمسيح » ثم صعدا الى السماء الثالثة « فاذا هى سماء من نحاس يقال لها الزينة » وراى فيها « ملائكة ليلة القدر وشهر رمضان » يحملون الروية خضراء . وفى السماء الثالثة راى شيخا وشابا هما داود وسليمان وبينهما غلام صبيح هو يوسف بن يعقوب . ثم صعدا الى السماء الرابعة : « فاذا هى من فضة بيضاء يقال لها الزاهرة » . وفى السماء الرابعة راى ادريس الذى رفعه الله مكانا عليا ثم رايت ملكا بين يديه وعن يمينه وعن شماله ينتظرون أمر الله تعالى عز وجل ، وعن يمينه لوح وعن شماله شجرة عظيمة الا انه لم يضحك أبدا . وكان هذا عزرائيل ملك الموت . وفى حديث المعراج « فهو ومالك خازن النار لا يضحكان أبدا » . ويبد عزرائيل حربتان حربة من نور يقبض بها الارواح الطيبة ويرسلها الى عليين وحربة سخط يقبض بها الارواح الخبيثة ويرسلها الى صخرة سوداء مدلومة تحت الارض السابعة السفلى ، واسم هذه الصخرة « سجين » وهو يرسل الى المحتفر اربعين ملكا لينزعوا روحه من جسده ، وفى القمر يكون سؤال الملكين منكر وتكر للاموات . وفى السماء الرابعة راى النبى أيضا ابراهيم الخليل وحادثة . ثم صعدا الى السماء الخامسة فاذا هى سماء من الذهب الاحمر واسمها السماء الخامسة المنيرة وقرأ النقش على بابها مثلا يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » فلما قرأها سقط القفل وانفتح الباب فنظرت فيه مشرقا من السماء الخامسة الى تخوم الارض الرابعة السفلى

وإذا بهم مظلمة ممزوجة بغضب الله ودخانها قائم « ورأى مالمسكا
 خازن النار فأطلعه مالك على ما في الجحيم من عذاب للمذنبين . ثم
 انطبق الباب وعاد كما كان وصعدا الى السماء السادسة فاذا هي
 سماء من ياقوتة خضراء اسمها « الخالصة » « ورأيت فيها من خلقه
 ربى عز وجل ملكا عظيما جالسا على كرسى من نور نصفه من ثلج
 ونصفه من نار فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفى النار .. فقلت
 يا جبريل من هذا ؟ قال : « هذا ملك خلقه الله ووكله باكتشاف
 السموات وهو انصح الملائكة الى امتك وفي السماء السادسة رأى
 موسى . ثم صعدا الى السماء السابعة فاذا هي سماء من نورة
 بيضاء يقال لها العجيبة وهي العالية لم اسمع فيها صرير الاقلام «
 ورأى أبانا ادم في السماء السابعة ، وهي اخر السموات في حديث
 المعراج ، راه جالسا على كرسى من نور وقد أسند ظهره الى البيت
 المعمور وهو تلقاء الكعبة : « قال ورأيت البيت المعمور وفيه قناديل
 من جواهر وانوار مصطفة حوله بعضها من ياقوت أصفر وبعضها
 من زبرجد أخضر وبعضها من لؤلؤا رطب واذا بالملائكة يطوفون حوله «
 وعلم جبريل انه لا يؤذن له أن يقترب من العرش أكثر من ذلك
 فتخلف : « واذا بالنداء من قبل الله تعالى : زجوا حبيبي محمدا
 في النور ، فانثنى الملائكة يرفرف أخضر كمثل المقعد يحمله أربعة
 من الملائكة « وانطلق به الملائكة حتى انتهى الى بحر من نور أبيض
 ثم الى بحر من النور الأخضر ثم الى بحر اسود وفيه رأى الملاك
 ميكايل الذى شرح له وظائف الملائكة « ولم ازل أخترق صفوف
 الملائكة حتى انتهيت الى افرق أصفر وأخضر وهو ساجد يقول فى
 سجوده سبحان الله العظيم ، فاذا سبح ذلك الديك سمعت ديوك
 الارض جميعا « وفي السماء السابعة رأى النبی الملائكة الروحانيين
 والكروبيين « الساروفيم والشاروبيم » وهم حملة العرش ثم اخترق
 سبعين الف حجاب من النور الأبيض ومثلها من الزمرد الأخضر
 ومثلها من المسك ومثلها من العنبر ومثلها من الجبروت ، حتى
 انتهى الى حجاب الدخان ثم حجاب الظلمة ثم حجاب النور ثم
 حجاب الملك .. حتى انتهى الى حجاب الفردانية .. وهناك
 كالم الله وتشفع له فى امته فخفف عنها ثم اذن له أن يرجع فصاد
 الى حيث ترك جبريل وجلس معه فى جنة النعيم حيث رأى رضوان
 خالق الجنة يجلس على كرسى من نور

« فقال جبريل : يا رضوان خذ بيد حبيب الله واره الجنة وما اعد
 الله له ولايته فأخذنى وادخلنى الجنة فنظرت فاذا أرضها بيضاء مثل
 الفضة وحصلها من اللؤلؤا والرجان وترابها المسك ونباتها الزعفران
 واحجارها ورقة من فضة وورقة من ذهب والثمار عليها مثل النجوم
 المشبهة والعرش مستقيما والرحمة حشوها والملائكة سكانها والرحمن

جارها فأخذ رضوان بيدي وسرنا بين أشجارها وما فيها من سرور
وعيون وصور عين وأبكار وقصور عاليات وولدان كأنهم الأقمار وخدم
وحشم وكرم وأنعام ونعيم ومقام وخلود وسعود ودوام فرح في جوار
الملك العلام ، ورأيت قبة من لؤلؤة بيضاء معلقة بلا علاقة تحملها أو
تمسكها لها ألف باب من الذهب الأحمر ، على كل باب ألف وصيقة
ورأيت داخل القبة ألف مقصورة في كل مقصورة ألف غرفة في كل
غرفة ألف سرير على كل سرير ألف فراش من الاستبرق بين كل فراش
وفراش نهر من ماء يجري وفوق كل فراش حورية تحب الناظر وتدهش
الخاطر فرفعت بصري متعجبا وإذا بالتداء من العلى الأعلى : اتعجب من ذلك
يا محمد ؟ انظر الى صدر القبة تر العجب . فتأملت صدر القبة فإذا
هي مد البصر وإذا فيها قبة من الزمرد الأخضر وفيها سرير من العنبر
الابيض مرصع بالدر والجوهر عليه جارية كحلأ نجلأ شكلاء دعجاء
أحسن من الشمس والقمر ، وأين للشمس والقمر حسن ملاحه مثل
مالها ، خلقها الله من قدميها الى ركبتيها من الكافور الابيض ومن ركبتيها
الى صدرها من المسك الأذفر لها ألف وستمئة ذؤابة من الشعر لو
أشرفت على أهل الأرض لأضاء من خنصرها المشرق والمغرب ولو بصقت
في البحر المالح لأصبح عذبا : فقلت : يا أخى يا جبريل . لمن هذا
النعيم العظيم والعطاء الجسيم ؟ فقال : يا حبيب الله هذا لمن يموت
وهو يشهد أن لا اله الا الله وأنت رسول الله حقا . قال : ورأيت
نعما وملكا كبيرا ، ورأيت فيها سبعة أنهر : نهر من ماء ونهر من لبن
ونهر من خمر ونهر من عسل ونهر من السلسبيل ونهر من الرحيق
ونهر من النسيم ونهر الكوثر . ولم أزل أنزل من سماء الى سماء فما
مررت على شيء في السموات الا وهو يقول لا اله الا الله محمد رسول
الله . فلما انتهينا الى السماء الدنيا اذا الليل على حاله لم
يتقدم ولم يتأخر . فركبت وأتيت مكة شرفها الله تعالى وعظمها «
فما أخذه دانتى في « الفردوس » عن التراث الاسلامى ومن قصة
المعراج بالذات واضح وصريح . وهو أن السموات لها عدد فهى سبع
سموات جعلها دانتى تسما وهي مرتبة في حديث ابن عباس على
النحو التالى : الاولى سماء الدخان . الثانية سماء الحديد . الثالثة
سماء النحاس . الرابعة سماء الفضة . الخامسة سماء الذهب .
السادسة سماء الياقوت الاخضر وأخيرا السابعة وهي الدرة البيضاء .
وفي دانتى نجد السموات مرتبة بحسب الفكرة التقليدية عن الكواكب
السيارة : فالاولى سماء القمر . والثانية سماء عطارد . والثالثة سماء
الزهرة . والرابعة سماء الشمس . والخامسة سماء المريخ ،
والسادسة سماء زحل . والسابعة سماء المشتري ، والثامنة هي
السماء الدرية أو سماء الكريستال . والتاسعة هي سماء العنبر ويلاحظ
أن السماء السابعة في ابن عباس جمعت بين الدرية والعنبرية وهي
على هذا تقابل السماء الثامنة والسماء التاسعة عند دانتى . ويلاحظ
أن كوزمولوجيا دانتى تتبع كوزمولوجيا قصة المعراج من حيث التدرج

مع الصعود في رموز الفنى والصفاء والسعادة بمقدار ما يعتمد من الأرض وظلها فالحديد أرقى من الدخان والنحاس أرقى من الحديد والفضة أرقى من النحاس والذهب أرقى من الفضة والدر أرقى من الذهب وبالمثل يتنبأ دانتى أن ظل الأرض ، أو ظل المادة الحاجب للحقيقة والمثل يخف درجة درجة كما ارتفع من القمر الى عطارد ومن عطارد الى الزهرة ومن الزهرة الى الشمس ومن الشمس الى المريخ ومن المريخ الى زحل ومن زحل الى المشتري وأتينا بالتدريج نبلغ من الصعود النورانية الكاملة كذلك فإن دانتى لم يزعم أنه صعد هذه السموات بجناحين وإنما يحدثنا صراحة أنه صعد على معراج ذهبي حيث يقول مثلاً : « ورأيت سلماً يرتفع ارتفاعاً عظيماً حتى مجزت عيني عن تتبع منتهاه ، وكان السلم بلون الذهب الذى أضاه شعاع من الشمس » « التشديد ٢١ من الفردوس » كذلك نرى دانتى يتوسع في وصف الفردوس برموز الاحجار الكريمة كالزبرجد والعقيق والياقوت والدر ويتوسع في وصف الرياض الخضراء والازهار من الجنة ولا سيما في السماء التاسعة ، كذلك يقتبس دانتى من قصة المعراج تصنيف الملائكة في السموات المختلفة وهو لا يكتفى بوضع ملائكة الصاروفيم والشاروبيم بالقرب من العرش على غرار الملائكة الروحانيين والكروبيين . الذين يحملون العرش في قصة المعراج ، بل ينقل عن حديث المعراج صورة الملائكة الفرسان من جنود الاسلام ، ومكانهم في ابن عباس في السماء الثانية . هؤلاء نجدهم في دانتى جنود المسيح . كذلك اصرار دانتى في الانتقال من سماء الى سماء حين يذكرنا بسرعة الصعود كلمح الخاطر أو كانهلاك السهم ليس الا صدى لما رآه من وصف الصعود في قصة المعراج بأنه كان في كل مرة يتم « في أسرع من طرفه عين » وبالرفرف الاخضر الذى سار بالرسول « كالسهم الذى يخرج من القوس » ، ومثله اهتمام دانتى ببيان المسافات الفاصلة بين كل سماء وسماء ليس الا صدى لما قرأه في قصة المعراج ومثله اصرار دانتى على وصف ترحيب الملائكة به في مراحل رحلته المختلفة . ومثله وصف نهر النور المقابل للكوتر في الجنة في حديث المعراج ومن يقرأ المطهر يجد أن دانتى قد ذكر في ختام هذا القسم من « الكوميديا الالهية » في (التشديد ٣٣) أن الدجلة والفرات يخرجان من عين من عيون المطهر ، وقد وقفت بجوار هذه العين سبع نساء أو سبع من حور العين وليس هذا الا صدى لما جاء في حديث المعراج من أن النيل والفرات يجريان في السماء الاولى وأن متبعهما في الجنة أو في السماء السابعة مثل الكوتر . فاذا ما بلغنا السماء السابعة في حديث المعراج عن ابن عباس عرفنا أن هناك « سبعة أنهار » وفي « المطهر » قادت مايلدا دانتى لشرب من ايونوى فما أن شرب منها حتى عاد الى بياتريس « نقياً مشوقاً الى الصعود نحو النجوم » . وما « ايونوى » هذه في دانتى الا كلمة « العين » نقلها الشاعر الايطالى عن التراث الاسلامي . وقد سبق لاسسين بلاسيوس أن ذكر أن « النسر » في

« فردوس » دانتي ليس الا ذلك الوارد ذكره في قصة المراج وكذلك لقاء الانبياء في السموات المختلفة كذلك لقاء آدم في السماء العليا يتواتر في قصة المراج وفي « الكوميديا الالهية »

غير أن بعض التفاصيل الواردة في « فردوس » دانتي توحى بأنه اقتبس أيضا من القرآن الكريم ومن « رسالة الغفران » وربما من غير ذلك من المصادر الإسلامية . فتصويره للوردة السماوية يوحي بأن له صلة ما بما جاء في سورة الرحمن : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » . وقد اخذ دانتي من وردة الفردوس البيضاء رمزا لمريم العذراء ، فينوس السماوية أم الحب الالهى ، ووصف الوردة بأن أوراقها هي الملائكة . وكان تقيضها في العصور الوسطى هو الوردة الحمراء ، رمز فينوس الجسدية أم الحب الشهواني . وقد كان للوردة ادب عزيز في العصور الوسطى الأوروبية مثل « رواية الوردة » الشهيرة وهو كله قصص ظاهره دنيوى وباطنه بحث بالخيال في الالهيات على طريقة دانتي . ومنه ما هو سابق لدانتي وليس له في التراث الكلاسيكي الأوروبي أصول معروفة . فليس يبعد أن تكون أوروبا المسيحية في العصور الوسطى قد اخذته من العالم الاسلامي من طريق اسبانيا وصقلية وترجمت رموزه الحمراء رمزا للجحيم . والعمرى نفسه ينسج على صورة « الوردة » في « سقط الزند » ويجعل جحيم الوردة الحمراء في الأرض لا في السماء

« فإذا الأرض وهي غبراء صارت
من دم الطعن وردة كالدهان »

ولكن الوردة الواردة في القرآن وتفسيرها هي المقابل الاصلى الذي خرجت منه كل هذه الاجتهادات في ادب الوردة على أرجح الاحتمالات كذلك توحى بعض معالم « الكوميديا الالهية » بمعرفة دانتي « برسالة الغفران » فإذا نحن تأملنا الهيكل العام لرسالة الغفران وجدناه يقوم على محاورات المعرى مع الشعراء في الجنة ، وإذا نحن تأملنا الهيكل العام « للكوميديا الالهية » وجدناه يقوم على محاورات دانتي مع القديسين وفلاسفة الدين ، فالهيكل واحد والمنهج مشابه رغم اختلاف مقصد الشاعرين . بل أن وقوف دانتي حين بلوغه لسماء العنبر أمام بطرس حامل مفاتيح الفردوس في المسيحية لم أمام يعقوب ويوحنا وامتحانهم اياه في مبادئ العقيدة لمعرفة مدى ايمانه واجازة دخوله الفردوس يذكرنا بوقوف ابن الفارح أمام رضوان خازن الجنة ومثوله أمام حمزة وعلى بن ابي طالب ليناقش في دينه قبل دخوله الجنة . وهو موقف لا وجود لشبيه له في قصة المراج فلا يستبعد أن يكون دانتي قد اقتبس من « رسالة الغفران » كذلك لم يرد في ابن عباس ذكر لارجاء المسجد والاحجار الكريمة التي تدور في الفردوس دوران الافلاك وهذه الارحاء الموصولة وصفا جميلا في « رسالة

الففران « نجدها في دانتى « موفيا » متكررا ، حيث نرى ملائكة النور
 تتكون منها دائرة « وتدور حول نفسها دوران الرمح السريعة »
 « الفردوس » (النشيد ٢١) أو تتخذ شكل اكليل من الزهر وتدور
 حول زائر الفردوس دوران الرمح فيسمع منها موسيقى الافلاك .
 كذلك يذكرنا لقاء دانتى لآخيار الوثنيين في الجنة بلقاء ابن القارح
 لآخيار الجاهلية في الجنة . يذكرنا احتجاج دانتى على توزيع اللطف
 الالهى على الخطاة في قصة بيكاردا وكونستانس ووضعهم في الدرجات
 الواطنة من الفردوس « النشيد ٤ » باحتجاج بعض شخصيات المعرى
 على دخول بعض الشعراء الفاسدين « بالخطأ » جنات النعيم رغم أن
 مكانهم الطبيعي هو الجحيم . وكذلك يذكرنا قول آدم في النشيد ٢٦
 من « الفردوس » : « أن اللغة التي كنت أتكلم بها قبل أن يحاول
 شمس نمرود بناء صرحهم الذي لا سبيل الى اتمامه كانت قد انقرضت
 تماما » قيل أن يشرعوا في ذلك « (يقصد بناء برج بابل الذي ببلبت
 به السنة البشر) ، يذكرنا هذا بقول آدم في « رسالة الففران » انه
 ينكر كل ما نسبته اليه العرب من شعر لانه لم يكن يتكلم العربية
 في الجنة بل كان يتكلم السريانية وغير هذا كثير من المواقف
 والصور والعبارات التي نجدها في « الكوميديا الالهية » ولا نجد لها
 نظيرا في قصة المعراج ولا يسهل تفسيرها الا بافتراض اطلاع دانتى على
 « رسالة الففران » في صورة من صورها مترجمة أو ملخصة أو معروفة
 باللاتينية

فهرس

٧	على هامش الغفران
١٣	نعيم هوميروس
٣١	جحيم هوميروس
٤٧	الشعراء فى الآخرة
٦٣	شئ من التاريخ
٨٣	كلمة عن ابن القارح
١٠٠	رسالة الغفران
١١٨	نعيم المعرى
١٣٩	الكوميديا الالهية : الجحيم
١٦١	الكوميديا الالهية : الفردوس

كتب هلال صدرت في سنة ١٩٦٥ ، ١٩٦٦

رقم الكتاب

- | | |
|--|-----|
| محمد رسول الحرية : | ١٦٦ |
| عبد الرحمن الشرقاوى : | ١٦٧ |
| د . لويس عوض : | ١٦٨ |
| اسرائيليات : | ١٦٩ |
| أحمد بهاء الدين : | ١٧٠ |
| حقوق الاسلام وابطايل : عباس محمود العقاد | ١٧١ |
| خصوصه | ١٧٢ |
| مختارات من برناردشو فى : د . عمر مكاوى | ١٧٣ |
| النقد والسياسة | ١٧٤ |
| اساطير الحب والجمال عند : درينى خشبة | ١٧٥ |
| الافريق | ١٧٦ |
| عشرة أدباء يتحدثون : | ١٧٧ |
| فؤاد دودة | ١٧٨ |
| ١٧٩ ، ١٧٤ مذكرات شارلى شابلي : صلاح حافظ | ١٧٩ |
| ج ١ ، ج ٢ | ١٨٠ |
| كتابات لم تنشر : | ١٨١ |
| د . محمد مندور : | ١٨٢ |
| ثورة الزنوج فى امريكا : | ١٨٣ |
| د . عبد الملك عودة : | ١٨٤ |
| معارك فكرية : | ١٨٥ |
| محمود أمين العالم : | ١٨٦ |
| أبو ذر الفقارى : | ١٨٧ |
| عبد الحميد جودة السحار : | ١٨٨ |
| دليل التفسيرج الذكى الى : الفريد فرج | ١٨٩ |
| المسرح | ١٩٠ |
| رسائل نهرو الى انديرا : | ١٩١ |
| أحمد بهاء الدين | ١٩٢ |



هذا الكتاب

هذا الكتاب طائفة من الأبحاث عن أدب الآخرة نشرها الأستاذ الدكتور لويس عوض في ملحق الأهرام بين ١٦ أكتوبر و ١١ ديسمبر ١٩٦٤ ، وموضوعها تصور الشعراء والادباء للتعليم والنجيم والجحيم من هوميروس الى ارسطوفانيس الى لوسيان في الادب اليوناني الى المعري في الادب العربي الى دانتي في الادب الايطالي ، مارا بفرجيل وأوفيد في الادب اللاتيني . فهو إذن بحث في الادب المقارن معوره كتاب المعري العظيم « رسالة الففران » وبيان مدى تأثيرها باليونانيات ومدى تأثيرها في « الكوميديا الالهية » لدانتي العظيم

وقد أثارت هذه السلسلة عند نشرها في ملحق الأهرام معركة عاصفة وكانت القضية التي أثارت هذه العاصفة اشتباه الدكتور لويس عوض بأن المعري كان متأثرا في « رسالة الففران » ببعض المفاهيم اليونانية بمثل ماكان مؤثرا في « الكوميديا الالهية » . والحق أن جوهر المشكلة التي أثارها الدكتور لويس عوض هو جوهر المشكلة التي أثارها من قبل عميد الادب العربي الدكتور طه حسين في العشرينات ومعها كافة أنصار الجديد ، الا وهي ضرورة إعادة فتح باب الاجتهاد في دراسة تراثنا كمقدمة لازمة لتجديد هذا التراث . أما أنصار القديم فموقفهم كان دائما « نقديس » التراث القومي واعتباره مساويا لذاته منقطع الوشائج بكل ماحوله من تراث انساني عظيم